

سانين  
أو

ابن الطبعية

تقريب: ابراهيم عبدالقادر المازني  
تأليف: ارتزيبيا سيف



## اهداء الكتاب

إلى ذكرى من لا تزال ذكرها المحبوبة تجدد في قلبي حسرة الوجد  
وزفرة الجوى ، إلى من كانت مصدر إلهامى ، وشريكة مجهوداتى فى صفوة  
ما سطره يراعى ، إلى الصديقة الوفية ، والزوجة المخلصة التى كنت أجد من  
راسخ إيمانها بالحق ورفيع تقديرها للصدق أحث مشجع ومهيب ، كما كنت  
أجد فى جميل استحسانها ، وكريم إعجابها ، خير مكافئ ومثيب - أهدى  
كتابى هذا ، - شأن كل ما لبثت أكتب منذ سنين عدة - لبيت إلهيا بمثل  
ما يمت إلى ، وإن كان لم يحظ من نفيس تنقيحها بأقصى الكفاية ، ولم يستوف  
من ثمين تهذيبها أبعاد غاية ، إذ بقيت طائفة من أجل أجزاءه كانت قد أعدت  
كما تعيد فيها نظرة مثبتت مستمهل ، ولكن أبى القدر إلا أن يحرم الكتاب تلك  
النظرة ، ولو أنى أوتيت سحر البيان مما أعبر به للناس عن نصف ما ضمنت  
حفيرتها من رائع الخواطر وشريف العواطف ، لأسديت إليهم أضعاف أضعاف  
ما يستفيدون من كل ما أنا كاتبه ، غير مستعث بهمتها الماضية . ولا مؤيد  
بحكمتها العالية ؟

« المؤلف »





لم يقض فلاديمير سانين أهم أدوار حياته في بيته بين أبويه وهو الدور الذى يتكون فيه خلق المرء بالاتصال بالعالم والامتزاج بالناس . ولم يكن له من يتعهد به أو يهديه ، فتفتحت روحه كما ينمو الغراس فى أتم حرية وأكمل استقلال .

غاب عن بيته ستين ، فأما آب كادت تنكره أمه وأخته « ليدا » ولم تكن معارف وجهه وصوته وشمائله قد تغيرت إلا قليلا . ولكن شيئا غربياً جديداً ناضجاً حدث على شخصيته فأجال فى محياه ضوءاً وأكسبه معنى لم يسبق بهما العهد . وكانت أوبته مساء فدخل الغرفة دخول من زايها منذ خمس دقائق . وكان يعييك أن تلمح فى وجهه الساكن أو أن تستكنه من ركنى فيه الناطق ببعض السخر - شيئاً من أمارات الإعياء أو دلائل تحرك النفس وهو واقف فى الغرفة مديد القامة وسيم الطلعة عريض الكتفين . فقرت ضجة التحية التى استقبلته بها أمه وأخته من تلقاء نفسها .

وجلس يأكل ويترشف الشاي وأخته قبالة تحدجه بنظرها وكانت مسغوفة به شأن مثيلاًتها - أو جلهن - من الفتيات الخامحات الخيال فى الولوع بأخواتهن الناتين عنهن . وكانت أبدأ تتمثله شخصاً غربياً بالعان غرباة الأمر مبلغ من تقرأ عنهم فى الكتب ، وتتصور حياته وغى دائرة الارحاء . بشتى الفواجع والمآسى ، وتحسب أن حظها من انعيش انشجى والوحدة ، ككل روح ضحمة مستعججة .

فقال لها سانين وهو يبتسم « لماذا ترمينى بهذه النظرة ؟ » .

وكانت هذه الابتسامة الهادئة والنظرة الفاحصة مألوف ما يباطمك من وجهه ولكن العجيب أنهما لم يقعا من « ليدا » موقع الارتياح وكأنما خيل إليها أن فيهما معنى الرضى عن النفس ، وأنها لا يمان عن شىء من الصراع والألم الباطن وصروت وجهها عنه ولم تنبس ثم جعلت غير عامدة بغاب صنعحات كتاب .

ولما قضاوا من الطعام والشراب حاجتهم مسحت أمه شعر رأسه في حذب  
وحنو وقالت :

« والآن حدثنا عن حياتك وما صنعت هناك » .

فقال سانين وهو يضحك : « ما صنعت ؟؟ لقد أكلت وشربت ونمت .  
وكنت حيناً أعمل ، وحيناً آخر لا أعمل شيئاً ! » .

فجری فی وهما بادیء الرأى أنه لا يريد أن يحدثهما عن نفسه ولكن  
أمه لما شرعت تسأله عن هذا الأمر بعينه أو ذاك ألفتة يرتاح إلى قص تجاربه .  
غير أن المرء لم يكن يسعه إلا أن يحس - لأمر ما - أنه لا يعبأ شيئاً بما يكون  
لقصصه من الوقع والأثر في نفوس السامعيها . ولم يكن في شمائله - على  
دمائها ورقة حواشيا - ما يتم على تلك الألفة التي لا تكون إلا بين أهل الأسرة  
الواحدة . وكأما كان لطفه ودمائته من عنو الطبيعة كالمصباح يريق ضوءه  
على كل شيء بلا تمييز .

وبرزوا إلى شرفة الحديقة وجاسوا على درجها وجلست «ليدا» دونه تصغى  
إلى حديثه في صمت ، وأحست في قلبها برد الخليلد وقالت لها غريزتها  
النسوية الذكية إن أبحاثها غير ما خالت . واستشعرت الحجل والارتباك في حضرته  
كأنه أجنبي منها . وانتشرت على الأرض غيايات العشى وزحفت حولهم  
الظلال . وأشعل سانين سيجارة فاختلف شذى الطباقي (التبغ) بأرج الحديقة وقص  
عليهما سيرته وكيف رمت به حياته المرامي وكيف طوى كثيراً وتشرد  
وكيف خاض لجج الجهاد السياسي وكيف أنه لما أدركه الوني والفتور أفلع  
عنها وكص .

وكانت «ليدا» مائلة إليه بسمعهها دون حراك وعليها من رفة الحسن  
والحلاوة ما نفيضه أصائل الصيف على كل فائنة عذراء .

وكانت كلما أوغل في الحديث تزيد افتناعاً بأن حياته ، التي وشاها خيالها  
بأبهج الألوان وأشدّها لألاء ، لم تكن في واقع الأمر إلا عادية كأبسط ما  
تكون . ولكن فيها على هذا شيئاً عجبياً . وما ذلك ؟؟ هذا ما لم تستطع اكتناؤه .  
على أنه مهما يكن من الأمر فإن حياته على ما جاء في روايته لم تعد أن تكون

بسيطة ممة فاترة . يظهر أنه عاش حيناً اتفق ولم يعتمد شيئاً يفعلهُ على التحيين .  
 فيوماً يشتعل ويوماً يتبطل . ومن الجلى كذلك أنه كلف بالشراب وأن له خبرة  
 بالنساء . وأحر بمثل هذه الحياة أن تخلو من الخلوكة أو الشر وهي لا تشبه  
 في دقيق أوجليل ما توهمته من سيرته - لافكرة يحيا لها ، ولا هو يكره مخاوقا  
 ولا تعذب في سبيل كائن ما . ولقد كربها حتماً بعض ما صارحها به وبخاصة لما  
 قال إنه بلغ من خصاصه ورقة حاله مرة أن رقع سراويه الممزقة بيده .  
 فلم تملك إلا أن تسأله « أوتعرف إدن كيف تحوك ؟ » وفي صوتها نبرات  
 اللعشة والزرابة . إذ كانت تعد ذلك هراً وأضعه ، وترى فيه ما يماي الرجولة  
 في الواقع .

فقال سائين باسما ، وقد دطن إلى مادار في خاطر أخته : « لم تكن لي بدلك  
 دراية في أول الأمر واكنى ما لبثت أن تعلمت بكرهى » .  
 فهزت الفتاة كتفها بلا احتفال ولزمت الصمت ورمت الحديقة بعينها وخبيل  
 إليها كأنها كانت تحلم بالشمس الضاحية ، فلما فتحت عينها لم تجد غير سماء عائمة  
 مقرورة .

واكتأبت أمه كذلك وحز في نفسها أن ابنها لم يشغل المركز الذى هو أهل له  
 بحكم منزلته في المجتمع . وشرعت تقول له إن الأمر لا يمكن أن تظل جارية  
 على هذا النحو وإنه ينبغى له أن يكون فيما يستقبل من أيامه أرشد وأحزم . وكانت  
 تكلمه في بادىء الأمر على حذر ثم بدأ لها أنه لا يكاد يجعل باله إلى ما تقول  
 فأخذها الغضب شيئاً فشيئاً ، وألحت عايه بالكلام ذاهبة إلى العناد والمشادة  
 شأن العجائز السخيفات من نظائرها لتوهدها أن ابنها يعتمد أن يكايدها . ولكن  
 سائين لم يعجب ولم يضجر وكأنه لم يفهم ما قالت فظل صامتاً غير مكترث .  
 بيد أنه لما سأله « كيف تنوى أن تعيش ؟ » قال مبتسماً « على نحو ما »  
 وكان صوته الهادىء المتزن ونظرته السريعة يوقعان في الروع أن لهذه  
 الكلمات - التى لم تفهم منها أمه لا ما يلا ولا كثيراً - دلالة عميقة محدودة عنده .

فتهدت ماريبا إينانوفنا وقالت بهدفرة بشيء من القلق: «هذا شأنك على كل حال فقد شببت عن الطوق ولم تعد طفلا. ينبغي أن تطوب الحديقة فإن مجلاها بروق النظر الآن» .

فقال سائين لأخته: «نعم تعالى لتريني الحديقة فقد نسيت شكلها» .  
فانتبهت «ليادا» من نحواطرها وتهدت ونهضت ومشيا جنبا إلى جنب في الطريق المفضى إلى قلب الحديقة الجهمية .

وكان البيت على الطريق الأكبر في البلدة ، ولما كانت هذه صغيرة فقد امتدت أرض الحديقة إلى النهر ومن ورائه الحقول . والبيت قصر عتيق في عمدته على الجانبين رخاوة وله شرفة رحبية وكانت الحديقة على سعتها مهملة هائجة حتى ليحسبها رائها سحابة خضراء باهتة قد نزلت إلى الأرض . وهي بالليل كثنوى الأشباح وكأنما يغشاها طيف حزين يسرى بين أغراسها المتوشجة أو يروح ويغدو في قلق على البلاط الترب بذلك البناء القديم . وفي الدور الأرضي جملة الحجر الفارغة تكسوها الأبسطة الحائلة والستائر الخالكة ثوبا مظلم ولم يكن يتخلل الحديقة إلا طريق واحد ضيق أومر ، مبعثرة في نواحيه الأغصان المصوحة والصفادع المسحوقة . وكل ما في الحديقة من دلائل الحياة المادئة المظمئة محشود في ركن واحد منها . وثم على كئيب من البيت ياتمع الرمل الأصفر والحصى وهناك - إلى جانب حوض أنيق من الزهر يومض في نوره الطل - يرى المرء مائدة خضراء يجاسون إليها للطعام أو الشاي في الصيف . فكانت هذه الزاوية الصغيرة التي نفخت فيها الحياة الساسه الساذجة من روحها على نقيض ذلك القصر الضخم المهجور، المقضى عايبه بالتداعي المحتوم .

ولما حذى البيت عن أعينهما وأحاطت بهما الأشجار الصائمة الساكنة كأنها الشهود تنظر وتروى . دفع سائين ذراعه فجأة حول خصر ليادا وقال بلهجة جامعة بين الرفة والعنف :

« لقد صرت آية ! وسيسعد بك أول من نحيب من الرجال » .

فأرسلت لمسة ذراعه وعضلاته الحديدية هزة نار في عود ليدا اللين  
الغض . وصبغ وجهها الخجل ، واضطربت فتنححت عنه كأنما قاربها وحش  
غير مرئي .

وكانا قد بلغا حافة النهر فصعدت إليهما رائحة بليلة رطبة من الأعشاب  
المطرقة المترنحة في الماء وبدت مما يلي النهر الحقول في رداء من غيش الغسق  
تحت سماء مترامية تومض فيها طلائع النجوم .  
ومال سانين وتناول عوداً جافاً زاوياً ووقفه وألقى بكسره في تيار الماء  
فانداحت في لحته الدوائر وزالت بأسرع مما ظهرت . وحنث الأعشاب  
الناطقة رعوسها كأنما أرادت أن تحيي في سانين ندها ورفيقها .

( ٢ )

كانت الساعة السادسة والشمس مازالت وضاءة ، ولكن الحديقة ارتمت  
فيها الظلال الرقيقة . وكان الجو كله ضوءاً وحرارة وسجواً . وكانت ماريا  
إيفانوفنا تصنع مربى ، فانبعثت تحت شجرة الزيزفون الخضراء رائحة قوية  
من السكر المغلى والتوت البرى . وكان سانين يكدح نهاره في أحواض الزهر  
معالجاً أن ينفث الحياة في بعض أعوادها التي أضربها التراب والحر .  
فقالت له أمه مقترحة : « أولى لك أن تتعلم الحشائش أولاً . قل لجرونكا  
تصنع ذلك لك » .

وكانت ترقبه وتنتحيه بعينها من حين إلى حين من خلال اللهب الأزرق  
المرتعش .

فرفع سانين رأسه وهو متقدم وقال باسمها : « ولماذا؟ » ورد شعره  
المتهدل على جبينه « لتتم كما ساءت فأني أحب كل أخضر » .

— « أما إنك لفتى مضحك ! » .

وهزت كتفها باشة ، وقد سرها جوابه لأمر ما .

فقال سائين بلهجة الجازم المقتنع : « إنكم أنتم المضحكون » ، ثم انصرف إلى البيت ليغسل يديه ولما عاد تمطى على كرسي ذى ذراعين مصنوع من عيدان الصفصاف وشاع في جواب نفسه الاغتباط وفي صدره ووجهه الانشراح، وأشعرته خضرة الروضة ونور الشمس وزرقة السماء لذة الحياة أيما إشعار . وكان نفوراً من المدن الكبرى بمقت ضجتها . أما هنا فليس إلا الشمس والحرية . ولم يكثر للمستقبل ولا أحسن من أجله ديب القلق إذ كان غير متبطر — يتقبل من الحياة ما شاءت أن تهديه إليه وأغمض جفنيه كل الإضماض ومط جسمه واهتز مسروراً لتوتر عضلاته القوية الصحيحة .

وهب النسيم عليلاً وعادت الحديقة كلها وكأنها تزفر وجعلت العصافير هنا وههنا تصخب مناعية عن حيواتها المهمة وإن لم تكن بالمفهومة وكان كلهم « ميل » مستلقياً على الحشائش الطويلة منصتاً وأذناه مرهفتان ولسانه الأحمر متدل من فمه . وأوراق الشجر تهامس وظلالها المستديرة ترتعش على الحصى الأملس .

وهاج ماريلا إيفانوفنا أن طائر ابنها ساكن وكان حبها له جما كحبها لأبنائها جميعاً فنازعها نفسها لهذا أن تستيره وأن تجرح احترامه لنفسه لتكرهه على الالتفات إلى كلامها ولتحميله على مشاطرتها نظرها إلى الحياة . وكانت كالنملة قد قضت كل برهة من عمرها المديد في إقامة ذلك البناء الواهي لسعادتها المنزلية . وما كان أطوله وأعراه وأخلاه من بواعث السلاوى النافية للامال ! بل ما أشبهه بالذئبة أو المستشفى ! شيد بما يخططه الحصر من دقائق اللبثات . وتالله ما أعجزها من مهندسة تحسب هذه مباحج الحياة وإن لم تكن سوى متاعب ضئيلة غادرتها في حالة دأمة من الاضطراب والقلق .

قالت : « أتحسب أن الأمور ستظل سائرة على هذا المنوال فيما بعد؟ » . وتضاغطت شفتاها وتظاهرت بأن المرئي تسغرق عنايتها . فسألها سائين : « وماذا تعنين بقولك فيما بعد؟ » ثم عطس . فظننت ماريلا إيفانوفنا أنه عطس عامداً ليهيجها وقطبت وجهها على الرغم مما في هذا الحاضر من وضوح السخافة .

ثم قال سانين وكأنه يحلم : « ما أجل أن يكون المرء هنا معك ! » ، فأجابته بلهجة جافية : « نعم فإن المقام هنا ليس بالذميمة جدلاً » ، وسرهما من ابنها اطارؤه البيت والحديقة وكانا عندها كأنهما من ذوى قرباها الملازميا .

ونظر سانين إليها ثم قال وعلى وجهه هيئة التفكير : « لو أمسكت عن مضايقتي بكل أنواع الخبايا لعاد المقام خيراً وأحمد » .

ونطق هذه الكلمات بصوت لين المكاسر فخالفت رقة اللهجة جفوة المعنى .  
فحارت مارياليمانوفنا ولم تدر أترتاح إلى ما سمعت أم تمتعض وتغضب .  
وقالت وهي مكتئبة :

— « إني لأظنر إليك وأذكر أنك في طفولتك كنت دائماً غريب الحال  
والآن . . . . » .

فقاطعتها سانين جدلاً « والآن ؟ » كأنما توقع أن يسمع شيئاً ليس أمتع  
منه ولا أبعث على السرور .

فقالت بحدة وهزت ملعقتها : « والآن أراك أشد جنونا منك في أى عهد ! » .  
فضحك سانين وقال : « هذا خير ! » ثم بعد هنيهة « هذا نوفيكوف » .  
وأقبل رجل طويل وسيم الصورة ينسجم على قوامه المعتدل قيص من  
الحرير أحمر يتوهج في ضوء الشمس وفي عينيه الزرقاوين نظرة فاترة واشية  
بسانداجته وخلوص سريرته . وقال بصوت الودود :

« هذا أنتم ! — أبدأ في خصام ! وبالله عليكم فيم تختصمون ؟ » .

— « حقيقة الأمر هي أن أى ترى أن الأنف الاعريقى أليق بي وأسب .  
ولكنى راض أتم الرضى عن أنى الذى فى وجهى » .

ونظر سانين إلى أنفه وضحك ثم مديده إلى يمينى صاحبه الكبيرة الغضة .  
فقالت مارياليمانوفنا : « كذلك أحسبني أفول ! » .

وضحك نوفيكوف ، وارتد إليهم من جانب الحديقة صدى رقيق كأنما  
هناك من يشاطرهم جنبهم ومرحهم .

- « أظنني أحزر ما أنتما فيه . إنكما من مستقبلك في لاجحة » .  
 فصاح به سانين ذاهباً إلى المداعبة ومتكلفاً الفرع « وأنت أيضاً ؟ » .  
 - « إنك تستحق هانا عدلا ! » .  
 - « إذا اتفقنا على فخير لي أن أنصرف عنكما » .  
 فصاحت به ماريانا إيفانوفنا وقد حاجت بغتة وغازها أنها حاجت : « كلا ! أنا التي ازيلكما » واحتملت قدر المرئي وأسرعت إلى البيت ولم تتلفت .  
 ووثب الكلب ونصب أذنيه وهو يراقبها ثم حك أنفه بيمينه ورمى البيت بنظرة المستفسر ثم عددا إلى الحديقة .  
 فقال سانين وقد سره خروج أمه : « أمعلك سجاثر ؟ » .  
 فأخرج نوفيكوف علبة وهو يتريث في حركته وقال بصوت رقيق نبرات العتب « لايجمل بك أن تكايدهما هكذا . إنها سيادة عجزوز » .  
 - « كيف كابدتها ؟ » .  
 - « إنك ترى . . . » .  
 - « ماذا تعنى بقولك « إنك ترى » ؟ إنها هي التي لاتزال ورأى .  
 وما أعرفى سألت إنساناً شيئاً فكان ينبغى للناس أن يدعوني وشأني » .  
 وصمت كلاهما برهة ثم سأل سانين صاحبه : « وكيف الحال يادكتور ؟ »  
 وتأثر بلحظه الدخان المتصاعد من سيجارته وهو يتاوى فوق رأسه .  
 - « الحال سيء » .  
 - « كيف ؟ » .  
 - « من كل وجه . كل شيء ممل وهذه البلدة الصغيرة تأخذ بمخني  
 وليس ما يعمل المرء فيها » .  
 - ليس ما تعمل ؟ إنك أنت الذي شكوت من أن الوقت لا يتسع  
 للتنفس ؟ » .



- « ليس هذا ما أعنى . إن المرء لا يستطيع أن يظل عمره يعود المرضى . ولا أحد غير المرضى . هناك حياة أخرى غير هذه . »
- « وما يمنعك أن تحيا هذه الحياة الأخرى ؟ »
- « هذه مسألة فيها بعض التعقيد والإشكال . »
- « وما وجه الإشكال فيها ؟ إنك شاب جميل معافى البدن . فماذا تبغى فوق هذا ؟ »
- فقال نوفيكوف بتهمك خفيف : « هذا لا يكفى فى رأى . »
- وصحاح ساين وقال : « لا يكفى ؛ لى أراه حظاً عظيماً . »
- « ولكنه لا يكفىنى » قالها ضاحكاً بدوره .
- وكان من الجلى أنه ارتاح إلى ما قاله ساين عن صحته وقسامته . على أنه استحي كالفتاة .
- فقال ساين وكأنه يفكر : « ينقصك أمر واحد . »
- « وما هذا ؟ »
- « صحة الإدراك للحياة . إن الملل يحتم على صدرك . ولو أن ناصحاً أشار عليك مع ذلك أن تنفض نعلك من هذا المكان وأن تخرج إلى الدنيا الرجبية لأسفقت أن تفعل . »
- « وكيف أخرج ؟ كمتسول ؟ »
- « نعم حتى كمتسول ! لى كلما نظرت إليك قلت لنفسى : هذا رجل يستهين فى سبيل إيتاء الدولة الروسية دستوراً بأن يسجن فى قلعة شلو سلابرج (١) بقية عمره وبأن يعقد كل حقوقه وحرية كذاك . ومع ذلك فما هو والدستور ؟ وما أيجنيه منه ؟ أما إذا كانت المسألة مسألة تحول عن أسلوب ممل من الحياة وذهاب إلى جهات أخرى طلباً لمصالح وتمع أخرى راح يسأل نفسه : كيف أرتزق ؟ ألس على كل صحته وفوق عرصة للأذى إذا لم يكن لى مرتب معين وإذا لم

(١) قلعه يعمل فيها السياسيون أو كانوا يعقلون فيها .

أوفق لذلك إلى الزبدة إلى جانب الشاي وإلى قهصان الحرير والياقات الصلبة  
وسائر ما هو من هذا بسبيل؟ - لعمرى إن الأمر مضحك؟ .

- « لست أرى في الأمر شيئاً مضحكاً على الإطلاق ، فإن المسألة في  
الحالة الأولى مسألة قضية . فكرة . أما في الثانية . . . » .

- « ماذا ؟ » .

- « لا أدري كيف أعبر عما أريد » .

وعالج نوفيكوف أصابعه .

فقال سانين مقاطعاً: « تأمل الآن ! هذه طريقتكم أبداً في الفرار من  
الموضوع . وإن أصدق أبداً أن الشوق إلى الدستور أشد لحاجة في نفسك  
من الشوق إلى الانتفاع بحياتك على أتم وجهه » .

- « هذه مسألة متنازعه . وقد يكون الأمر كما ذكرت » .

فلوح سانين بيده تلويح الضجر وقال : « لانقل لى ! لو أن رجلا  
قطع أصبعك لأملك الأمر أكثر مما يؤملك لو أنه كان أصبع روسى آخر .  
هذه حقيقة . أليس كذلك ؟ » .

- « أو أناية » يريد نوفيكوف أن يتهم فيخرف .

- « ربما . ولكنها الحقيقة على كل حال . ومع أنه ليس في روسيا ولا  
في كثير غيرها دستور ما - بل ليس فيها أضال دليل على وشك ميلاد  
الدستور - فإن حياتك المملة هي التي تميمك وتمعدك لاعدوم وجود الدستور .  
وأقول لك أكثر من ذلك » وهنا لمع في عينه بريق السرور  
« إنك مكروب - لا من جراء حياتك بل لأن ليدالم تمل إلبك بالحب  
بعد والآن أليس الأمر كما أقول ؟ » .

- « أى هذيان هذا ؟ » .

وصار وجه نوفيكوف كحميصه حمرة وبلغ من ارتبائه أن الدموع  
وثبت إلى عينيه الفاترتين الرقيقتين .

« كيف ترى قولى هديانا وأنت لا ترى غير ليدا فى الدنيا ؟ إن الرغبة فيها مسطورة بأحرف جلييلة على جبينك » .

فاضطرب نوفيكوف اضطرابا محسوساً وأخذ يسرع فى خطواته جيئة وذهوبا ولو أن امرءا غير أخيها كلمه على هذه الصورة لتألم أبلغ الألم ولكن هذه الكلمات من فم سانين أذهلته . والواقع أنه لم يكده يفهم ما يقول فى أول الأمر .

فتمتم قائلا : « اسمع . إما أنك تتكلف أو . . . » .

« أو ماذا ؟ » وابتسم .

فلوى نوفيكوف وجهه وهز كتفيه وصمت . وكان الذى جرى فى ذهنه غير التكلف هو أن يعد سانين رجلا مستهتراً خبيثا غير أنه لم يستطع أن يصارحه بهذا الخاطر إذ كان منذ أيام الدراسة فى الكلية يخلص له الحب ويصدقه إياه ومحال أن يكون نوفيكوف قد اختار لصداقته امرء سوء . وكان وقع هذا الكلام كريها مذهلا وأوجعته الإشارة إلى ليدا ولكنها كانت معبودة فلا يسهه أن يحس الغضب لأن سانين ساق ذكرها وسره هذا ولكنه ألمه كأن يداً متقدمة أمسكت بقلبه وضغطت .

وصمت سانين قليلا وهو مبتسم منشرح ثم قال :

« أتمم كلامك . فلست أتعجلك ! » .

فظل نوفيكوف يجهى ويروح كما كان مجروح النفس لاشك فى ذلك . ودخل فى هذه اللحظة الكاب يعدو وحك جسمه بركبتي سانين كأنما يريد أن يرى الناس مبلغ سروره هو الآخر فلاطفه سانين وهوىقول : « بالك مز كلب طيب ! » .

وحاول نوفيكوف أن يجتنب اتصال الحديث وأشفق أن يعود إليه سانين وإن كان أحب موضوع إليه وأنده وأنداه . وكل ما لا شأن له « بليدا » عبث عنده لا يطاق .

ثم راح يسأل سائين عفوا « وأين - ليذا بتروفنا ؟ » وإن كان مع ذلك يكره أن يلقي السؤال البارز في ذهنه .

- « ليذا ؟ ولأين يمكن أن تكون ؟ تنزره مع الضباط حيث كل الفتيات في هذه الساعة من النهار » .

فسودت الغيرة وجه نوفيكونوف وهو يقول : « كيف تنفق فتاة مثلها براعة وتهاديا وقتها مع هؤلاء الحمقى الفارغى الرؤوس ؟ » .

فقال سائين باسمها : « يا أخى . إن ليذا فتاة جميلة ومفورة الصحة مثلك بل هى فوق ذلك . إذ كانت قد أوتيت ما ينقصك - أعنى الرغبة الحادة فى كل شىء وهى تريد أن تعلم كل ما يعلم وأن تجرب كل أمر - هذه هى آتية وما عليك إلا أن تنظر إليها لتفهم هذا . أليست بالله جميلة ؟ » .

وكانت ليذا أقصر من أخيها وأجمل . وعليها من العذوبة ولين القوة فتنة تميزها وفى عينيها السوداوين نظرة شائخة ولصوتها الذى تباهى به رنة موسيقية ملاءى . فأقبلت على مهل تخطر برشاقة وإحدى يديها ممسكة بشوئها السابغ وأقبل من بعدها ضابطان شابان .

- « من الجميل ؟ أهو أنا ؟ » .

وأساعت فى الحاديثة سحر صوتها وجمالها وصباها .

ومدت إلى نوفيكونوف يدها . وعينها إلى أخيها وكانت أبدأ فى حيرة من أمره لا تدري أجاد هو أم هازل .

وقبض نوفيكونوف على يدها واضطرم وجهه ولكن ليذا لم تلمح انفعاله وكانت قد ألقت منه نظرة الاحترام والحياء التى لم تصايفها .

وقال أجمل الصابطين وهو ناصب فامتد كالجواد المتفحل :

- « عم مساء فلاديمير بتروفتش ( سائين ) » .

وكان سانين يعلم أنه سارودين وأنه كابتين في فرقة الفوارس وأنه ألح  
عشاق ليدا .

وكان صاحبه « الملازم » تاناروف يعد سارودين مثال الجندي ويحكيه  
في كل شيء ويضرب على قلبه في كل أمر وكان صموتاً ليس له رشاقة  
سارودين ولا قسامته .

فقال سانين مجيئاً اخته في رزائة : « نعم أنت ! » .  
— « إني لجميلة لا شك ! ولقد كان ينبغي لك أن تقول إن جمالي لا  
سبيل إلى وصفه » .

وضحكت جذلة وهوت إلى كرسي وهي ترشق أخاها سانين بعينها .  
ورفعت ذراعها وبدت بذلك معالم صدرها الجميل وأخذت تخلع قبعها فسقط  
دبوس طويل على الحصى فهطل شعرها ونقاها . فصاحت بالملازم الصموت  
بصوت أجس « أندريه بافلوفتش ! أغنى » .

وتم سانين كمن يفكر بصوت عال وعينه مصوبة إلى اخته « نعم أنها  
جميأة »

فالت إليه ليدا بطرفها في حياء وقالت : « إننا كنا حسان » .

فضحك سارودين عن تناياه الناصعة البراقة وقال : « ما هذا ؟ حسان ! !  
ها ها ! لسنا نعدو أن نكون كالإطار يظهر وضاعة جمالك الباهر » .

فقال سانين دهشاً : « أقول يالها من فصاحة ! » .

وكانت في صوته نبرة خفيفة من التهمك .

فنطق تاناروف الصموت وقال : « إن ليدا بروفنا تحيل العبي فصيحاً » .

وكان يساعدها على نزع قبعها فهطل شعرها فادعت الغيظ وهي ماضية  
في ضحكها .

وقال سانين « ماذا ؟ وأنت أيضاً فصيح ؟ » .

فهمس نوفيكوف في خبث ونفسه مرتاحة « دعهم يتمصحون ! » .

وقطبت ليدا جبينها لأخيها وكأتما كانت عيناها السوداء وان تقولان له بأصرح عبارة « لا تحسب أنى عاجزة عن استبطان هؤلاء النفر . إماما أبغى أن امتع نفسى وما أنا بالورهاء الحمقاء وأنى لأدرى ما أنا فيه » .  
فابتسم لها سائين .

وتم أخيراً نزع القبعة . ووضعها تاناروف فى تؤدة ووقار على المنضدة . ولكن ليدا صاحت به مداعبة مظهرة الحنق : « أندريه بافاو فنتش ! انظر ! انظر ماذا صنعت بي ! لقد أفسدت شعري فاختلط وسأضطر أن أدخل البيت لأصلحه » .

فقال تاناروف مضطرباً متلعماً : « إني آسف جداً ! » .

وهمت ليدا وجمعت ذلذل ثوبها وعدت ضاحكة وعيون الرجال تتعقبها وأحسوا لما خفيت عن أنظارهم كأنما خلصت أنفاسهم واستراخوا من ذلك الشعور العصبي بالتمقيد الذى يعانىه الرجال عادة فى حضرة فتاة جميلة .

وأشعل سارودين سيجارة وجعل يدخنها بالتداذ واضح ، وكان المرء يحس إذا سمعه يتكلم كأنما عادته أن يحدو الحديث وإن ما يجرى بذهنه يخالف ما يجرى به لسانه وقال :

« لقد كنت أحاول أن أقنع ليدا بتروفنا أن تدرس الغناء درساً جدياً فإن مستقبلها مضمون ما دام لها هذا الصوت » .

فقال نوفيكوف مشمئزاً : « تالله ما أبدعها من مهنة ! » وأشاح بوجهه . فسأل سارودين مستغرباً ونحى السيجارة عن فمه : « أى ضير فى ذلك ؟ » . فرد عليه نوفيكوف وقد حمى فجأة : « ما هى المثلة ؟ إنها ليست إلا مومسا ! » .

ومزقت قابه الغيرة وقطع نياطه ما تصوره من منظر هذه الفتاة التي يشتهي جثمانها إذ تبدوا أمام سواه من الرجال في ثوب فتان يكشف عن مفاتيحها ويهيج عواطفهم .

فقال سارودين رافعاً حاجبيه : « لا شك أنك تذهب إلى أبعد مما يجب » . وكانت نظرة نوفيكوف كلها حقداً وبغضاً وكان يرى في سارودين لصاً ينوي أن يخطف عشيقته وأمضه - فضلاً عن هذا - حسن وجهه فقال : « كلا ! ليس في قولي تجاوز للحد . وتصور بروز المرأة على الملعب كاسية إلا أنها عارية - حاسرة في بعض الأدوار الشيقة عن مفاتيحها الشخصية لاؤلك النظارة الذين لا يلبثون أن يزايروا المكان بعد ساعة أو نحوها كما ينفضون عن موسم بعد أن ينقدوها أجرها المعتاد ! الحق إنها مهنة فاتنة ! » . فقال سانين : « يا أخي ، إن كل امرأة تحب أن يعجب الناس بمحاسنها الخاصة » .

فهز نوفيكوف كتفيه متململاً وقال : « ما أحسن هذا القول وأسخمه ! » .

فقال سانين : « ليكن خشناً أو غير خشن . إنه الحق على كل حال . وأحر « بليدا » أن يكون لظهورها على الملعب أعمق وقع . وإلى لأشتاق أن أراها تم ... » .

وأحسوا كلهم بالقلق وإن كان هذا الكلام قد أثار في نفوسهم رغبة غريزية في الاستطلاع .

ولما كان سارودين يعد نفسه أذكى من زملائه وأحزم فقد بدا له أن يبادر جو الارتباك الغامض الذي اكتشفهم فقال :

« رمادا تطنون الفتاة حقيقة أن تصنع ؟ أتزوج ؟ أم تأخذ في نهج دراسي أم تدع مواهبها تأسن ؟ إن هذا يكون جريمة ضد انطبيعته التي جادت

فقال سائين ولم يخف تهكمه : « آه ! إن فكرة هذه الجريمة لم تخطر لي قبل هذه الساعة » .

وضحك نوفيكونف ضحكة خبيثة . ورد على سارودين متوخياً الأدب :  
« لماذا تعدها جريمة ؟ لأن تكون المرأة أما صالحة أو طيبة خير ألف مرة من أن تكون ممثلة » .

فقال تاناروف محنقاً : « كلا » .

فسألهم سائين : « ألا ترون هذا النوع من الحديث مملاً؟ » .

واكن سؤاله ضاع في نوبة سعال وكان الواقع أنهم جميعاً يعدون هذه المناقشة مدعاة للضحك وهي بعد لا ضرورة إليها على أنهم مع هذا ساءهم قول سائين فلزموا صمتاً بغيضاً .

ثم ظهرت ليذا وأمها ماريبا إيفانوفنا على الشرفة . وكانت ليذا قد سمعت آخر ما نطق به أخوها وإن لم تدر ما يشير إليه ، فقالت وهي تضحك :  
« أرى الملل اعتوركم بسرعة فلنمض إلى النهر فإنه الساعة رائق » .

ومشت أمام الرجال وقوامها الأنيق يخطر قليلاً وفي عينها نظرة مبهمة يخيل إليك أنها قائلة بها شيئاً أو واعدة بتىء .

وقالت أمها : « تمشوا إلى وقت العشاء » .

فصاح سارودين : « يسرنى ذلك » وعرض على ليذا ذراعه .

وقال نوفيكونف متهمكماً : « أرجو أن تسمحوا لي بمرافقتكم » .

ولكن وجهه كانت عليه سمات من يهم بالبكاء .

فقالت ليذا : « ومن ذا يمنعك ؟ » .

وأرسلت إليه نظرة باسمة عن كتفها .

وقال سائين : « نعم اذهب أنت الآخر . وقد كنت أحب أن أرافقتكم

لولا أنها مقتنعة بأنى أخوها » .



فاضطربت ليذا وأسرعت ناظرة إليه وأرسلت ضحكه قصيرة عصبية .  
وبدا على ماريا إيفانوفنا الامتعاض وقالت :  
« لماذا تتكلم على هذا النحو السخيف ؟ أظنك تحسبه أسلوباً مبتكراً ؟ » .  
فقال سانين : « الحقيقة أنى لم أفكر فى هذا على الإطلاق » .

ونظرت إليه أمه وهى مذهولة . وكانت لا تفهم ابنها ولا تعرف  
أذاهب هو إلى الجلد أم يقصد إلى الدعابة . ولا تدرى فيم يفكر وماذا يحس  
على حين ترى الناس المفهومين غيره يفكرون ويحسون مثلاً . وعندها أن  
الرجل يجب أن يفكر ويحس ويعمل كما يفكر ويحس ويعمل غيره من أئداده  
المماثلين له من حيث المنزلة الاجتماعية والعقلية . ومن رأيا كذلك أن الناس  
ليسوا رجالاً متميزى الشخصيات والخصائص وإنما ينبغى أن يصهبوا جميعاً  
فى قالب واحد عام وشجعها البيئة على اعتناق هذه العقيدة رقررتها فى نفسها  
فذهبت إلى أن البربية من شأنها أن تجعل الناس فريقين لا ثالث لهما : أصحاب  
العقول والجهلاء ، وللفريق الثانى أن يحتفظ بشخصيته إذا شاء ولكن هذا مجلبة  
لامتهان الآخرين ، وأول الفريقين ينقسم إلى طوائف ولكن آراءهم لا تطابق  
صفاتهم الشخصية بل مراكزهم الاجتماعية . ومن هنا كان كل طالب ثوريا ،  
وكل موظف مدنياً ، وكل فى ملحد ، وكل ضابط طالب رتبة ، فإذا حدث مصادفة  
أن طالباً مال إلى مبادئ المحافظين ، أو أن ضابطاً صار فوضوياً ، فلا بد أن يعد  
هذا أمراً شاذاً باعثاً على أشد العجب بل مستكراً . وإذا ذهبنا نعتبر سانين وأصابعه  
وتربيته رأينا أنه كان ينبغى أن يكون على خلاف ما هو ولذلك أحست ماريا  
إيفانوفنا — مثل ليذا ونوفيكوف وسائر من اتصل به — أنه خيب الأمل فيه .  
ولم يفت غريزة الأم ما يقع فى نفوس الناس من ابنها فتألمت .

ولم يكن سانين يجهل ذلك وكان يود لو طمأهها ، غير أنه لم يدر كيف يعالج  
ذلك مبتدئاً . وخطر له أولاً أن يرأى ويدعى المكذوب من العواطف ليهدها  
روعها ولكنه لم يفعل شيئاً سوى أن ضحك ،

ثم قام وخرج وظل برهة في سريره مستلقياً يفكر وخیل إليه كأنما يريد الناس أن يحلموا الدنيا ثكنة عسكرية خاضعة لقائمة من القواعد والأصول المجهولة للقضاء على الشخصية أو يجمعوها طوع قوه ما غامضة عنيفة . وأخب به التفكير وأوضع حتى تناول المسيحية ومصيرها ولكنه مل هذا الشأن حتى أخذته النوم ولم يستيقظ إلا بعد أن حال المساء ليلاً حالها .

ولاحظته أمه وهو يخرج وزفرت هي أيضاً واستغرقها الفكر وحدثت نفسها أن سارودين يتحجب إلى ليذا خاطباً ودها وتمت أن يكون الأمر جداً وقالت لنفسها : « قد بلغت ليذا العشرين ، وسارودين رجل حسن على ما يظهر ، وقد سمعت أنه سيعطى قيادة في هذا العام . نجم إنه غارق في الدين - ولكن ... لماذا رأيت ذلك الحلم السنيح ؟ وإني لأدري أنه خاطر سخييف غير أنى لا أستطيع أن أخلى منه رأسى ! » .

وكان الحلم الذى رأته قد بدا لها في نفس اليوم الذى دخل فيه سارودين البيت لأول مرة فخیل إليها أنها رأته ليذا في ثياب بيضاء تسير في مروج خضراء متألقة الأزاهير .

وجلست ماريا إيفانوفنا على كرسي وثير وأسندت رأسها إلى كفها كما تفعل العجائز وأثارت نظرها إلى السماء المظلمة وساورتها الخواطر السوداء وعذبتها ولم تدع لها راحة وأحست شيئاً مبهماً أثار مخاوفها وأزعجها .

( ٣ )

كان الظلام قد خيم لما انقلب القوم عائدين من الحديقة . وكانت أصواتهم الصافية الحذأة تدوى في الغسق اللين الذى اكتشف الحديقة فجرت ليذا إلى أمها ضاحكة متألقة الوجه وحملت معها طيب النهر

مشوياً بأرج جمالها وريا شبابها. الغض تصوعه رفقة المعجبين ومصاحبة  
المفتونين .

وصاحت بأمرها مداعبة لها وجرتها معها : « العشاء يا أمواه ! هات لنا  
العشاء ! وفي خلال ذلك يغنيننا فيكتور سرجيفاش » .

فخرجت ماريا إيفانوفنا لتبهي العشاء ونفسها تحدثها أن القدر لا يسعه  
على التحقيق أن يدخر غير السعادة لفتاة جميلة ساحرة مثل ابنتها ليدا .  
ومضى سارودين وتاناروف إلى البيانو في حجرة الاستقبال .

واطرحت ليدا في فتور وكسل على كرسي هزاز على الشرفة .  
وجعل نوفيكيوف يروح ويحي صامتاً على أرض الشرفة ويخالس النظر إلى  
وجه ليدا وصدورها الناضج المكتنز وقدميها الصغيرتين في حدائهما الأصفر  
وساقها الرشيقتين وهي في غمرة من سحر الحب الأول وسطوته  
لا تكترث إليه ولا تلتفت إلى لحظاته فأغمضت جفنيها وابتسمت لمسا  
يطوف برأسها من الخواطر .

وكان الصراع القديم دائراً في صدر نوفيكيوف : يجب ليدا  
ولا يدري ما شعورها نحوه ويخطر له أحياناً أنها تحبه ويهجنس بقلبه  
أحياناً أخرى أنها لا تعبه به وإذ خال الخواب « نعم تحبك » قال  
لنفسه : ما أحلى وأسهل أن يؤاتيه هذا الجسم النقي الين . وإذا كان  
« لا » فياله من خاطر بغيض بشع ! وراح تغضبه شهوته وذهب يعد  
نفسه ندلاً غير أهل لليدا .

ولما أنضته هواجسه آلى أن يستهدى الحظ . « إذا دست بقدمي  
اليميني على آخر مربع خطبتها لنفسي وإذا دست بقدمي اليسرى ف... »  
وجبن عن التفكير فيما يحدث في هذه الحالة .

وداس المربع الأخير بقدمه اليسرى ! فتصعب العرق البارد ولكنه  
لم يلبث أن طمأن نفسه وهون الخطب عليها .

« يالها من سخافة ! لقد أشبهت العجائز ! والآن : واحد . اثنان  
ثلاثة . - في الثالثة أذهب إليها وأكلمها . نعم ولكن ماذا أقول ؟؟  
هذا لا يهم ! فلأمض ! واحد . اثنان . ثلاثة ! كلا ! بل ينبغي  
أن يكون العد ثلاث مرات ! واحد . اثنان . ثلاثة ! واحد .  
اثنان - » .

والتهب ذهنه وعصب ريقه وبلغ من عنف دقات قلبه أن ركبتيه  
تخادلنا وارتعشتا .

وصاحت به ليذا وفتحت عينها : « لا تخبط الأرض كذلك !  
إني لا أسمع شيئاً ! » .

في هذه اللحظة فقط أدرك نوفيكوف أن سارودين يغنى .  
وكان الضابط الفتى قد اختار أغنية قديمة مطلعها :

« أحبيتك مرة ! »

« وهل يسعك أن تنسى ؟ »

« وما زال الحب يلعب قلبي »

ولم يكن ضناؤه قبيحاً ولكنه كان كأحداث الفن يعالج الأداء  
بالمبالغة في تخريج الأنغام .

ولم يلف نوفيكوف ما يلذه في هذا العمل فسألها بمرارة غير مألوفة  
« ما هنا ؟ أغنية من تأليفه ؟ » .

فقلت بحدة : « كلا ! لا تقلقنا من فضلك . اجلس . وإذا  
كنت لا تحب الموسيقى فاذهب وانظر إلى القمر ! » .

وكان القمر في هذه اللحظة يصعد من وراء قمم الأشجار السوداء -  
كبيراً مستديراً متوهجاً ولمست أشعته اللينة الدرج الحجرى وامتدت  
إلى توب ليذا واستراحت إلى وجهها الباسم المفكر وكانت الظلال في  
الحديقة قد تكاثفت وصارت لها جهامة ظلال الغاب وعمقها .

فتمتم نوفيكيوف : « أنت عندي خير من القمر » ثم لنفسه :  
« إنها لكامة سخيقة ! » .

فاستضحكت ليذا وقالت : « ياله من إطراء خشن ! » .

فقال باكتئاب : « لست أحسن الإطراء » .

— « حسن . إذأ فاجلس واستمع » .

وهزت كتفها متضايقة .

ومضى سارودين يغنى :

« ولكنك لا تعبين بي فلماذا أحزنك بهموى » .

وكانت أنغام البيانو تدوى فضية الرنة في جوانب الحديقة الخضراء  
الرطبة . وأخذ ضوء القمر يزداد تألُقاً والظلال سوادا .

ومضى سائين إلى شجرة الزيزفون وجلس في ظلها وهم أن يشعل  
سيجارة . وانكبه وقف فجأة وحمد كأنما سحره سجو الليل الذي زاد  
في سكونه البيانو وذلك الصوت الطرى الفتى ولم يزعجه .

وقال نوفيكيوف مسرعاً كأنما ينهني أن لا تفلت هذه اللحظة :  
« ليذا بتروفنا ! » .

فقالت وهي تلحظ الحديقة والتمر والأغصان الخالكة بادية تحت  
قرصه الفضى : « ماذا ؟ » .

— « لقد طال انتظاري — أعنى أريد أن أقول لك شيئاً » .

فأمال سائين رأسه مصغياً .

وسألت ليذا وهي غائبة الذهن : « أى شيء ؟ » .

وكان سارودين قد فرغ من أغنيته ثم عاد يغنى بعد فترة وكان  
يعتقد أن له صوتاً باهر الجمال وكان يحب أن يسمعه .

وأحس نوفيكوف أن وجهه يحمر ثم يمتنع كأنما يوشك أن يغشى عليه  
ثم قال :

— « إني — اسمعي يا ليذا بروفنا — هل تقبلين أن تصبحي لي زوجة ؟ » .  
وكان وهو يتمتم هذه الكلمات يحس أنه كان ينبغي أن يقول شيئاً يخالفها  
وأن عواطفه كان يجب أن تكون غير ذلك أيضاً وما كاد ينطق بها حتى أيقن  
أن الجواب سيكون « لا » ووقع في نفسه أن أمراً بالغا غاية السخافة سيحدث .  
فسألته ليذا : « زوجة من ؟ » .

ثم ما عتمت أن صيغ وجهها الخجل فنهضت نهوض من يهم بالكلام  
ولكنها لم تقل شيئاً .  
وانصرفت عنه بوجهها وهي مرتبكة فاستقبلها القمر بنوره وقال  
نوفيكوف : « إني احبك ! » .

ولم يعد القمر يضيء في عينه وأخذ بمخنقه النسيم وشعر كأن الأرض  
ستنشق تحت قدميه ثم قال :

— « لست أحسن إلقاء الخطب — ولكن — هذا لا يهم — إني احبك جداً » .  
ثم حدث نفسه « أقول جداً ؟ لكأنني أحدثها عن القشة المتلحجة ! » .  
وأخذت ليذا تعبت وهي مضطربة بورقة صغيرة هوت عن الشجرة إلى  
يديها وحيرها ما سمعت إذ كان غير متوقع ولا طائل تحتها . هذا إلى أنه أشعرها  
إحساساً جديداً من الكلفة البغيضة بينها وبين نوفيكوف الذي كانت تنزله منذ  
صباها منزلة القريب وتحبه على هذا الاعتبار فقالت :

« لا أدري ماذا أفول ؟ إني ما فكرت في هذا قط ! » .

فأحس نوفيكوف ألماً وفتوراً واعتوران قلبه كأنما سيكف عن الخلفان  
ونهض مصفراً وتناول فبعته .

وقال وهو لا يكاد يسمع صوته وتلوت شفثاه المرتجفتان عن ابتسامة  
لا معني لها : « عمي مساءً » .

— «أذهب أنت؟ عم مساعاً» .

وضحكك ضحكة عصبية ومدت يدها فصافحها نوفيكوف مسرعاً وسار دون أن يغطي رأسه إلى الخديقة ولما بلغ الظل وقف بجامداً وأمسك رأسه بكائتا يديه وحاطب نفسه :

« رب ! لقد قضيت لي مثل هذا الحظ ! أقتل نفسي ؟ كلا ! هذه سخافة ! أقتل نفسي ؟ » .

و دار بذهنه كل خاطر ضال غامض بمثل خطف البرق . وأحس أنه أشقى الناس وأذلهم وأسخفهم .

وأراد سائين أن يناديه ولكنه رد نفسه واقتصر على الابتسام مرتئياً أن من الخرف أن يمزق نوفيكوف شعره وأن يبكي لأن امرأة يشتهي جسمها لم تشأ أن تبدله له وسره في الوقت نفسه أن أخته الجميلة لا تحفل بنوفيكوف . وظلت ليذا لحظة وهي جامدة في مكانها . وكان خيالها الأبيض في ضوء القمر قيد لخط سائين .

ثم خرج سارودين من الحجرة المضاعة إلى الشرفة .

وكان سائين يسمع صوت مهمازه بوضوح .

وظل تالاروف في الغرفة يوقع الحنا شجياً عتيقاً جعلت أنغامه المملة تسيح في الجو .

ودنا سارودين من ليذا ولف ذراعه بلطف وحذق حول خصرها .

ورآهما سائين يلتصقان حتى صارا شخصاً واحداً يترنح في الضوء الغائم .

وهمس سارودين في أذنها : « ما بالك تفكرين ؟ » .

والتمعت عيناه لما لامست شفتاه أذنها اللطيفة الجميلة .

وشاع في نفس ليذا الطرب والخوف معاً ودبت في عودها هزة كانت

تحسنها كلما عانقها سارودين . وكانت لا يخفى عنها أنه دونها ذكاء وتهذيباً وأنه

لا قبل له بالاستبداد بها والغلبة عليها غير أنها في الوقت نفسه سرها وأفزعها أن

تدع هذا الشاب الوسيم القوي يلامسها . وكأنها تنظر إلى هاوية سحيفة ملتأثة

الأمر وحدثتها نفسها أنها تستطيع أن تلتقي بنفسها فيما إذا شاءت فقالت بصوت لا يكاد يسمع : « سيرونا » .

ولم تشجعه على احتضانها ولكنها على هذا لم تنفر منه فهاجبه منها هذا الإمكان السليبي .

فقال : - « كلمة واحدة - لا أكثر » - وشدها إلى صدره وعروفه تنبض بها الرغبة : « هل توافيني ؟ » .

فارتجفت ليدها ولم تكن هذه أول مرة سألتها ذلك وكانت كل مرة تحس رجفات غريبة تسلبها إرادتها .

فسألته بصوت خافت وهي تحلم إذ تنظر إلى القمر « لماذا ؟ » .

- « لماذا ؟ لتكوني قريبة مني ولأراك وأحدثك . آه إنه لعذاب ؟ نعم يا ليديا إنك تعذبيني . والآن هل توافيني ؟ » .

قال ذلك وجذبها إليه بقوة الرغبة الجارحة به وكأنما لامسها منه حديد ملتهب سرت في أعضائها وقدتهه وكأنما لفها ضباب كثيف حالم ضاغط . فتوتر جسمها اللين المرن ثم مالت إليه والسرور والخوف يرعشان منه . وعاد كل ما حولها وقد تغيرت وجوهه فجأة تغييراً عجبياً . ولم يعد القمر قرابلاً دنا فحاذى مظلة الشرفة وصار كأنما هو معلق فوق بساط الروضة . وحالت الحديقة عما عهدته وتبدلت أخرى غامضة مستهمة زحفت إليها والتفت بها . وهاج ذهنها وتراجعت وتخلصت بفتور عجيب من عناق سارودين وتمتمت بصعوبة وقد جفت شفاتها وبيضتها : « نعم » .

وانقلبت إلى البيت بخطى خيرة ثابتة وأحست أن شيئاً مرعياً إلا أنه مغر يجرها إلى حرف الهاوية . وقالت لنفسها وهي تفكر « هذا كلام فارغ ؟ وليس الأمر كذلك . إنما أمزح . ويلد لي هذا ويسليني أيضاً . لا أكثر ولا أقل » .

وهكذا حدثت نفسها لتقعها وهي تواجه المرأة المطلعة في غرفتها . ولم تر في صقالها إلا ظلها الأسود قبالة الباب الزجاجي لعرفة الطعام المضيئة . ورفعت ذراعيها في بطاء فوق رأسها وتمطت في كسل وفتور وجعلت وهي تفعل ذلك تتأمل حركات عودها اللين وتحس لذتها .



أما سارو دين فإنه لما صار وحده اعتدل ونفض عن أعضائه فتورها وكانت عيناه مفتوحتين كغمضتين وابتسم فالتمعت ثناياه تحت شاربته اللطيف .

وكان الحظ قد عوده أن يؤاتيه وتوقع في هذه المرة أن ينال من المتع واللذات ماهو أعظم في المستقبل القريب .

وتمثلت لعينه ليذا وجمالها المثير ساعة تبذل له منه وعصفت به هذه الصورة فأحس لها ألماً جثمانياً .

وكانت ليذا في مبدأ الأمر وإذا هو لا يزال يتودد إليها وحتى بعد ذلك لما أذنت له أن يعانقها ويقبلها — لانتفك تشعره شيئاً من الخوف . وكان يظالعه من عينها السوداء وين وهو يمسح بيده شعرها شيء عجيب لا يفهمه كأنما تحتقره في سريرتها .

وكانت أبدأ تبدو له أبرع من غيرها من النساء اللواتي لم يشعر في حضرتهن إلا بأنه أسمى منهن وأرقى . وهي من الاختلاف عنهن ومن الشموخ بحيث كان يتوقع إذا قبلها أن تلصقه بجمع يدها على أذنه .

فكادت فكرة احتيازها تبيت مزعجة ومرت به أحياناً اعتقد فيها أنها إنما تعبت به فكان موقفه في نظره غاية السحافة والحمق .

أما اليوم بعد هذا الوعد الذي قطعته له مترددة متاعشة كغيرها من النساء فقد صار على يقين من قوته ومن وشك الظفر ولم يبق عنده من ريب في أن الأمور ستجرى على ما يحب . واختلط عنده الإحساس الناشئ عن انتظار مواعده اللذات بشيء من الكيد ، هذه الفتاة الطاهرة المهذبة المزهوة ينبغي أن تبذل له نفسها كما فعل سواها وسيستمتع بها وفق هواه كما استمتع بغيرها .

ومتلت لعينه مناظر مما صورت الشهوة والانحطاط : وصارت ليذا في حياله — عارية متهدلة أنشعر حول عينين ما من سبيل إلى سبر غورها —

الصورة البارزة فيما حرك أنسبهاه قصص الشهوة والقسوة المضطرب . ثم بدت له فجأة على أوضح صورة منطرحه على الأرض وسلك مسمعه هزم السوط وأخذت عينه خطا داميا على جسمها العريان اللين الخاضع فنبض رأسه لهذه الصورة وتطرح مترجعا ورفقت لعينيه شرارات نار وعادت وطأة الفكرة أثقل مما يطاق وارتعشت يده وهو يشعل سيجارة وتلوت أعضاؤه القوية تلوى التشنج ثم دخل الغرفة .

وكان سانين لم يسمع شيئا إلا أنه رأى وفهم كل شيء فتبعه وفي نفسه مثل الغيرة وقال لنفسه « أمثال هذا الوحش يمالئهم الحظ دائما . ماذا ترى معنى هذا كله ؟؟ إذا بهمان به هو وليدا ؟ » .

ولما جلسوا إلى العشاء كانت ماريبا إيفانوفنا غير مرتاحة على ما يظهر ولم يقل تاناروف شيئا - كعادته - ولكنه كان يتمنى أن يكون سارودين وأن تكون له عشيقة مثل ليديا نجبه . إذا لأحبها ولكن على طريقة أخرى فإن سارودين - في رأيه - لا يحسن تقدير حسن حظه . وكانت ليديا ممتعة صامتة لا تنظر إلى أحد .

أما سارودين فكان جنلا طروبا متحفزا كالأوحش استروح فريسته .

وجلس سانين يتعذب على عادته وأكل وشرب كثيرا من النبيذ وكأنا كان يريد أن ينام ولكن العشاء لم يكمل ينهى حتى أعلن عزمه على مرافقة سارودين إلى مسكنه .

وكان الليل قد أوشاك أن ينتصف والقمر يصب ضوءه على رأسيهما ، وهما سائران في صمت إلى تكنة الضابط .

وكان سانين لا يفتأ من حين إلى حين يختلس النظر إلى سارودين ويفكر فيما ينبغي له أيلطمه على وجهه أم لا يالطمه . ثم قال فجأة لما قاربا البيت : « نعم ؟ إن في هذه الدنيا كل أنواع الأندال ؟ » .

فسأله سارودين ورفع حاجبيه : « ماذا تعنى بهذا ؟ » .  
 - « إن الامر كذلك - على العموم - والأندانل أعظم الناس فتنه وأخذنا » .  
 فقال سارودين باسمها « أو تعنى ماتقول ؟ » .

- « نعم هم كذلك . وليس أبعث على كرب النفس وضيق الصدر ممن  
 يسمونهم الأعفة والفضلاء . ماهو الرجل الفاضل ؟ إن كل امرىء يعرف  
 برنامج العفة والفضيلة . وعلى هذا فليس فيه من جديد : ومثل هذه الفضلات  
 العتيقة تسلب المرء كل شخصيته فيقضى حياته فى حدود الفضيلة الضيقة المملة .  
 لا تسرق ، لا تكذب ، ولا تغش ، كلا ولا تزن . والمضحك فى هذا الأمر أن كل من  
 يولدون سواء ! فككل امرىء يسرق ويكذب ويغش ويزنى على قدر ما يستطيع » .  
 فقال سارودين محتجاً نازعاً إلى التعالى « ليس كل أحد » .

- « نعم . نعم . كل إنسان ! وما عليك إلا أن تفحص حياة المرء لتعرف  
 ذنوبه . نخذ الغدر مثلاً . فبعد أن تؤدى ما لقيصر لقيصر وتؤوى فى سكون إلى  
 فراشنا أو نجلس إلى المائدة نرتكب كل أصناف الغدر » .

فصاح سارودين وبه بعض الغضب : « ماهذا الذى تقول ؟ » .

- « إننا فعل هذا على التحقيق . تؤدى الضرائب ونقضى مدة الخدمة فى  
 الجيش . نعم ولكن معنى هذا أننا تؤذى ملايين من الخلق بالحرب وبالظلم  
 اللذين نمتهمما . ونذهب فى سكون إلى الفراش على حين ينبغى لنا أن نبادر إلى  
 إنقاذ من يقضون نحبهم فى هذه اللحظة لأجائنا وفى سبيل آرائنا . ونصيب من  
 الطعام أكثر مما بنا حاجة إليه ونذع غيرنا يموتون جوعاً وكان واجبنا - ونحن  
 رجال فضل وخير - أن نقف حياتنا كلها على خيرهم . وهكذا تجرى :  
 الأمور والمسألة واضحة . أما النذل - النذل الحقيقى الصميم - فخلق آخر .  
 فهو أولاً مخلوق مخلص طبيعى الأحوال » .

- « طبيعى ؟ » .

— « بلا شك ! إنه لا يفعل سوى ما يفعله الرجل بطبيعته . يرى شيئاً ليس له ، شيئاً تميل إليه نفسه ، فيأخذه . ويرى امرأة حسناء لا تريد أن تبذل له نفسها فيعالجها بالقوة أو بالحيلة وهذا طبيعي جداً . إذ كانت الرغبة والغريزة التي تتطلب إرضاء النفس من المميزات القليلة بين الإنسان والحيوان . وكما كان الحيوان أكثر حيوانية كان أقل فهماً للذة وأضال إدراكها وأعجز عن نيلها إذ كان لا يعنيه إلا سد حاجاته . ونحن متفقدون على أن الإنسان لم يخلق ليتعذب وإن العذاب ليس قبلة المساعي الإنسانية » .  
فقال سارودين : « بلا شك » .

— « حسن جداً إن اللذة هي غاية الحياة الإنسانية . والفردوس كلمة مرادفة للتمتع المطلق . وكلنا نحلم بفردوس أرضي وليست إسطورة الفردوس بسخافة وإنما هي رمز أو حلم » .

ومضى سانين في كلامه فقال بعد فترة : « نعم إن الطبيعة ما أرادت قط أن يكون الإنسان زاهداً . وأعظم الناس إخلاصاً وصدق سريرة هم أولئك الذين لا يكتفون رغباتهم أي أولئك الذين بعدهم اجتمع أنذالا — أناساً مثل — مثلك مثلاً » .

ففرع سارودين متراجعاً مذهولاً ومضى سانين في حديثه متطاهراً بأنه لم يلاحظ ما بدر من صاحبه وقال :

« نعم مثلك . أنت خير رجل في هذا العالم . وأعلى الأفل أنت تحسب أنك كذلك . قل لي ، هل . صادفت قط من هو خير منك ؟ » .

فقال سارودين متردداً : « نعم كثيرين » ولم يكن في ذهنه أضال فكرة عما يعنى سانين ولا كان يعلم هل ينبغي له أن يتظاهر بالسرور أم بالسخط .  
فقال سانين : « حسن . سسهم أسماءهم . تفضل » .

فهز سارودين كتفيه كمن هو في شك . فقال سانين مهللاً : « هاذا أنت قد عمجرت ! إنك أنت حير الأختيار وكذلك أنا . ومع ذلك فإننا نحن الإثنين لانرى ما يمنعنا أن نسرق أو أن ننسج الأكاذيب أو أن ننزى — وعلى الخصوص أن ننزى » .

فتمم سارودين وهو يهز كتفيه للمرة الثانية : « ياله من رأى مبتكر »  
 فسأله سائين وعلى نبرة صوته ظل خفيف من عدم الارتياح : « أتظن ذلك؟  
 إني لا أظنه ! نعم . الأندال كما قلت هم أشد من يتصورهم العقل إخلاصاً  
 لأنهم لا يرون حدود الدناءة الإنسانية، ويسرنى دائماً على الخصوص أن أصافح  
 ندلاً »

ولم يكذب يقولها حتى وضع يده في يد سارودين وهزها هزاً عنيئاً وعينه  
 محمقة في وجهه ثم قطب وقال بإيجاز فيه من سوء الأدب مافيه : « عم مساء »  
 وانصرف عنه .

وظل سارودين برهة وهو جامد يرقبه ولا يدري على أي محمل يحمل مثل  
 هذا الكلام من سائين ، فحار وقلق ثم فكر في ليذا وابتسم : أن سائين أخوها  
 ومقاله صحيح في الواقع . وأخذ يحس نوعاً من العلاقة الأخوية به ، وقال  
 لنفسه وقد استشعر الرضى عنها : « إنه لرجل ممتع ! » كأنما سائين بعض ما يملك .  
 ثم فتح البوابة واجتاز الفناء المقمر إلى غرفه .

أما سائين فإنه لما بلغ البيت خلع ثيابه واستلقى على فراشه وحاول أن يقرأ  
 « هكذا قال زردشتر »<sup>(١)</sup> وهو كتاب وجدته في مكتبة ليذا ولكن الصفحات  
 الأولى كانت كافية لتزهيده فيه . وهو رجل لا يحرك نفسه مثل هذا الأسلوب  
 المنتفخ فبصق ورمى بالكتاب جانباً وما عم أنه أخذه النوم .

( ٤ )

كان الكولونيل « نيقولا يجور وقتش سفاروجتش » المقيم بهذه البلدة  
 الصغيرة ينتظر وصول ابنه الطالب بمدرسة الصناعات في « موسكو » . وكان  
 ابنه هذا تحت مراقبة البوليس فطرده من موسكو لاشتباهم فيه ولظنهم  
 أن بينه وبين الثوريين تواطؤوا .

وكان « يورى سفاروجتش » قد كتب الى أبويه من قبل يبلغهما خيرا القبض  
 عليه وسجنه ستة شهور وطرده من العاصمة قهراً لأوبته .

(١) اسم كتاب لبيتشه المليسوف الالمانى المشهور .

ومع أن أباه نيقولا عد الأمر من أوله إلى آخره حماقة صبيانية إلا أنه تألم إذ كان مشغولاً بابنه فاستقبله فاتحاً له ذراعيه واجتنب أن يشير إلى هذا الموضوع الموقم وكان « يورى » قد قضى يومين كاملين مسافراً فى الدرجة الثالثة ولم تغتمض عيناه لحظة لفساد الهواء ولما آذاه من كربه الروائح وصياح الأطفال فخارت قواه ولم يكدي يحيى أباه وأخته لودميلا « ويسمونها فى العاده لياليا » حتى استلقى على فراشه ونام .

ولم يستيقظ إلا مساء والشمس دانية من الأفق . نفذت أشعتها المائلة من زجاج النافذة ورسمت على جدران الغرفة مربعات وردية . وسمع يورى فى الغرفة المحاورة صوت الملاحق والأكواب وصافحت أذنه ضحكة لياليا الجذلة وصوت رجل كذلك — لذيذ مصقول لا يعرفه .

وقام فى نفسه ساعة استيقظ أنه مازال فى مركبة القطار وسمع ضوءاه وصوت زجاج نوافذه والركاب فى الجانب الثانى ، غير أنه لم يلبث أن عرف أين هو الآن فاعتدل فى فراشه وقال وهو يتثاءب :

« نعم هذا أنا هنا »

ثم عبس وهو يزرع أصابعه فى شعره الكثيف الأسود القوى .  
ثم خطر له أنه لم يكن ينبغى أن يعود إلى بيته ولقد تركوا له أن يختار مكاناً يقيم فيه فلماذا عاد إلى أبويه ؟  
لم يستطع أن يعلل ذلك .

واعتمد ، أو شاء أن يعتقد أنه اختار المكان الذى خطر له . ولكن هذا لم يكن الواقع . فإن يورى لم يضطر قط أن يكدح ليعيش ، وكان أبوه لا يزال يمدد بالمال وقد استهول أن يعيش وحده وبلا مورد بين قوم أغراب . وأخجله هذا الإحساس واستكره أن يعترف به لنفسه .

والآن خطر له أنه أخطأ . ويمكن أن يفهم أبواه حكايته كلها أو أن يكونا رأيا ما فى قصته — هذا شئ واضح — وهناك إلى جانب هذا

— المسألة المادية والأعوام العديدة الضائعة التي كلفت أباه . ومن شأن هذا أن يجعل من المستحيل حصول التفاهم الودي المتبادل . يضاف إلى ذلك أن الحياة خليقة أن تكون نقيضة الإملال في هذه البلدة التي لم يرها منذ عامين . وكان يورى يعد أهل البلاد الريفية الصغيرة ضيق العقول ، عاجزين عن أن يدركوا أو يكثرثوا لتلك المسائل الفلسفية والسياسية التي يراها الشيء المهم الوحيد في الحياة .

نهض يورى وفتح النافذة وأطل وكان على طول جدار البيت حديقة زهر صغيرة يانعة ما بين أحمر وأصفر وأزرق وقرمزي وأبيض فكأنها الكليد سكوب (١) ومن ورائها الحديقة الكبيرة الجهمة الممتدة إلى النهر كغيرها من حدائق هذه البلدة وهو يلتهم كالزجاج الخبي بادي من خلال الأشجار .

وكان المساء ساكناً صافياً وخالج يورى اكتئاب غامض وكان قد طال مكثه وإلفه للمدن الكبيرة المشيدة بالأحجار ومع أنه يحب أن يتوهم أنه يعيش الطبيعة فإنها لم تجد عليه بشيء : لا السلوى ولا سكون النفس ولا الانسراح . ولم تثر في صدره إلا حينئذ مبهماً حالماً مدنفاً .

ودخلت (لياليا) الغرفة وقالت « آها . لقد قت أخيراً ! وجاء قيامك في حينه »

وكاد يورى — لتقل إحساسه بقلق مركزه وبشجى النهار — يقضى بحبه . يضايقه مراح أخته وصوتها الطروب فسألها على غير انتظار :

— « بأى شيء سرورك هذا ؟ »

— « انى لأضجر ! »

وفتحت عينيها وضحكت مرة أخرى كأنما أذكرها سؤال أخيها أمراً ممتعاً وقالت « وتصور سؤالك إياى ماذا يسرنى ؟ أنا لا أعرف السامة . كلا : ليس عندى متسع من الوقت لهذا »

(١) مطار في أحد طرفيه قطع ملوية يتألف منها شكل حديد كلما هزرتها .

ثم قالت بصوت وطيء وقد زهاها ما قالت : « إننا نعيش في أيام فيها من المتعة ما يجعل السامة ذنباً . وعندى العمال أعلمهم ثم المكتبة تستنفد شطرا عظيماً من وقتي، فقد أنشأنا في غيابك مكتبة عامة وهي سائرة على منوال حسن» ولو أن هذا قيل له في أى وقت آخر لبعثه على الاهتمام ولكنه لم يكثر الآن لسبب ما .

وظلت لياليا جادة تنتظر انتظار الطفل ثناء أخيها .

فتمكن أخيراً من أن يقول : « حقيقة ؟ »

فقالت بصوت الراضى المطمئن : « إذا كان هذا كله أمامك فهل يسعك أن تمل ! »

فلم يملك يورى أن يقول : « على كل حال أرى كل شيء يضجرنى »

فتظاهرت أخته بالاستياء وقالت : « ما أطف هذا منك ؟ إنه لم تمض عليك ساعتان في المنزل قضيتهما نائماً ومع ذلك فقد ضجرت ! »

فأجابها بلهجة فيها بعض الشموخ : « إن هذا ليس خطئى ولكنه سوء حظى » وظن أن من دلائل الذكاء السامى أن يضجر لا أن يسر .

فقالت متهمكة « سوء حظك حقيقة ! ها ها »

وداعبته بكفها على خده : « ها ها »

ولم يفتن يورى إلى أن مزاجه اعتدل وأن صوت لياليا الطروب ومراحها قد أماطوا عن نفسه الكآبة التى كان يحسها حقيقة عميقة ولم تكن لياليا تؤمن بكآبته هذه ومن أجل هذا لم يقلقها ما قال .

ورفع يورى طرفه إليها وقال وعلى وجهه ابتسامة :

« إني لا أعرف الجدل أبداً »

فضحكت منه « لياليا » كأنما كان قال ما يعزى بالاستغراق في الضحك وقالت :

« حسن جداً أيها الفارس ذو الوجه العبوس » إذا لم تكن بالمنتسرح

فلمست به . دعك من هذا وتعال معى لأعرفك بشاب فاتن تعال . »

وهزت يد أخيها وجرتة معها وهى تضحك :

« فنى . من هذا الشاب الفاتن ؟ »



— « خطيبي » .

قالت ذلك وهي فرحة مضطربة واستدارت بسرعة فانتفخ ثوبها .  
وكان يورى يعلم من رسائل أبيه وأخته أن طبيباً شاباً نزل بالبلدة وأنه  
يخطب ودها ولكنه لم يكن يعلم أن خطبتهما صارت أمراً واقعاً .

فقال وبه دهشة : « هل تعنين هذا حقاً ؟ »

وخيل إليه أن من بواعث العجب أن يكون لأخته لياليا الصغيرة الحسناء  
النضرة عاشق وهي تكاد تكون طفلة ، وأن توشك أن تصبح عروساً وزوجه .  
وخالجه العطف على أخته والمرئية لها . فلف ذراعه حول خصرها ومضى معها  
إلى غرفة المائدة حيث كانت تلتهمع آنية الشاي الصقيلة في ضوء المصباح فألقى  
بجانب أبيه شاباً وثيق التركيب ، قوى معارف الوجه مليحها ، حاد العينين يراقبها  
إلا أنه ليس بالروسى في سحته . وكانا جالسين إلى المائدة فوقف الشاب لما  
أقبل يورى بهيئة المتودد وقال : « قدمنى إليه »

فقالت لياليا متصنعة الوقار المضحك في إيمائها : « أنا تول بافلوفتش  
ريازانتريف ؟ »

فأضاف أناتول إلى قولها مازحاً بدوره :

— « وهو ينشد صداقتك وتسامحك »

فتصافق الرجلان وهما صادقاً الرغبة في التآخي وكان من يراهما يقول إنهما  
يهمان بأن يتعانقا ، ولكنهما كبحا نفسيهما واجتزءا بأن يتبادلا نظرات الود  
الصرىحة .

قال ريزانتريف لنفسه مندهشاً : « وهذا إذن أخوها ؟ »

فقد كان يتصور أن أخا لياليا القصيرة الحميلة الضحوك لا بد أن يكون  
قصيراً جميلاً ضحوكاً مثلها . ولكن يورى كان على عكسها طويلاً نحيفاً أسمر  
وإن كان على هذا وسياً حسن الوجه .

ودار في نفس يورى وهو ينظر إلى ريزانتريف هذا الحديث : « وهذا  
إذن الرجل الذى يجب المرأة في شخص أختي الصغيرة لياليا النضيرة الحميلة  
كالفجر في الربيع — يحبها كما أحببت أنا النساء »

وآلمه لسبب ما ، أن ينظر إلى لياليا وريازانتريف ، كأنما أشفق أن يقرأ خواطره .

وأحس الرجلان أن في نفس كل منهما كلاماً مهماً يجب أن يقوله لصاحبه .

وود يورى لو استطاع أن يسأله : «أحب لياليا؟ حباً صادقاً حقيقياً؟ إن الأمر يكون محزناً بل عاراً إذا أنت خنتها فهي نقيّة الذليل بريئة العهد» وإذن لود ريزانترريف لو يجيبه هكذا :

« نعم أحب أختك حباً عميقاً . ومن ذا الذى يستطيع ألا يحبها؟ انظر كيف نقاؤها وحلاوتها وفتنتها ! وتأمل كيف تحبني ! ما أحلى خلدتها ! » ولكن يورى لم يسأله شيئاً وسأله ريزانترريف :

— « هل طردت إلى أمد طويل ؟ » .

فكان جواب يورى : « لخمس سنوات » .

وكان أبوه نيقولا يقطع الغرفة جيئة وذهوبا . فلما سمع منه هذا وقف برهة ثم تنبه وعاد إلى سيره بخطى الجندى المتزنة المنتظمة، وكان يجهل تفاصيل نبي ابنه فصادمه هذا النبأ الذى لم يكن يتوقعه ، وقال لنفسه : « ترى ما معنى هذا كله ؟ » .

ولم يفت لياليا مدلول هذه الحركة من أيها وكانت تخشى أن تقع المشادة بينه وبين أخيها فحاولت أن تغير الحديث وقالت لنفسها : « كيف بلغ من حمقى أن أنسى أن أنبه أنا تولى ؟ » .

ولكن ريزانترريف لم يكن يدرى حقيقة الأمر ولما دعته لياليا أن يتناول بعض الشاى أجاها إلى ذلك ثم عاد إلى مساءلة يورى :

— « وماذا تنوى أن تصنع الآن ؟ » .

فقطب نيقولا وجهه ولم يزد .

وأدرك يورى معنى صمت أبيه ، وقال متحدياً له قبل أن يفكر فى عواقب جوابه :

— « لاشيء فى الوقت : الحاضر »

فسأله نيقولا ووقف « ماذا تعنى بلا شيء ؟ » ولم يرفع صوته ولكن لهجته كانت تحمل فى ثناياها تأنيباً مستوراً مؤداه : « كيف تقول مثل هذا الكلام ؟ أمكره أنا دائماً أن أتركك معلقاً بعنى ؟ كيف تنسى أنى شيخ هرم ، وأنه آن أن يكون لك مرتزق ؟ لست أقول شيئاً . عش كما بدا لك . ولكن ألاستطيع أن تفهم ؟

وعلى قدر إحساس يورى بأن أباه على حق فيما يجرى بخاطره كان استياؤه . فقال وهو محنتق :

— « نعم لاشيء . ماذا تنتظر أن أصنع ؟ »

وهم نيقولا أن يكر عليه بجواب مؤلم ولكنه لم ينبس ولم يزد على أن هنز كتفيه وعاود خطاه المنتظمة من ركن إلى ركن وكان أحسن أدباً من أن ينازع ابنه فى يوم أوبته .

وراقبه يورى بعينين متقدتين وهو لا يكاد يضبط نفسه ، فلو سنحت له أضال فرصة لنازل أباه .

وكادت لياليا تبكى وجعلت تنقل لحظها بين أخيها وأبيها مستعطفة راجية .

وفطن ريباز انتزيف أخيراً إلى الأمر ، وأدركه العطف على لياليا فحول الحديث إلى مجرى آخر تحويلاً ليس فيه حذق ولا خفة .

وزحف الليل بطيئاً ثقيلاً .

وكان يورى لا يريد أن يعترف بأنه ملوم ، إذ كان لا يشايح أباه على أنه لم يكن من شأنه أن يشتغل بالسياسة .

وذهب يعد أباه عاجزا عن فهم أبسط الأشياء لأنه هرم غبي وأخذ يلومه من حيث لا يشعر على شيخوخته وآرائه العتيقة وراح تهيجه منه وتستفزه هذه الآراء .

ولم يلبث ما طرقه ريارانتزيف من الأحاديث ، بل لم يكده يلقى إليه سمعه وجعل يرصد أباه بعين لامة مظلمة .  
ولما جاء وقت العشاء دخل نوفيكون وإيفانوف وسمينوف .

وكان سمينوف طالبا مصدورا يعيش منذ شهر في البلدة حيث يدرس وهو نحيف دميم ضعيف وعلى وجهه الذي أدركه الهرم قبل الأوان ظل الموت الزاحف .

أما إيفانوف فمدرس ، وهو رجل محتوى طويل الشعر ، عريض الكتفين لائز وقلك شمائله .

وكانوا يتمشون في الشارع فسمعوا أن يورى عاد فوفدوا لتحيته ، وصار المجلس بهم أنيساً وكثر الضحك والمزاح ، ودارت على الأكل الكؤوس والأقداح وبدهم إيفانوف في هذا الباب

أما نوفيكون فإنه في الأيام التالية لخطبته المنحوسة ليدا هدأت نفسه قليلا وخطر له أن تأبى ليدا قد يكون عارضا وهو على كل حال خطأ تلزمه تبعته فقد كان ينبغي أن يعدها لمثل هذه المكاشفة ولما كان يؤلمه مع ذلك أنه يزور أسرة سانين فقد جعل يتوخى أن يلاقى ليدا خارج بيتها — في الطريق أو في منزل صديق له ولها — وجعلت هي ترثى له وتنحى باللائمة على نفسها واندفعت لذلك تبالح في ملاطفته ، فتجدد الأمل في نفس نوفيكون .

ولما هموا بالانصراف قال نوفيكون . « ما قولكم في هذا ؟ أقترح أن نخرج إلى اللير »

وهذا اللير قائم على تل غير بعيد من البلدة ، وإليه يذهب الناس كثيرا طلباً للترهة وهو قريب من النهر والطريق إليه حسن .

فارتاحت لياليا إلى الفكرة وحمست لها، وكانت ولوعة بكل أنواع الملاهى من استحمام وتجذيف وسير في الغابات وقالت :

— « نعم لنذهب . نعم بلا شك . ولكن متى يكون هذا ؟ »

فقال نوفيكوف : « لماذا لا نذهب غداً ؟ »

وسأل ريبازانتزيف : « ومن ندعو غيرنا ؟ »

وسره أن يخرج إلى الهواء الطلق ليهياً له بين الأشجار أن يضم لياليا بين ذراعيه وأن يقبلها، وأن يحس أن الجسم الحلو الذى يشتهيته أذى شئء إليه :

— « دعونا نفكر . نحن ستة . ما قولكم فى شافروف ؟ »

فسأل يورى : « من يكون هذا ؟ »

— « طالب شاب . »

— « حسن جدا . وعلى « لود مللا نيقولا يفنا » أن تدعو كارسافينا وأولغا إيفانوفنا . »

فسأل يورى مرة أخرى : « من هذان ؟ »

فضحكت لياليا وقالت : « سترى . »

ولثمت أطراف أصابعها ونظرت إليه كأنما فى الأمر سر .

فقال يورى مبتسما : « آها ! حسن . سترى ما سترى »

وبعد تردد قال نوفيكوف بغير اكتراث :

— « ولا بأس من أن ندعو أسرة سانين أيضاً »

فصاحت لياليا « آه لا بد لنا من ليدا » ولم يكن ذلك منها عن إيثار خاص لليدا، بل لأنها تعلم حب نوفيكوف لها وتريد أن تدخل السرور على قلبه وهى سعيدة بحبها تود أن يسعد من حولها مثلها .

فلاحظ إيفانوف بنحبت « اذن يتحتم أن ندعو الضباط كذلك » .  
 — « ماذا يهم ؟ لندعهم . فكلما كثر العدد زاد السرور »  
 ووقفوا جميعاً أمام الباب فى ضوء القمر وقالت لياليا : « ما أجمل  
 الليل ! »

ردت من حبيها وهى لا تشعر وكانت لا تريد أن يفارقها الآن .  
 فضغط ريبازانتزيف ذراعها الدافئ المفتول . وقال : « نعم إنها  
 ليلة بديعة » .

وكان لهذه الألفاظ البسيطة معنى لا يدركه غيرهما .  
 فقال إيفانوف بصوته الضخم العميق : « ويحكم أنتم وليتكم . إن النوم  
 يغالبني فعموا مساء ياسادتي » .

ومضى مخبرقاً الشارع وجعل يطوح بذراعين كذراعى الطاحون .  
 وتلاه نوفيكوف وسمينوف ، وظل ريبازانتزيف لحظة طويلة يودع  
 لياليا متخذاً من الكلام على النزهة حجة له وعذرا .  
 ثم قالت لياليا لأخيها بعد أن ودعها حبيها : « والآن يجب أن نذهب  
 نحن أيضاً »

وأصعدت زفرة أسف على الانكفاء عن الليل المقمر والنسيم المترقرق  
 فى حواشى الظلام وكل ما يطلبه جماها وشبابها .  
 وذكر يورى أن أباه لم يذهب إلى مخدعه بعد ، وخاف إذا هو لقيه  
 ألا يلقيا بدأ من الكلام الجارح الذى لا خير فيه .  
 فقال وعيناه قيد الضباب الأزرق الخفيف حوالى النهر : « كلا . لا أريد  
 النوم . وسأتمشى قليلا » .

فتمالت له لياليا بصوتها الرقيق الحلو : « كما تحب » .

ومطت أعضائها وثنت بجفونها قليلاً كالقطة، ومنحت القمر ابتسامة ودخلت .

ولبت يورى دقائق في مكانه يرصد الظلال الكثيفة التي ترميها المنازل والأشجار ، ثم مضى على سمت سمينوف .

ولم يكن سمينوف قد أبعده فقد كان مشيه بطيئاً، وكان ينحني كلما سعل. وفي أثره ظله يطارده على الطريق المقمر ، فأدركه يورى ولم تلبث عينه أن أخذت ما طراً عليه من التغيير . فقد كان سيمينوف أثناء العشاء يضحك ويمزح ، كما لم يضحك سواه . ولكنه الآن كان يمشی مكتئباً غارقاً في نفسه وفي سعلته الجوفاء شيء من اليأس والوعيد ، كاللداء الذي يخامره فقال بصوت رأى فيه يورى نفورا :

– « أهذا أنت ؟ »

– « لم أطلب النوم وإذا سمحت رافقتك »

فقال سمينوف بدون احتفال : « نعم . افعل »

وسأله يورى : « ألا تحس البرد ؟ »

ولأنما سأله لأن هذا السعال المزعج نبه أعصابه .

فأجابه متضايقاً : « لاني دائماً بردان »

وتألم يورى كأنه كان تعمد أن يلمس جرحاً دامياً . وقال :

– « هل تركت الجامعة منذ زمن طويل ؟ »

فلم يجب سمينوف مباشرة وقال بعد برهة : « زمن طويل » .

فشرع يورى يتحدث عن إحساس الطلبة ، وما يعدونه بجوهرياً مهماً وكان يتكلم في أول الأمر بهدوء وسكون ولكنه أرسل نفسه على سجيئها وحمس تدريجاً وأجاد الإعراب عن خواطره :

ولم يقل سمينوف شيئاً وإنما أصغى :

ثم أخذ يورى يندب عدم وجود الروح الثورية بين الجماهير وكان من الواضح الجلى أنه يألم ذلك أعمت الألم .

ثم سأله صاحبه : « هل قرأت آخر خطبة ألقاها بيل ؟ »  
— « نعم قرأتها »

— « ما قولك فيها ؟ »

فلوح سمينوف بعصاه تلويح المتضايق ، وكان لها رأس ملتو وحاكاه خياله فرفع ذراعاً طويلة سوداء ثم وضعها فثلت لذهن يورى صورة أجنحة سوداء يخفق بها طير جارح ثائر .  
ولوح بعصاه وحاكاه ظله .

ورأى سمينوف ذلك فى هذه المرة فقال :

— « انظر ! ها هنا ورأى يقف الموت يرصد منى كل حركة ! ما أنا وبيل ؟ إن هو إلا ثرثرة يهنى فى هذا . وسيجىء مائق غيره يهنر عن ذلك .  
وسواء على هذا وذاك ؟ وإذا لم أمت اليوم فسأمت غدا »  
فلم يجب يورى واضطرب وتألم .

ومضى سمينوف فى كلامه : « وأنت مثلاً تحسب هذا الذى يجرى فى الجامعة وما يقوله بيل مهماً ولكن الذى أراه هو أنك إذا أيقنت — كما أنا موقن — أنك ستتموت ، فإن تكثرت لما يقوله بيل أو نيتشة أو تولستوى أو غير هؤلاء »

وصمت سمينوف . وكان القمر لا يزال بريق ضوته وخلف الرفيقين الخيال الأسود يتعقبهما .

ثم قال سمينوف فجأة بصوت آخر هزيل شاك : « إني مقضى على ... ولو كنت تدرى كيف فزعى من الموت ... لا سيما فى ليلة قمر رقيقة الحواشى كهذه » :



ولفت إلى يورى وجهه الدميم الغائر العينين اللامعها : « كل شيء يحيا .  
أما أنا فلا بد أن أموت . وإنى على يقين من أن هذا الكلام لا يقع من  
نفسك إلا موقع القول المبتدل — لا بد أن أموت — ولكنى لم أقتبسه من  
روايه ولا أخذته من كتاب يطالعك أسلوبه بصديق الفن وبراعة التصوير .  
إنى حقيقة سأموت وهذه الألفاظ فى مسمعى غير مبتدلة . وستكف يوما عن  
حسابها كذلك . إنى أموت ... أموت . وسيقتضى الأمر . »

وسعل سمينوف مرة أخرى وقال :

— « وكثيراً ما يخطر لى أن الظلام سيشتغل على بعد قليل وإنى سأدفن  
فى الأرض الباردة وإن أنفى سيغور فى وجهى وتتفغن يداى ، على حين يبقى  
كل شيء فى الدنيا كما هو الآن ، إذ أمشى على طهرها حياً . وستكون حيا  
وتستنشق النسيم وتسبح فى ضوء القمر وتمر بالقبر الذى يضم عظامى النخرة  
الشيعة البلى . ماذا تظنى أعبأ ببيل أو تولستوى أو بمليون آخر من هذه القروء  
المهاذرة . »

وكان يورى أشد اكتئاباً من أن يسعه أن يرد .

ثم قال سمينوف بصوت ضعيف خافت : « عم مساء فسادخل البيت »  
فهز يورى يده وأدركه العطف الشديد على هذا الرجل الخاوى الصدر ،  
المستدير الكتفين ، ذى العصا العوجاء المتدللية من عروة معطفه . وكان بوده  
لو استطاع أن يعزيه وأن يبعث فيه الأمل . ولكنه أحس أن هذا مستحيل  
فلم يزد على : « عم مساء » وتهد .

ورفع سيمينوف قبعته وفتح الباب وتضاءل وقع قدمه ، وخفت صوت  
سعاله ثم عاد كل شيء ساكناً .

ورجع يورى يستقبل من طريقه ما استدبر وقد ماتت الدنيا فى عينه —  
مات كل ما كان منذ نصف ساعة فقط ، وضيئاً جميلاً ساكناً — ضوء القمر

ونجوم السماء والأشجار الفضمية الروعة والظلال الغريبة - وطالعه من كل هاتيك برد القبر وفضاعته وهوله .

ولما بلغ البيت قصداً إلى غرفته وفتح النافذة المطلقة على الحديقة . فجرى بذهنه لأول مرة في حياته . أن كل ما استغرق حواسه ومدراكه وأظهر في سبيله من الحماسة والإيثار ما أظهر ، ليس في الواقع بالمهم ولا بالصواب . وإذا رنق الموت فوقه ، يوماً مثل سمينوف ، فلن يقطع قلبه الأسف على أن جهوده لم تزد الناس سعادة ولن يحزنه أن مثله العليا لم تتحقق . وإنما يكون حزنه لأنه سيموت ويحرم النظر والاحساس والسمع قبل أن يتاح له أن يدوق كل مسرات الحياة ولذاتها .

ولكن هذا الخاطر أخجله فنحاه عن فكره وأخذ ينشد تعليل ذلك .

#### الحياة جهاد

« نعم ولكن جهاد في سبيل من ، إن لم يكن في سبيل الذات ، ومكان المرء تحت الشمس ؟ »

هكذا قال له صوت من داخل نفسه .

فنظاير يورى بأنه لم يسمعه وحاول أن يفكر في أمر آخر ، ولكن ذهنه كان يكر راجعاً إلى هذه الفكرة بلا انقطاع . فعذبه هذا حتى لقد أبكاه بكاء مرأ .

( ٥ )

لما تلقت ليذا سانين دعوة لياليا أطاعت أخاها عليها وكانت تتوقع منه أن يرفضها . بل كانت ترجو ذلك لأنها تعلم أنها هناك على النهر ستكون قريبة من سارودين فيعودها ذلك الإحساس الجامع بين اللذة والقلق ، وأخجلها في الوقت نفسه أن يعلم أخوها أنها تحب - دون خلق الله - سارودين الذي يحتقره سانين من أعماق قلبه .

واكن سانين قبل الدعوة مسروراً .

وكان اليوم بديعا وضيئا ، لا تضرر شمس السحب ، فلم يسع ليذا إلا أن تقول :

— « لاشك أنه سيكون هناك بضع فتيات حسان قد يعينك أن تعرفهن ؟ »

— « آه . هذا حسن . والجو كذلك رائع . فلنذهب »

ولما جاء موعد الذهاب حضر سارودين وتاناروف في مركبة كبيرة من مركبات فرقتهما ، يجرها جوادان ضخمان من جيادها .

وكان سارودين في ثياب بيضاء معطرة فقال : « ليذا بتروفنا . إننا في انتظارك » .

وكانت ليذا في ثوب رقيق شفاف من الخمل الوردى ، مشدود على خاصرتهما ، فأنحدرت إليهما ومدت إلى سارودين كلتا يديها وأمسك بهما لحظه وعينه جائلة في جسمها مفتونة به .

فناالت منها هذه النظرة التي تعرف معناها وأضطربت لها فصاحت :

— « فلنذهب . فلنذهب »

وسرعان ماعدت بهم المركبة في الطريق المهجور بين السهوب ، وكانت أغيصان التبت تنثني تحت العجلات ويهب النسيم على رعوس أخواتها فتموج وتترنج . ولما جاوزوا البادية أدركوا مركبة أخرى تقل لياليا ويورى وريازانتزيف ونوفيكوف وإيفانوف وسمينوف متكلسين متزاحمين وإن كانوا على هذا جدلين مبتهجين ، إلا يورى فقد حيره سلوك سمينوف بعد حديث البارحة ولم يستطع أن يفهم كيف يتبها له أن يضحك ويمرح كعيره واستغرب منه هذا المرح بعد الذى سمعه وجعل يسأل نفسه : « هل كل هذا تصنع ؟ » ويسارقه النظر إلا أنه أحجم عن هذا التفسير لما يبدو له من حال سمينوف .

وتبادلت المركبتان الفكاهة والدعابة ، ووثب نوفيكوف عن مقعده إلى الأرض وراح يسابق ليذا على الحشائش وكأنهما آليا أن يتظاهرا بأنهما خير

الأصدقاء فقد جعلنا يتداعبان طول الوقت .

وقاربوا التل القائم على ذروته الدير بقبابه اللامعة وجدراؤه البيضاء ،  
وعلى التل غابات تحال أطراف بلوطها من الصوف ، وإلى سفحه جزائر يتدفق  
حولها ، النهر وفيها أشجار البلوط قائمة .

ومالت الخليل عن الطريق إلى الأرض اللسنة وجعلت العجالات تحفر فيها  
أخاديد عميقة وسطع الأنوف من الأرض والأوراق الخضراء عرف ذكي .  
وكان ينتظرهم في الموعد المضروب على المرج طالب وفتاتان في ثياب  
« الروسية الفتاة » وكانوا جالسين على بساط الروض ، وإذا كانوا أسبق من  
سواهم فقد اشتغلوا بإعداد الشاي والمرطبات الخفيفة .

ووقفت المركبة وجعلت الخليل تنفخ وتذود الذباب بذيولها ووثب كل  
من فيها عنها ، وقد أنعشهم الركوب وهواء الريف النقي ، وطفقت لياليا تقبل  
الفتاتين اللتين تعدان الشاي قبيلات رنانة ، وقدمتهما إلى أخيها وإلى سانين  
فجعلتا تتأملانه في خجل .

وأدركت ليذا أن الرجلين لا يعرف أحدهما الآخر ، فقالت ليورى :  
— « أسمح لي أن أقدم إليك أخي سانين فلاديمير »  
فابتسم سانين وصافحه .  
واكن يورى لم يكده يلتفت إليه .

وكان سانين امرأ يلهه كل إنسان فهو لهذا مرتاح إلى معرفة الناس .  
واكن يورى كان يذهب إلى أن الناس قل أن يكون فيهم من يطيب مخبره  
ومن أجل ذلك كان يزهده في لقاء الغرباء وكان إيفانوف يعرف سانين قليلا  
وقد راقه ما سمعه عنه فذهب إليه قبل سواه ، وأخذ يحادثه وصافحه سمينوف  
محتفلا .

وقالت لياليا : « الآن نستطيع أن نتمتع جميعا بعد هذه الرسميات المتعبة »  
ولكن النكفة ألفت ظلها على الجمع في أول الأمر ، إذ كان كثيرون منهم لم

يسبق لبعضهم ببعض عهد فلما شرعوا يأكلون وأصاب الرجال من الأشربة والنساء من التبيد لم تلبث الكلفة أن أخلت الأيدان للمرح فشربوا كثيراً وكثر الضحك والمزاح وتسابق البعض وصعد الآخرون على التل وكان كل ما حولهم من السكون والوضاعة ، والغابات الخضراء من الجمال بحيث لا يتأتى للكتابة أن تبسط ظاهها على نفوسهم .

وقال ريبازاننزيق وهو يلهث ووجهه متقد : «لو أن كل امرئ وثب وجرى على هذا النحو لأختفت تسعة أعشار الأمراض من العالم .. » .  
فزادت لياليا « والرذائل أيضاً » .

وقال إيفانوف : «أما من حيث الرذائل فسيبتي منها الكفاية دائماً » .  
ومع أنهم ير أحدان في هذا القول فكاهة أو سداداً فقد ضحكوا جميعاً .  
ومالت الشمس للمغيب وهم يشربون الشاي وتوهج النهر ونفذت أشعة النور الدافئة الحمراء من خلال الأشجار .

وصاحت بهم ليذا « والآن . إلى الزورق » .  
وأمسكت بتوبها وانحدرت إلى الشاطئ وقالت : «من يكون أول واصل إليه ؟ » .

فعدا بعضهم وراعاها وتبعهم الباقون على مهل وبلغوا جميعاً الزورق الكبير المنقوش ضاحكين .

فقالت ليذا بصوت الأمر الطروب : « اخرجوا به » .  
فاندفع الزورق عن الشاطئ وخلف وراعه على سطح الماء خطين عريضين لم يابئا أن تكسرا على حافة النهر .

وسألت ليذا يورى : « مالك صامتاً ؟ » .  
فابتسم وقال : « ليس عندي شيء أقوله » .

— « مستحيل ! » .

ومطت أرق شفتين ورمت رأسها إلى ظهرها فعل من يعلم أن الرجال لا يدرون لسحرها من رقية .

فقال سمينوف : «إن يورى لا يجب أن يهذر . وهو يطلب . » .  
فقاطعته ليذا « موضوعاً جدياً ؟ أهذا ما يريد ؟ » .

وقال سارودين وأشار إلى الشاطيء انظروا : « هذا موضوع جدلى »  
 وكان على صخور الشاطيء بين جزوع شجرة بلوط عتيقة  
 معقدة مدخل ضيق تغطيه إلا قلة من الحشائش والاكلاء .

فسأل شافروف وكان لا يعرف هذه الناحية : « ما هذا ؟ » .  
 فأجاب إيفانوف : « غار » .

« أى نوع من الغيران هذا ؟ » .

— «عالم هنا عند الشيطان ! على أنهم يقولون إنه كان فى وقت من الأوقات  
 مشوى نغر من مزيمى النتمود قبض عليهم جميعاً كما هى العادة . أعمال خطيرة  
 أليس كذلك ؟ » .

فقال نوفيكوف : «أظنك تود أن تضرب على هذا القالب وأن تزيف  
 قطعاً من فئة العشرين كوبيك ؟ » .

فقال إيفانوف : «كوبيك ؟ كلا ! الروبلات يا صديقى الروبلات ! » .

فهمهم سارودين وهز كتفيه وكان لا يحب إيفانوف ولا يفهم نكاته .  
 وعاد إيفانوف إلى قصته فقال : « نعم قبضوا عليهم جميعاً وامتلاً  
 الغار ثم تداعى على الأيام وليس يغشاه الآن أحد . بيد أنه مكان لذيذ » .  
 فصاحت ليذا : «لذيذ ؟ ؟ أحسبه كذلك » .

وقال يورى : «فكتور سرجفتش . هلم إليه . إنك أحد الشجعان المغاوير»  
 فسأله سارودين وقد ارتبك : « لماذا ؟ » .

فقال يورى وقد أخجله أن يظنوا به المباهاة الكاذبة : سأفعل  
 وشجعه إيفانوف فقال : « إنه لمكان عجيب » .

— فسأله نوفيكوف : « أذهب أنت أيضاً ؟ » .

— « كلا إني أفضل البقاء هنا » .

فضحكوا منه جميعاً .

ودنا الزوق من الشاطيء

وهبت على رؤوسهم من الغار موجة هواء باردة :

وحاولت لياليا أن تحمل أباها على العدول فقالت :

— « ناشدتك الله لاتفعل ! إن هذا خرق حقيقة » :

فقال يورى مبتسماً « خرق نعم بلا شك ! ناولنى ياسمينوف هذة الشمعة ».

— « أين هي ؟ » .

— « خلفك . فى السلة » .

فأخرج سمينوف الشمعة مثيراً .

وسألته فناة طويلة بديعة القوام رائعة التناسب : « أذهب أنت حقيقة ؟ ».

وكانت لياليا تسميها « سينا » ولقبها كرسافينا .

— « بلا شك . لماذا لا أذهب ؟ » .

وتظاهر بعدم الاكتراث . وذكر أنه فعل مثل هذا مرة فى بعض مخاطراته السياسية ولم تقع هذه الذكرى موقِعاً حسناً من نفسه لأمر ما .

وكان مدخل الغار رطباً مظالمًا ونظر فيه سائين وانفجرت شفثاه عن « برررر » واستسخف من يورى أن يرتاد مكاناً خطراً يكرب النفس لالسبب سوى أن الناس يشهدونه وهو يفعل ذلك .

وكان يورى شديد الإحساس بنفسه فأوقد الشمعة وهو يقول لنفسه :  
« إنى أعالج ما يضحك منى الناس أليس كذلك ؟ » .

ولكن الواقع أنه يدل أن يثير سخرهم فاز بالإعجاب ولا سيما من النساء اللواتى راقهن منه ذلك وأعجبهن إلى حد الإزعاج .

وتحمل يورى إلى أن أضاعت الشمعة ثم ضحك تفادياً من التضاحك وغاب فى ظلام الغار وكأنما اختفى النور معه فقلقوا عليه وودوا لو يعرفون ماذا عسى أن يقع له .

وصاح به ريزا تتريف : « احذر الذئب » .

فتهدى إليه من جوف الغار صوت ضعيف غريب يقول :

— « لاخوفت فىن معى مساساً » .

تقدم يورى فى بطء وحذر وكانت جوانب الغار قصيرة وعرة رطبة والأرض من الوعونة وعدم الاستواء بحيث كادت تنزل به قدمه مرتين فى جحر وخطر له أن الأحجى أن يعود وأن يبقى مكانه برهة ليؤاياه أن يدعى أنه قوغل .  
وفاجأه وقع أقدام وراءه تخطو على الطين البابل ونفس م.سرع فرفع يده بالشمعة وصاح مذهولاً : « سيناكر سافينا ؟ » .

— « هى بعينها » .

وأمسكت بشوئها وتخطت الجحر بخفة .

وسريورى أن تكون هذه الفتاة الجميلة هى التى جاءت فحياها بعينين ضاحكتين .

وقالت سينا وهى خجلة : « دعنا نتقدم » .

فأطاع يورى ولم يعد تزعجه فكرة الخطر الآن .

وأخذ يعنى بإنارة الطريق لرفيقتة ولمح مخارج عديدة كلها قد سادت ورأى فى ركن بضع ألواح من الخشب يحسبها الرأى آثار نعش قديم فقال يورى وخفض صوته وهو لا يدرى : « أيس بالممتع جداً .. » .  
وأخذ نفسه الضيق فى جوف هذه الكتلة الأرضية .

فهمست سينا « بلى إنها لممتعة » .

والفتت حولها فالتمعت عيناها فى ضوء الشمعة . وكانت مضطربة فتونخت أن تكون قريبة منه ليحتمها ، ولاحظ هو ذلك وأدركه العطف على رفيقتة الجميلة الضعيفة .

وعادت إلى الكلام : « لكأن المرء هنا مدفون حيا . وإذا صرنا لم نسمعنا

أحد »

فقال ضاحكاً : « لاشك » .

وطاف برأسه فجأة خاطر دار له ذهنه . أن هذه الفتاة الجميلة الضعيفة المشتهة فى قبضة يده وتحت رحمة . وليس من يراها أو يسمعها .. ولكن هذا الخاطر من النداء بحيث لا سبيل إلى وصفه فأسرع فنفاه وقال :



« ولنفرض أننا جربنا ؟ » .

وارتعش صوته . أتراها أدركت مدار بذهنه ؟

فقالت « نجرب ماذا ؟ » .

قال - « إني أطلقت مسدسي ؟ » .

وأخرجه .

قالت : « هل تسقط الأرض علينا ؟ » .

قال : « لأدرى » .

وإن كان على يقين من أنه لن يحدث شيء من هذا . ثم قال : « أخائفه ؟ » .

قالت : « لا : لا : لا ! أطلق ! » .

وتراجعت خطوة أوبعض خطوة :

ومد ذراعه بالمسدس وأطلقه فأبرق المكان ولقمتها سحابة من الدخان

وتجاوبت الأصداء ثم فنيت تدريجاً .

فقال يورى : هذا كل ما حدث .

قالت : « دعنا نرجع » .

فعادا أدراجهما وسارت أمامه فأثار منظر رديها المكثرتين المستديرتين

في ذهنه خواطر جنسية كان من الصعب عليه أن يغض عنها فقالت بصوت

مضطرب :

- « اسمعي ياسينا . إني أريد أن أسألك سؤالاً سيكولوجياً لطيفاً كيف لم تخافى

أن تأتي إلى هنا معي ؟ لقد قلت أننا لو صرخنا لما سمعنا أحد . وأنت لاتعرفين

عنى شيئاً على الإطلاق ! » .

فخرجت في الظلام وصمتت ثم قالت أخيراً بصوت خافت :

- « لأنى رأيت أنك يمكن التهمة بك » .

قال : « وافرضي أنك كنت مخطئة ؟ » .

فقالت بصوت لا يكاد يسمع : « إذا كنت ... أغرق نفسي » .

فبأثته هذه الألفاظ عطفاً وسكنت نزعته واطمأنت نفسه .

وقال لنفسه : « ما أطيها من فتاة » .

ووقعت منه أعظم وقع عفتها البسيطة الصريحة .

وزهاها ردها عايه وأرضتها موافقته الصامته عنه فابتسمت له لما عادا إلى مدخل الغار . على أنها كانت تعجب لماذا لم تر في سؤاله ما يسوء أو يفضح ولماذا ارتاحت إليه على العكس من ذلك ؟

( ٦ )

بعد أن انتظر الباقون برهة عند مدخل الغار وركبوا سينا ويورى بالنكات أخذوا يتمشون على شاطئ النهر وأشعل الرجال السجائر والتقوا بعيدان الكبريت في الماء وجعلوا يرقبون اندياح الدوائر على سطح التيار .

وراحت ليذا تخطر ويدها إلى جانبي خصرها مما يلي رد فيها وتغنى وهي سائرة وقدها الصغيران الرشيقتان في حذاءيهما الأصفرين يرتجلان الرقص من حين إلى حين .

أما لياليا فكانت تقطف الأزهار وترمي بها ريارا تنزيف وتداعبه بعينها .  
وقال إيفانوف لسانين : « ما قولك في الشراب ؟ » .

— « فكرة بديعة » .

فانقلبا إلى الزورق وفتحاه زجاجات من الجعة وشرعا يشربان .

فصاحت بهما لياليا « ويحكما من سكيرين فظيعين ! » .

وراحت ترميهما بنخصل من الحشائش .

فقال إيفانوف ومص شفثيه « لأنها من الطراز الأول » .

فضحك سنانين وقال مازحا : « كثيرأ ما أعجب للناس لماذا ينحون على

الكحول . وفي اعتقادي أن السكير هو الذي يعيش كما ينبغي له » .

فأجابه نوفيكوف من الشاطئ : « أي كالبهم ! »

فقال سانين : « ربما ! على أنه مهما يكن من ذلك فالسكران إنما يفعل ما يريد . فإذا خيل له أن يغنى غنى . وإذا طلبت نفسه الرقص رقص ولم يستحي أن يطرب ويمرح » .

فقال ريزانتريف : « وقد يضارب أيضاً » .

فأجاب سانين ( نعم يفعل - أعني إذا لم يعرف المرء كيف يشرب ) .

فسأله نوفيكوف : « وهل تحب المضاربة وأنت تمل ؟ » .

فأجاب سانين : « كلا : بل أفضل أن أضارب وأنا صاح . فإذا سكرت

عدت أطيب الناس قلباً لأنى أنسى كل ما هو حقير وضعيع » .

فقال ريزانتريف : « ليس كل الناس هكذا » .

فأجاب سانين : « إني آسف لهم . على أن غيرى لا يعنينى على الإطلاق » .

فقال نوفيكوف : « لا يسع المرء أن يقول هذا ؟ » .

فأجاب سانين : « لماذا لا يقوله إذا كان حقاً ؟ » .

فقال لياليا وهزت رأسها : « إنه لحق بديع ! » .

فرد ليفانوف عن سانين : « هو أبداع ما أعرف على كل حال » .

وكانت ليذا تغنى بصوت عال فسكنت فجأة وبدا على وجهها الضيق وقالت :

« إنهما لا يستعجلان على ما يظهر » .

فأجابها يورى : « ولماذا يستعجلان . إن من الخطأ العظيم أن يستعجل المرء

في أى أمر » .

فقال ساخرة : « وسينا فيما أظن هى البطلة المترهنة عن الخوف المرأة

من العيب » .

ولم يستطع تاناروف أن يكتم خواطره فى هذه اللحظة فانفجر بصحك ثم استحي

وكانت ليذا واقفة ويدها إلى ردفها وهى تميد يمنة ويسرة برشاقة فالتفت

إليه وقالت وهزت كتفها :

« أحسبهما قد ظفرا بأر ممنع » .

وقال ريزانتريف وقد تأدى إليهم صوت طاق : « اسمعوا » .

فتال شافروف : « هذه طلقة سدس » .

وتعلقت لياليا وهى مضطربة بذراع حبيبها وقالت :

— « ماعنى هذه الطلقة ؟ » .

قال : « لاتنزعجى إن كان ذئباً فالذئاب أليظة فى هذا الوقت من العام وهى على كل حال لاتتهم باثنين »

وحاول ريزانترزيف أن يطمئننها وإن كان اتقاق قد ساوره من هذه النزوة الصبىانية التى نزت برأس يورى .

وقال شافروف وبه مثل مايبهم من الغيظ : « ححق » .

ثم صاحث ليذا بلهجة المستخف : « إنها آتيان — آتيان فلا تقلقوا ! »  
وكان وقع أقدامها مسموعاً الآن ولم يلبتا أن خرجا من الظلام فأطفأ يورى الشبعة وابتسم وهو مضطرب إذ كان لايدرى كيف يستقبله القوم .  
وقد جلله الطين الأصفر . وكان منه آثار على كتيف سيننا فقد احتبكت بجانب الغار .

وسألها سمينوف بفتور : « ماعندكما ؟ » .

فقال يورى وكأنه يعتمدر : « إن المكان رائق جدا لولا أن الممر لايفضى إلى بعيد وهو مسدود وقد رأينا ألواح خشب متعفنة ملقاة هنا وهامنا » .

وقالت سيننا والتمعت عيناها : « هل سمعتم طلقة المسدس ؟ » فقاطعها إيفانوف صائحاً : « أيها الاخوان لقد شربنا كل الجعة وانتعشت نفوسنا جدا فانهعد ولما توسطوا النهر بالقرب كان القمر قد طلع . وكان الليل ساكناً صافياً

والنجوم الذهبية تاتمع فوقهم وحولهم وفى قبة السماء وفى صفحة الماء فكأن الزورق معلق بين كونين لا يقاس لها غور . وبدت الغابة المقائمة على شاطئ النهر مستبهمة معجمة السر — وغرد عندليب فأصاحوا فى سكون . ووقع فى

نفوسهم منه أنه ليس بطائرة بل حالم طوب يرسل الصوت فى جوف الظلام وخلعت سيننا كرسافينا قبعتها وانطلقت تغنى أشودة روسية عذبة شجية كككل الأناشيد الروسية . وكان صوتها العالى الرنان هافياً ينال من القلب وإن لم يكن بالقوى .

فتمتم إيفانوف « هذا عذب » وقال سانين « فتان » .

ولما فرغت من الغناء صفقوا لها جميعاً وارتد إليهم الصدى من الغابات  
المظلمة على جانبي النهر :

وقالت لياليا : « غنينا لحنا آخر ياسينا — أو افعل ما هو خير — أنشدينا  
قصيدة لك » .

فقال إيفانوف : « وشاعرة أيضاً ؟ ما أكثر الهبات التي يجود بها الله الكريم  
على مخلوقاته ! » .

فسألته سينا وهي مرتبكة : « أو هذا شيء قبيح ؟ » .

فأجاب سانين : « كلا ، بل حسن جداً » .

وعاد إيفانوف فقال : « إذا أوتيت الفتاة والصبا والحسن فما حاجتها إلى  
البشر ؟ وهدت لو أدري ! » .

وجاش صدر لياليا لها بالحب والرهبة فقالت : « دعينا من هـدا وغنينا

لحنا ياسينو تشكا ! »

فأقر ثغر سينا وانصرفت بوجهها معجبة بنفسها قبل أن تغني الأبيات

التالية بصوتها الخالص الموسيقي :

يا حبيب أنفوس يا خير حبيب !

لن أناجيك بسرى أبدا

لا ولن أكشف عن حر اللهب !

\*\*\*

وإذا ما حنت العين إليك

وصبت ، أرخيت جفني جلدا

فانطوى سر الهوى عن ناظريك

\*\*\*

ليس يبيديه سوى طول الحنين

ليس يدري حبي المتقدا

غير ساجي الليل لو كان بين

\*\*\*

كل نجم - كل روض بهوى  
 حالم فى الليل أما ابتردا  
 هاهن - لو كنت تصغى - بجوى  
 \* \* \*

هذه تدريه لكن لا تقول !  
 هى خرساء كتوم أبدا  
 فمن المبلغك السر المهول ؟  
 \* \* \*

فشاعت فى نفوسهم حماسة الطرب مرة أخرى وضجوا بالتصفيق لسينا  
 لا لأن قصيدتها الصغيرة جيدة بل لأنها جاءت ناطقة بحالم معبرة عن مزاجهم  
 ولأنهم جميعاً كانوا يحنون إلى الحب وشجاء اللذيد .  
 وصرخ فيهم إيفانوف وقد أخذته نشوة الطرب بصوت عميق أفرعهم جميعاً :  
 - « يا ليل ! يا ليل ؟ يا عيني سيننا الراقنين ناشدتكما ألا ماقلتما لى أنى أنا  
 ذلك الحبيب السعيد ! » :

فقال سمينوف : « لى أستطيع أن أوكد لك أنك لست به » :  
 فتوجع إيفانوف نادبا « آه ، يا ويحى ! » فلم يبق أحد لم يضحك :  
 وسألت سيننا يورى « أشعري ردىء ؟ »  
 ولم يكن يرى أن فيه ابتكاراً يذكروا ولقد أذكرته قصيدتها ماثت من أمثالها  
 ولكن سيننا بارعة الحسن وقد توسلت إليه عيناها فلم يسعه إلا أن يقول بوقار :  
 - « أراها على جانب عظيم من الفتنة والحلاوة » .  
 فابتسمت وأدهشها أن بسرهما مثل هذا المدح كل هذا السرور :  
 وقالت ليااليا : « إنك لم تعرف سيننا بعد ! هى كل شىء جميل وحلو » .  
 فقال إيفانوف : « أتعتنين هذا حقاً ؟ » .  
 فأصرت ليااليا : « نعم أعنيه ، إن صوتها مرن رنيم وكذلك شعرها وهى  
 نفسها جميلة - حتى اسمها جميل عذب » .

قصاح إيفانوف : «لعمري ماذا تستطيعين أن تزيدى على هذا ؟ على أنى اطابقتك على رأيك» .

فاحمر وجه سيننا خجلا وارتابا كما من هذه المدائح :

وقالت ليذا فجأة : «قد آن أن نعود» .

واستكرهت أن تسمع مدح سيننا إذ كانت تعد نفسها أجمل وأبرع وأمتع .  
وسألها سانين : «ألا تغنيننا ؟» .

فقالت : «كلا ! إن صوتى لا يؤاتينى الآن» .

وقال ريبازانتزيف « لقد آن أن نعود حقيقة » وذكر أن عليه فى الصباح أن يكون فى مشرحة المستشفى . وود الآخرون لو يتكأون قليلا ولازموا الصمت وهم عائدون وأحسوا بالتعب والرضى، وداست العجلات مرة أخرى اغيصان الحشيش وإن لم ير ذلك أحد . ولم يلبث التراب أن استقر على أرض الطريقي مرة ثانية وبدأت الحقول الحرة العارية هائلة لا حد لها فى ضوء القمر لوانى .

### ( ٧ )

مضت ثلاثة أيام وفى مساء الرابع عادت ليذا إلى بيتها حزينة متعبة مثقلة القلب . ولما بلغت غرفتها وقفت ويدها متشابكتان وعيناها إلى الأرض . وأدركت فجأة أنها فى علاقاتها مع سارودين قد تجاوزت الحد فاستهولت ذلك . وتبينت لأول مرة منذ تلك اللحظة — لحظة الضعف الذى لا يعالج — أى سلطان مذل صار لهذا الضابط الفارغ العقل عليها وإن يكن دونها فى كل شىء .

— لا بد لها الآن أن تلبية إذا دعا وأن تدعن لقبلاته أو تتأبى ضاحكة ولكنه لم يعد يسعها أن تعبت به كما تشاء . ولم يبق لها إلا أن تحتمل وتطيع كالرقيق .

كيف حدث هذا ؟ — ذلك ما لم تستطع له فهما . لقد كانت أبداً وعليه سلطانها وكانت تطيق التفاتاته وغزله وكان كل شىء رضىاً لذيداً مثيراً كالعادة . ثم جاءت لحظة اتقد فيها كيانها كله وغشى ذهنها مثل الضباب ولم

تبقى إلا الرغبة المخبونة في الاندفاع إلى الهاوية . كأنما انشقت الارض تحت قدميها ولم تعد تحكم أعضائها أو تشعر الابعينين جاذبتين تحمقان في عينيها وهزت العاطفة جثماتها وعصفت به وراحت ضحوية الشهوة الغالبة . على أنها مع ذلك شاقها أن تتكرر هذه التجارب العاصفة . ولما مثل لخاطرها كل ذلك ارتجفت فرفعت كتفيها ونجبات وجهها في راحتها ومضت إلى غرفتها متعثرة وفتحت النافذة ولبت لحظة طويلة ترمق القمر وكان طالعا فوق الحديقة - وتم بين الاشجار النائية بلبل يغنى .

وجثم على صدرها الحزن وتال منها الإحساس بالندامة وبانجراح الكبرياء للقضاء على حياتها من أجل رجل فارغ سخيف ولأن زلتها كانت حمقاء حقيرة عرضية . وبدا لها المستقبل مندرا بالشر واكنها عالجت أن تنفى عن نفسها المخاوف بالمكابرة .

وقالت لنفسها وهي عابسة محاولة أن تجد شيئاً من الارتياح في هذه العبارة المبتدلة .

« لقد فعلتها وقضى الأمر ! ما أسخف هذا كله ! لقد أردت ذلك فكان ما أردت . وأحسست بسعادة يالها من سعادة ! وكان من الحمدق أن لا استمتع وقد سنحت لي الفرصة . إلا أنه لا ينبغي لي أن أفكر في الأمر . فما من حيلة فيه الآن » .

وابتعدت في تناقل عن النافذة وشرعت تلحع ثيابها تاركة إيادها تنزل عن جسمها إلى الأرض وقالت وقد أروعها برد الليل لما أصاب كتفيها وذراعها العارية .

« إن الإنسان على كل حال لا يحيا إلا مرة . وماذا كان ينبغي أن انتظر حتى أتزوج زواجا شرعياً ؟ ماذا كان يفيلني هذا ؟؟ سيان هذا وذاك ، فماذا هناك مما يزعج ؟ »

وخيل إليها فجأة أنها بهذه المخاطرة اعتصرت كل لذادة ومهجة وخير . وأنها قد صارت الآن حرة كالطير وأنها مقبلة على حياة حافلة بالحوادث مليئة من السعادة والائدة .



« سأحب إذا شئت . وإذا لم أشأ لم أعشق ! » .

هكذا غنت نفسها بصوت خافت وفي ذهنها أن صوتها خير من صوت سيدنا كرسافينا وأحلى .

« كل هذا كلام فارغ ! وأن لى إذا شئت أن التمى بنفسى فى أحضان الشيطان نفسه ! »

و كذلك كانت ترد على ما يخالجهما من الخواطر وذراعاها العاريتان فوق رأسها وتديهاها يهتران .

وحمل اننسيم إليها صوت سانين يقول لها من وراء النافذة :

— « ألم تنامى بالليدا ؟ »

فتراجعت ليذا فزعة ثم سترت كتفها بوشاح وهى تدنو من النافذة باسمة وقالت :

— « لقد أفزعتنى والله ! » .

فلدنا منها سانين واتكأ بذراعيه على حافة النافذة وكانت عيناه تلمعان وتغره يفتر وقال مداعباً لها :

— « لم تكن ثم من حاجة إلى هذا » .

فتلفتت ليذا حولها وعاود الكلام بصوت منخفض مؤثر فقال :

— « لقد كنت بغير هذا الوشاح أجمل » .

فحماقت ليذا فيه مذجولة وشدت الوشاح على جسمها فضحك سانين ومالت هى الأخرى على حافة النافذة وهى مرتبكة وصارت منه بحيث كانت تحس أنفاسه على خدها . فقال :

— « واهآ لك من جميلة ! » .

فأوسلت إليه نظرة عجملى وأخذها الحرف مما خيل إليها انها تقرؤه فى وجهه وأحست كل جارحة فى جسمها أن عيني أخيها ترشقانها فلوت وجهها مستفظة . وبأغ من استهواها خواطرها وتقرزها منها أن كاد قلبها يجمد . إن كل رجل ينظر إليها هذه النظرة وهى ترتاح إلى ذلك . فأما أن يفعل أخوها هذا فمستحيل لا يحتمل التصديق . على أنها ما لبثت أن ثابت إليها نفسها فقالت مجيبة :

« نعم أعلم ذلك » .

وراقبها سانين في سكون وكان الوشاح والقميص قد زلعا عن كتفيها لما انحنت على النافذة وبدأ صدرها الرقيق ملتصقا في ضوء القمر فقال سانين بصوت خافت مرتعش :

— «إن الناس لا يزالون أبدأ يقيمون سورا من أسوار الصين بينهم وبين

سعادتهم» .

فبهتت ليذا وسألته وعيناها إلى الحديقة مخافة أن يلتقي طرفها وطرفه :

— « وماذا تعنى ؟ » .

وخيل إليها أن سيحدث شيء لا تجرؤ على التفكير فيه وعلى أنها لم يخالجها شك في ماهيته — شيء رهيب فظيع إلا أنه لذيذ فالتببت ذهنها وعادت وما تكاد تبصر وظلت واقفة مستبشرة مستغربة وهي تحس النفس الحار على خدها يعبث بشعرها ويرسل الرعدة في جسمها .

فقال سانين وصوته يرتجف :

— « ماذا أعنى ؟ هكذا ! » .

فكأنما أصابت ليذا هزة كهرباء ففزعت إلى الورا ومالت على المنضدة

وهي لا تدرك ما تصنع ونفخت الشمعة فانطفأت وأغلقت النافذة وقالت :

— « لقد آن أن أنام » .

ولما انطفأ النور خفت الظلمة خارج الغرفة وظهر شخص سانين في الحديقة

واضحاً بارزاً وأكسب ضوء القمر قسما وجهه شيئاً من الزرقة وهو واقف

بين الحشائش الطويلة المطولة يتنسم .

وانصرفت ليذا عن النافذة وجلست على السرير وهي ترجف من فرعها إلى

قدمها وعجزت عن جمع خواطرها وتنظيمها وسمعت وقع قدمي سانين على

الحشائش فزاد خفقان قلبها وجعلت تسأل نفسها وهي مكروبة :

— « أتراني جننت ؟ ما أظن هذا ؟ كلمة كهذه لعامها قيلت عرضاً تحرك في

ذهني مثل هذه الخواطر ؟ ؟ أترى هذا جنون ؟ الشهوة ؟ هل وصلت إلى هذا

الدرك من السفالة والانحطاط؟ لقد هويت حقاً إذا كان يجري ببالي مثل هذا الخاطر! .

ودفنت وجهها في الوسادة وبكت بكاء مراراً .

ثم سألت نفسها مستغربة علة البكاء شاعرة بالذلة والمهانة والشقاوة  
- « لماذا أبكي؟ » .

بكت لأنها بذلت نفسها لسارودين - لأنها لم تعد تلك العذراء النقية الذليل  
المزهوة الشاخنة الأنف - وبكت من جراء تلك النظرة الفظيعة المهينة التي رماها  
بها أخوها . ولم يكن عهداً به فيما مضى أن ينظر إليها هكذا . وإنما فعل هذا  
- في رأيها - لأن قدمها زلت فسقطت .

واكن أوجع مامر بها من الخواطر وأمرها جميعاً هو أنها أصبحت الآن  
امرأة ! وأنها لا يسعها الآن - مادام لها صباها وقوتها وحسنها - إلا أن تجعل  
خير مامنحت تحت أقدام الرجال ووقف على إرضائهم وأنها على قدر المتعة  
التي تبذلها لهم يكون مبلغ احتقارهم لها .

فسألت نفسها محمقة في ظلام الغرفة :

- « لماذا يحقروني؟ من خوفهم هذا الحق؟ أليس لي من الحرية منزل ما لهم  
سواء بسواء؟ هل قضى على أن لا أعرف حياة غير هذه وخيراً منها؟ » .

فقال لها جسمها بلسان الصبا والقوة أن لها الحق أن تقطف من الحياة كل  
ما هو ممتع وسار ولازم لها وأن لها أن تصنع ما تشاء بجسمها الجميل  
القوى الذي هو ملكها وحدها دون سواها .

ولكن هذه الفكرة ضاعت في تيه من الخواطر المختلطة المتضاربة .

( ٨ )

ظل « يورى سفاروجتش » مدة يشتغل بالتصوير وكان كأنه يصرف  
فيه كل أوقات فراغه . ولقد كان يحلم في ما مضى من عمره أن يكون  
مصوراً ولكن الحاجة إلى المال - أولاً - ومشاغله السياسية - ثانياً - حالت

دون ذلك فصار يعالج التصوير من حين إلى حين على سبيل اللهو وبلا غاية يرمى إليها .

ولهذا السبب — ولأنه يتقصده التدريب — لم يجسد في التصوير مسلاة ترضى نفسه . بل صار على عكس ذلك مصدر حسرة ومبعث خيبة . وكان كلما أخفق فيه يكتب ويهيج وإذا وفق فيما يعالجه منه سبح في بحر من التفكير الساهم وتجسم له عبث مساعيه التي لا تنيله لا السعادة ولا النجاح .

وكان يورى قد كلف « بسينا كارسافيتا » وكان يؤثر من النساء الطولية المنسجمة الجميأة الصوت التي تمر عينها بسحر الخيال . وكان يتوهم أنه ما جذبه إليها سوى جمالها وطهر روحها وإن كان لم يدفعه إلى تعلقها شيء سوى أنها جميلة مرغوبة . على أنه حاول أن يقنع نفسه بأن سحرها الذي يحسه روحى لا جبانى إذ كان يظن أن هذا أنبل وأرفع وإن كانت هذه العظاهرة العذريه بعينها هي التي ألهبت دمه وأثارت رغبته . وما زال مناقبها مساء لأول مرة يحس بحنين قوى وشوق مالح غامض إلى تلويث طهارتها : والواقع أن هذا كان إحساسه كلما رأى امرأة حسناء .

والآن وقد تعلقت خواطره فتاة جميلة مرحة مليئة بلذة الحياة فقد بدا له أن يصور « الحياة » . وتحمس لهذه الفكرة كما هي عادته كلما عن له رأى جديد . وراح يعتقد أنه في هذه المرة سيوفق إلى النجاح .

وبعد أن أعد لوحاً كبيراً مفضى في العمل بسرعة المحموم كأنما يخشى أن يعطله معطل . وما كاد يلمس اللوح ببعض الألوان ويخرج من تواليقها أثراً سارا متجاوبا حتى أهتز سروراً وتمثلت لخياله الصورة المزمعة بكل تفاصيلها ولكنه لما توغل في العمل نشأت المصاعب الفنية وتعددت وأحس يورى أن لا قبل له بتذليلها وبناد كل ما هو براق جميل قوى في مخيلته هزيلا ضعيفاً على اللوح ولم تعد تفتنه التفاصيل بل راح يلاق منها البرح والضحيق والكرب . والواقع أنه أغفلها وأنشأ يتوخى في

الرسم الإجمال والإهمال والسرعة . وبدل أن تخرج يده صورة قوية واضحة للحياة ارتسمت على اللوح أتى فاترة ويتمناه بالألوان لا ينسجم عاينها هندام . ولم يكن ثم شيء فأتى أو مبتكر في مثل هذه الصورة الفاترة المكررة . إن هو إلا رسم تافه في فكرته وفي آدائه . فاكتأب يورى كالعادة .

ولولا أنه استحميا لأمر ما أن يبكي لبكى ولأنخنى وجهه في الوسادة وراح يعول . ولقد أحس الحاجة إلى أن يبث بعض الناس شكواه ولكن ليس من عجزه ووقصور باعه . على أنه لم يفعل ، بل جعل يرمى الصورة وتحسراً ذاهباً إلى أن الحياة على العموم ضنى وشجى وضعف وأنها خالية مما يلهه . وراعه أن يفكر في أنه سيكون عليه أن يقضى سنين عدة في هذه البادة الصغيرة .

وابترد جبينه كالتاج وهو يقول لنفسه :

« إن هذا هو الموت بعينه ! »

ثم اشتاق أن يصور « الموت » وأمسك سكيناً وشرع وهو محنق يكسب صورة « الحياة » وغاظه أن ما صنعه يمثل تلك الحياة يزول بمثل هذه الصعوبة . ولم يسهل عليه أن ينزع الألوان . ولقد أفاتمت السكين ومزقت اللوحة في موضعين ، ثم وجد أن الطباشير لا يخلف أثراً على ألوان الزيت فإلهه هذا ضيقاً .

ثم إنه شرع يعمل بالفرشة ويخطط موضوعه وجعل بعد ذلك يرسم في بطاء وقلة احتفال وبلا روح . غير أن عمله لم يخسر بذلك شيئاً بل أفاده هذا التثاقل والإهمال والأخذ بالألوان النضياء الراضحة . واختصت فكرته الأولى وذهب يصور « الشيخوخة » فجعلها عجوزاً هزيلة مبطرحة في طريق وعرة وقد غابت الشمس واحاولك السياء وارتجت طلال الصبا إن وانحنى كتتنا المرأة المجر وقتان تحت ثقل نعش أسود . وارتسدت على وجهها الكآبة والبأس وإحدى قدميها على حافة قبر مفتوح - صورة مرعبة للشقاء والحزاهة

وأرسلوا إليه يدعونه إلى الطعام ولكنه لم يذهب وظل يشتغل .

ثم جاءه نوفيكوف لبياعه أمراً ، غير أنه لم يصغ إليه ولا رد عليه .  
فتنهذ نوفيكوف وجاس .

وكان نوفيكوف يحب السكون وإجالة الفكر فيما مر به وما جاء به إلى  
يورى ، إلا أن الوحدة في بيته ترمضه .

وكان رفض ليذا أن تتزوجه لا يزال يحزنه ولم يكن يدري أحزن ما به  
ألم المذلة .

وكان رجلاً مستقيماً متبطلاً ، ولم يتصل به ما يتحدث به الناس عن ليذا  
وسارودين ولم يكن يحس الغيرة بل الأسف على حالم لم يكده يبيع له  
بالسعادة حتى انتسخ .

وخطر لنوفيكوف أنه أخفق في حياته ولكنه لم يفكر في اختصارها  
وإن كان البقاء عبثاً . بل على نقيض ذلك رأى من واجبه الآن وقد  
صارت حياته عبثاً له أن يقفها على الناس ، وأن ينحى سعادته ويطرحها  
جانباً . ونازعته نفسه لسبب لا يدريه أن ينقص يده من كل شيء في هذه  
البلدة وأن يمضى إلى بطرسبرج حيث يستطيع أن يجدد علاقته « بالحزن »  
وأن يهجم على الموت . وقام في نفسه أن هذه فكرة سامية نبيلة ولطف من  
حزنه علمه أن هذه فكرته . بل لقد شرحت صدره ، فضخم شأنه وعظم  
مقامه . في نظر نفسه ، وكأتما صار على مفرقه تاج من الذهب الوهاج .  
وكان موقف العتب الذي اتخذه خيال ليذا يدفعه إلى البكاء .

ثم أحس الملأل فجأة ايذب في نفسه وكان « يورى » ماضياً في التصوير  
لا يلقي إليه التفاتة .

فنهض نوفيكون متثاقلاً ودنا من الصورة ولم تكن قد تمت ، ولهذا كان لها وقع الصورة القوية .

وكان يورى قد بلغ حد طاقته فاعتدها نوفيكون آية وهو ينظر اليها وفيه مفتوح معجباً بالمصور إعجاب الطفل .

وتراجع يورى وقال : «مارأيك» .

وكان رأيه أنها أمتع صورة رأها وإن كان لاشك في أن فيها عيوباً بجلية كبيرة . ولم يكن يدرى لماذا كان هذا رأيه . ولو أن نوفيكون استخفها لخرجه ذلك وآلمه .

على أن نوفيكون قال هامساً فرحاً : « بديعة جداً » .

وأحس يورى كأنه عبقرى يستخف بعماله فتمهدورى الفرشة فلوثت طرف الخدع وانصرف عن اللوح درن أن ينظر اليه وقال مبتدئاً :

— « آه يا صديقتى ! » .

وهم بأن يعترف لنفسه ولنوفيكون بالشك الذى ينغص كل سرور بالنجاح إذ كان يحس أنه لن يستطيع أن يتم هذه البداية الحسنة ، غير أنه بعد التفكير لم يزد على أن قال :

— « كل هذا لا طائل تحته »

فظن نوفيكون أن صاحبه يتكلف ، وذكر ما لقيه هو من الخيبة المرة فحدث نفسه أن هذا صحيح .

ثم سأل بعد برهه :

— « ماذا تعنى بتوكل إن هذا لا طائل تحته ؟ »

ولم يستطيع يورى إن يجيب عن هذا جواباً دقيقةً فبهى صامتاً .

وعاد نوفيكون إلى الصورة يفحصها وحلس مرة ثانية ثم قال :

— « قرأت مقالك المنشور في جريدة « كراى » وأراه حار ! »

فأجاب يورى معضباً لغير سبب يعلمه وذكر كلام سمينوف :

— « إنى الشيطان بها ! أى خبر فيها ؟ انها لن تمنع الإعدام ولا السرقات

ولا العنف . وستظل هذه كما كانت . إن المقالات لا تجدى . ما خيرا بالله ؟ أن يقرأها اثنان أو ثلاثة من الباهلاء ؟ خير عظيم حقاً ! ! ومع ذلك فما شأنى أنا بهذا ؟ لماذا أنطح الجدار برأسى ؟ »  
ونسرت الذكري لعينى يورى مساعيه السياسية فى صدر أيامه ومثلث له الاجتاعات السرية والدعوة التى كان يعمل على اذاعتها وبثها ، والأخطار والإخفاق وحرارة حماسه وبلادته من كانت الرغبة تجمع به إلى إنقاذهم ، فجعل يروح ويجيء فى الغرفة مشيراً بيديه .  
فقال نوفيكوف :

« لا . إداً ليس أنتم ما يستحق من المرء أن يفعل شيئاً فى سبيله » .  
وذكر سائين : أضاف إلى ذلك :  
— « أنانيون ! هذا أنتم جميعاً ! »  
فأجاب يورى بحدة وقد تأثر بذكريات ماضيه وبالغسق الذى أحال لون كل شىء فى الغرفة :

— « كلا ليس هذا كذلك ، إذا ذكرنا الإنسانية فأى خير فى كل جهودنا المبذولة فى سبيل الدساتير أو الثورات ، إذا كان المرء يعجز عن تقدير ما تحتاج إليه الإنسانية حتى على وجه التقريب ؟ وما يدرينا ؟ لعل فى هذه الحرية التى نعلم بها جرثومة الانحطاط فى المستقبل ولعل الإنسان بعد أن يتحقق مثله الأعلى يكرر راجعاً القهقرى ويمشى على أربع . وهكذا يكون علينا أن نبدأ كل شىء من جديد . وهبنى لا أكثرث إلا لنفسى فماذا إذاً ؟ ماذا أستفيد بذلك ؟ إن أقصى ما يبلغنى إياه طوقى هو أن أنال الشهرة بمواهبى وأعمالى ، وأن يسكرنى احترام من هم دونى أى احترام من لا أحترمهم ، ومن ينبغى أن يكون احترامهم لا قيمة له عندى . ثم ماذا ؟ أظل عائتاً — عائساً إلى أن أبلغ القبر — ثم لا شىء بعد ذلك ! ويعتدل إكامل العار على حممجتى ، ويبلغ من فرط إحكام لفه عليها أى لا ألبث أن أحس منه الضيق والكرب ! »



قال نوفيكيوف متحكماً ولم يسمعه يورى لفرط سروره بفصاحته :  
 — « نفسه أبدأ ! »

وكان اكلامه سهوم للذيد فى نظره، وكان ما يقوله يشرفه ويزيد  
 فى احترامه لنفسه وعاد فقال :

— « وشر ما فى الأمر أن أصير عبقرياً يسىء الناس الحكيم عليه —  
 حالاً مضحكاً ، ومدارا للأقاصيص الفكاهية، وشخصاً سخيفاً لا خير  
 فيه لأحد . »

أفصاح نوفيكيوف وهو ينهض :

— « آها ، لا خير فيك لأحد ؟ أو تقر بهذا إذا ؟ »

فقال يورى :

— « تالله ما أسخفك ! أو تظن أنى لا أعرف ماذا ينبغى أن أحياه  
 وبم أو من ؟ من المحتمل أن أقبل بسرور أن أصلب إذا اعتقدت أن  
 موتى ينقذ العالم ويخلصه . ولكنى لا أعتقد هذا . ومهما يكن ما أصنع  
 فلن يغير من مجرى التاريخ . أضف إلى ذلك أن معونتى من الهوان والضلالة  
 بحيث لا يخسر العالم شيئاً لو أنى لم أكن . بيد أنى — من أجل هذه الذرة  
 من المعونة — مكره أن أعيش وأن أتعذب وأن أنتظر الموت فى حزن ! »  
 ولم يلاحظ يورى أنه اندفع يتكلم فى أمر آخر. وأنه لا يرد على  
 نوفيكيوف بل على هواجسه الغريبة المحزنة .

ثم ذكر سمينوف فجاء فسكت وسرت فى ظهره رعدة باردة وقال  
 بصوت منخفض وهو ينظر إلى النافذة المظلمة :

— « الحقيقة أنى أخشى المحتوم . وأنى لأعلم أن هذا طبيعى . وأنه  
 لا يسعنى أن أفر منه . ولكنه على هذا رهيب — مهول »

فقال نوفيكونوف وإن كان قد هاله صدق هذا الكلام :

— « إن الموت ظاهرة فسيولوجية لازمة » .

فقال يورى لنفسه :

— « ياله من خرف ! »

ثم صاح بنوفيكونوف وهو مغضب :

— « ماذا يهم إذا كان موتنا لازماً لغيرنا أو غير لازم ؟ »

فقال نوفيكونوف : « وما قولك فى رضاك أن تصلب ؟ »

فأجاب يورى ببعض التردد .

— « هذا شيء آخر » .

فقال نوفيكونوف بلهجة فيها بعض التعالى :

— « إنك تناقض نفسك » .

وتضايق يورى ودفع أصابعه فى شعره الأسود المضطرب وقال بحدة :

— « لاني لا أنقض نفسى أبداً ! إذ من المعقول أنى إذا شئت أن أموت

بمحض إرادتى الحرة . . . »

فقاطعه نوفيكونوف معانداً وبنفس اللهجة :

— « كل هذا سواء . وأنتم جميعاً تطلبون السهام النارية والتصفيق

وما إلى ذلك . وليس هذا إلا أنانية ! »

قال يورى : « ههها كذلك ! إن هذا لا يغير المسألة » .

وصارت المناقشة محتاطة . وأحس يورى أنه لم يرد أن يقول هذا

ولكن الخيط أفلت منه بعد أن كان محمراً واضحاً ممتداً منذ برهنة فيجعل

يقطع الغرفة رانحاً جائئاً . معالجاً أن يغالب غيظه وهو يقول لنفسه :

« إن المرء أحياناً ينقصه المزاج المناسب . وأحياناً أخرى يتكلم بجلاء  
كأتما الألفاظ مخطوطة أمام عينيه . وأنا أحياناً أكون كالمجم فلا أحسن  
العجالة عما في نفسي - نعم هذا كثيراً ما يقع » .

وصمت كلاهما ، ثم وقف يورى بجانب النافذة وتناول قبعته وقال :  
- « دعنا نتمشى »

أجاب : « حسن جداً »

ووافق نوفيكوف وفي مأمو له أن يلاقى ليذا وسره أمله وأحزنه في آن .

( ٩ )

ذهب يورى ونوفيكوف يتمشيان في الميدان ولم يقابلا أحداً يعرفانه  
فأخذوا يستمعان إلى فرقة الموسيقى التي كانت تعزف كالعادة في الحديقة  
وكان عزفها ضعيفاً وألحانها خشنة متنافرة .

ولكن صرتها كان شجيا هافيا عن بعد . ولم يريا إلا رجلا ونساء يمازحون  
ويضحكون ، وكانت ضوءاء سرورهم لا تناسب الموسيقى الحزينة والليل  
المتجهم فأمض ذلك يورى .

وانضم اليهما سائين في آخر الميدان وحياهما مختلفا وكان يورى لا يحبه  
ففقر الحديث .

وراح سائين يضحك من كل مخاوف تقع عليه عينه .

ثم فاباوا إيغانوف فمضى معه سائين .

وسأها نوفيكوف

- « أن تذهبان ؟ »

فقال إيغانوف :

— « أريد أن أشارك صديقي »

وأخرج زجاجة « فودكا » لوح لها بها مباحيا .  
فضحك سانين .

وذهب يورى يعد هذا الضحك والفودكا فى الحضيض الأوهده من عامية  
النفس وخشونتها ولوى وجهه عنهما مسمئزا .

ولاحظ سانين ذلك منه ولكنه لم يقل شيئاً .

ولكن إيفانوف قال متهمًا :

« أحمدهم اللهم إذ لم تجعلنى كغيرى من الناس ! » .

فاحمر وجه يورى وقال لنفسه :

— « ونكتة مبتدلة أيضاً تضاف إلى سابقها ! » .

وهز كتفيه استخفاً وانصرف .

وقال إيفانوف :

— « نوفيكوف ! أيها الفريسي الغرير تعال معنا ! » .

فسأله — « لماذا ؟ » .

فرد عليه — « لنشرب » .

فأدار نوفيكوف عينه فى المكان متحسراً، ولكن ليدالم يكن لها أثر .

فضحك سانين وصاح به : « إن ليدا فى البيت تكفر عن دنوبها ! » .

فقال نوفيكوف مغضباً :

— « ما هذه السخافة ؟ إن على أن أعود مريضاً ... » .

فأجاب سانين :

— « نستطيع أن نسير بدون مساعدتك ! ونحن نستطيع أن نشرب

الفودكا بدون معونتك أيضاً » .

فقال نوفيكوف لنفسه « ولنفرض أنى سكرت ! » .

ثم التفت إليهم وقال :

- « حسن . سأذهب معكما » .

وكان يورى يسمع عن بعد صوت إيفانوف الضخم الحشن وضحكة سائين الجلدة المستخفة فعاد يتمشى فى الميدان وأهابت به ظلمة الليل أصوات فتيات ندية .

وكانت سينا كارسافينا ودوبوفا المدرسة جالستين على مقعد وهما فى ثياب قاتمة ، ورأسهما عاربان ، وفى أيديهما كتب يحملانها ، ولم يكن يسهل أن يراهما المرء فى الظلام .

فأسرع يورى ولحق بهما وسألها :

- « أين كنتم ؟ »

فقالت سينا :

- « فى المكتبة » .

وتحركت رفيقتها دون أن تتكلم لتففسح مكانا ليورى .

وكان يود لو جلس بجانب سينا ولكنه نلجأه لجلس إلى جانب دوبوفا المدرسة الدميمة .

وسألته دوبوفا :

- « ما لوجهك فيه كل آيات التعاسة ؟ » .

وضممت شففتيها الجافتين كما هى عادتها .

فرد عليها : - « ماذا يحملك على الظن بأنى تعس ؟ إنى على العكس

منسرح الصدر . وربما كنت سأمان فليلا » .

فقالت دوبوفا :

- « إن علة مسلكك أن لاعمل لك » .

- قال - « أو لديك أعمال كثيرة إذآ ؟ » .
- قالت - « مهها يكن من الأمر فليس عندى وقت للبكاء » .
- قال - « أتريننى أبكى ؟ » .
- فقالت دوبوفا مكايده : - « إن بك نوبة سهوم » .
- قال يورى : بلهجة فيها من المرارة ما ألزمهم الصمت ،
- « إن حياتى أنستنى الضحك كيف يكون » .
- ثم عاد إلى الكلام بعد فترة .
- « لقد أخبرنى صديق لى أن فى حياتى عبرة كبيرة » .
- وإن كان لم يقل له أحد مثل هذا الكلام .
- فسألته سينا بخدر :
- « كيف ؟ » .
- أجاب يورى : « هى مثال يريك كيف لا يعيش المرء » :
- فقالت دوبوفا :

- « حدثنا عنها بالله لعلنا نستفيد من الدرس »

وكان يورى يرى أن حياته إخفاق مطلق وأنه هو أنعس الناس وأشقاهم .  
وفى هذا الاعتقاد نوع من السلوى الشجية فكان يلذ له أن يبث الناس  
شكاته من حياته ومن الناس على العموم . ولم يكن يحدث الرجال بشيء  
من هذا ، إذ كان يشعر بغريزته أنهم لن يصدقوه . أما النساء - لا سيما  
الشواب الحميلات منهن - فكان على آتم استعداد للإسهاب معهن فى  
تحديثهن عن نفسه .

وكان يورى وسيا محادثا ، ولم يعلم فظ من النساء العطف عليه  
والمرثية له .

فشرع يحدثهما متفكها فى أول الأدر ، غير أنه لم يلبث أن عاودنه

نغمته المألوفة فأطال في الكلام في نفسه ويظهر مما قال أنه رجل ذو مواهب عظيمة سحقتها قوة الظروف ، وأساء فهمها حزبه وقضى عليه نحس الطالع وحفاة الناس ألا يكون أكثر من طالب منفي لا زعيم أمة .

وكان يورى ككل الراضين عن أنفسهم لا يستطيع أن يدرك أن هذا ليس من شأنه أن يثبت عظم مواهبه ، وأن ذوى العبقرية يلتفت بهم مثل رفقاءه وتعترض سببهم مثل هذه الكوارث والمصائب ، ولكنه كان يتوهم أنه هو وحده فريسة قدر لا يرحم .

ولما كان محدثا بارعاً وكان في كلامه قوة وحياء فإن ما يقوله كان يكتسب رنة الصديق ، فتصدقه الفتيات ويعطفن عايه . ويساطرنه الأسى لما نزل به .

وكانت الفرقة لا تزال تعزف ألحانها الحزينة المتنافرة والليل حالك ثقل الطل فاكتأبوا جميعاً . ولما كف يورى عن الكلام سأله دوبرفا وهي تفكر في حياتها المعاة الفاترة وصباها البائد قبل أن تدرى ما الطرب أو الحب :

— « قل لى يا يورى ؟ ألم تخطر لك فكرة الانتحار ؟ » .

أجاب : — « لماذا تسألينى هذا ؟ » .

قالت : — « لا أدرى لماذا ؟ » .

وصمتوا جميعاً .

ثم سأله سينا بشىء من التلهف :

— « إيلك عضو فى اللجنة . أليس كذلك ؟ » .

فأوجز يورى فى الجواب مجتزئاً « بنعم » .

كأنه يريد أن يعترف بهذه الحقيقة ولكنه فى الواقع سره أن يعترف

لأنه ظن ذلك يزيد اهتمام الفتاة به .

ثم رافقهما إلى بيتهما وجعلوا يضحكون جميعاً ويتحدثون كثيراً طول الطريق ، وانتشعت عنهم سحابة الكآبة .

ولما انصرف يورى قالت سينا :

— « ما أطفه » .

فهزت دوبروفا أصبعها متوعدة .

— « حاذرى أن تقعى فى حبه » .

فقالت سينا : « أى خاطر هذا ؟ » .

وضحكت وإن كان الخوف قد خامرها .

ووصل يورى إلى بيته وهو أكثر انشراحاً وأعظم أهلاً ، وذهب إلى الصورة التى كان قد بدأها وجعل يتأملها فلم يجد لها فى نفسه وقعاً ما ، فاستلتي ونام راضياً مطمئناً ، وبدت له فى أحلامه نساء جميلات متأنقات مغريات .

( ١٠ )

وفى الليلة التالية عاد يورى إلى نفس المكان الذى التقى فيه سينا وزميلتها وكان نهاره كله يفكر مسروراً فيما جرى له معهما من الحديث فى الليلة السابقة .

فراح يرجو أن يلقاهما مرة أخرى وأن يحدثهما كما فعل ، وأن يرى فى عيني سينا الرقيقتين نظرة العطف والحنو التى أنس بها فى ليلته تلك .

وكان المساء ساكناً والجو دافئاً والأثرية الخفيفة تائرة ، والميدان خالياً إلا من واحد أو اثنين من السابلة .

فسار يورى وعيناه إلى الأرض ، وجعل يخاطب نفسه قائلاً :

— « ما أشد ملالى . ماذا أصنع ؟ »



وإنه كذلك وإذا بشافروف الطالب يغذ السير ويطرح بذراعيه ثم دنا منه  
وعلى وجهه ابتسامة الودود وسأله :

« مالك تمشى وثيدا ؟ »

فقال يورى بلهجة فاترة فيها شيء من التعالى :

— « لقد كاد يقتلنى الملل ولا أدرى ماذا أصنع . وإلى أين ؟ »

وكان لا يكلم شافروف إلا بهذه اللهجة لأنه عضو سابق فى اللجنة الثورية أما  
شافروف فما هو فى نظره إلا فى ثورى حديث العهد . فابتسم شافروف ابتسامة

الرضى عن النفس وقال :

« ستلقى اليوم محاضرة »

وأشار إلى حزمة من الرسائل مطوية فى ملف ملون .

فتناول يورى إحداها وفتحها وقرأ المقدمة الطويلة الخافة لخطبة

اشتراكية مشهورة كان يعرفها ثم نسبها الآن .

فسأله يورى — « وأين تلقى هذه المحاضرة ؟ »

ورد إليه الرسالة وعلى فيه ابتسامة الاستخفاف .

أجاب شافروف :

فى « المدرسة »

وكانت هى عين المدرسة التى تدرس فيها سينا كرسافينا ودوبوفا .

فذكر يورى أن أخته لياليا حدثته مرة عن هذه المحاضرات ولكنه لم

يجعل باله إليها ، فسأله . « أسمح لى أن أرافقك ؟ »

أجاب « بلاشك »

وأظهر السرور بهذا الاقتراح وكان يعد يورى مهيجا صميا ويبالغ فى

تقدير كفاءته السياسة ويكبره ويحبه .

وأحس يورى أن لا بد له من أن يقول :

— « إنى عظيم الاهتمام بهذه الشئون »

وسره أن عرف كيف يقضى ليلته وأنه سيلاقى سينا مرة أخرى

فقال شافروف : « نعم تهتم بلاريب »

أجاب : « إذن فلنمض »

وسارا مسرعين في الميدان واجتازا الجسر ، وصافحهما من جانبيه الهواء الليلي ولم يلبثا أن بلغا المدرسة حيث كان الناس قد اجتمعوا . وكانت القاعة مظلمة وقد صفت فيها المقاعد والأدراج وبدا القماش الأبيض المعاد للمصباح السحري . وكان المرء يسمع أصوات الضحك المكتوم . ووقفت لياليا ودوبوفا عند النافذة ومنها كان الناظر يستطيع أن يرى أغصان الأشجار الخضراء وعليها من الطلام جهامته ، فحيثما يورى فرحين وقالت لياليا :

— « ما أعظم سرورى بحضورك ! »

وهزت دوبوفا يده بشدة .

فقال يورى مستفهما وأدار لحظه فيمن حوله لعله يرى شيئا :

— « لماذا لا تبدأون ؟ »

ثم قال وفي صوته دايبل صريح على خيبة أمله :

— « أرى سينا لا تحضر هذه المحاضرات »

وأشعل بعضهم في هذه اللحظة عود كبريت قريباً من منضدة المحاضر ، فبدت في نوره قسيات سينا وأصاء محياها النضير الجميل وكانت تتسم في سرور ، فقالت وانحن ليورى ومدت إليه راحتها . . . .

— « ألا تحضر هذه المحاضرات ؟ »

فصافحها مسروراً دون أن يتكلم .

واتكأت بنى قايلا ووثبت إلى جانبه فأحس نتمسها العذب المنعش على خده وجاءت سافروف من الغرفة المجاورة وقال :

— « قد آن أن نبدأ »

فسار الخادم بخطى تقبلية طائماً بالعمرة ، ودوقدا مصابيحها واحدا بعد واحد فتابع في الحجرة نورها

وفتح سافروف الباب المؤدى إلى المدر وقال بصوت عال :

— « تفضوا من هنا » .

فدخل الناس وكان بهم في أول الأمر بعض الحياء ثم ماعتموا أن حثوا  
الخطي في جابة وضوضاء .

وجعل يورى يفحص وجوههم ولما كان من مروجى الدعوة السياسية  
فقد تحركت نفسه واشتد اهتمامه .

ودخل الحجره شيوخ وشبان وأطفال لم يجلس منهم أحد في الصف الأول  
فشغلته سبع سيدات لا يعرفهن يورى وإلى جانبهن مفتش المدارس واساتذة  
المدارس الابتدائية للبنين والبنات وعلماؤها وغصت بقية القاعة بلاسى  
الجلاليب والمعاطف الطويلة وبالحدود والملاحين والنساء ربكثير من الأطفال  
في قمصان ملونة عليها جاكتمات واسعة .

رجلس يورى بجانب سينا إلى درج وأصغى إلى شافروف وهو يتلو في  
سكون — أبدأ نلاوة — خطانا موضوعه حق الانتخاب العام .

وكان صوته جافا مملا فما قرأ شيئاً إلا خيل إلى سامعه أنه قائمة احصاءات .  
ولكن الناس أنصتوا مع هذا ما خلا المتعلمين الجاسين في الصف الأول .  
فسرعان ماقلقوا وراحوا يتهاسون .

فساء يورى هذا منهم وأدركه العطف على شافروف والأسف ارداءه القائه  
وكان هذا قد بدا عايه التعب فقال يورى لسيا :  
« ماقولك في أن أنوب عنه ؟ » .

فرمته بنطره رقيقة من تحت أهدابها المرسله . وقالت :

— « نعم . نعم افعال ذلك . بودى لو فعلت » .

فهمس في أذنها مبتسما لها كأنما كانت شريكته :

— « أترين في هذا ضيراً ؟ » .

فغالت : « صير ؟ كلا ، كلما حقيقون أن نغتمبط » .

وسنحت فترة فعرضت ذلك على شافروف وكان قد نال منه التعب ولم

يكن يغيب عنه سوء الغائه فقبل مسرورا وأخلى مكانه ليورى وقال :

— « بلاسناك . حبياً وكرامة » .

وكان يورى، ولعاً بالاتقاء يحسنه ويحمده فتقدم إلى المنضدة دون أن ينظر إلى أحد وشرع يتلو بقية المحاضرة بصوت عال متزن .

وسدد لحظه إلى سينا مرتين . والتفت عينه في كل مهما بعينها المتألقة الفصيحة . فابتسم لها مسرورا مرتبكا ثم رجع إلى كتابه واستأنف القراءة بصوت أعلى وأقوى وكان كأنما يباشر عملا ليس أسمى منه ولا أمتع ولما فرغ صفق له الجالسون في الصفوف الأولى فانحنى لهم يورى في أدب ووقار وانصرف عن المنضدة وهو يبتسم لسينا كأنما يريد أن يقول لها : « لقد فعلت هذا من أجلك » وتهاشم الناس قايلا ثم تجاوزت الحجرة بضوء الكراسى لما دفعها الجالسون عايبا إلى الوراء وهم ينهضون عنها .

وفلم يورى إلى سيدتين هنا تاه بحسن القائه .

ثم أطفئت المصابيح وعادت الغرفة مظلمة .

وقال شافروف وهو يهز كف يورى بحرارة :

— « أشكرك كثيرا . ربودى لو أن لنا دائما من يلقي مثلك » .

وكانت المحاضرة شغل سافروف فأكبر صنيع يورى وطوق نفسه بفضاه كأنما كان أحسن إليه في أمر يخصه وإن كان كان قد جعل شكره باسم الشعب . وألح سافروف في ذكر « الشعب » وجعل يؤكد لعظه ويتمول كأنما يودع يورى سرا خطيرا :

— « إنهم لا يصعرون هنا شيئا للشعب فإذا هم فعوا فبدون اكبرات أو احتفال . وغريب أمرهم ! يأتون بطائفة مخزرة من خير المستأين والمغنين والمحاضرين ليتلهم بهم المتطوعون من السادات . فأما الشعب فهمي محاضر متلى الكفاية . كل امرء راض ، فماذا يطامون فوق هذا ؟ » .

واقتر ثغره سروراً بنهكمه الرقيق .

فقالت دوبروفا :

— « هذا صحيح . والصحف تفرد أعمدة برمتها للممثلين ولأعمالهم العجيبة . إن هذا مثير حقاً . أما هنا ... » .

فقال شافروف باقتناع وهو يجمع أوراقه :

« ولكن ما أصلح عملنا وأنفعه ؟ » .

فقال يورى لنفسه :

« يالها من حرارة كغرامة الأطفال ؟ » .

ولكن وجود سينا وما وفق إليه هو من النجاح جنحاً به إلى التسامح . والواقع أن بساطة شافروف وسداجته وقعا من نفسه وأشعراه بعض العطف عليه .

ولما صاروا في الشارع سألتهم دوبروفا :

— « والآن أين نذهب ؟ » .

وكان الظلام في الشارع مثله في الحجرة ولم يكن في السماء إلا بضعة نجوم مضيئة .

وقالت دوبروفا ليورى :

— « أنا وسافروف ذاهبان إلى أسرة راتوف فهل لك أن ترافق سينا إلى

المنزل ؟ » .

أجاب : — « بسرور » .

وكانت سينا ودوبروفا يسكنان بيتاً واحداً قائماً وسط حديقة كبيرة مجذبة

المنظر .

وكان حديث سينا ويورى أثناء رواجهما دائراً حول المحاضرة ووقعها

في نفوس السامعين .

فزاد اقتناع يورى بأنه أتى عظيماً وفعل شيئاً مجيداً .

ولما بلغا البيت قالت سينا :

— « هل لك أن تمكث معي برهة ؟ » .

فقبل يورى مسروراً وفتحت الباب واجتازا الفناء المعشوشب وكانت الحديقة تلوّه . فقالت سينا ضاحكة :

— « اسبقني إلى الحديقة . ولقد كان بودى أن أدخلك المسكن ولكنه ليس على ما ينبغي من النظافة والنظام فإني لم أعد منذ زيلته في الصباح » .

ودخلت البيت ومضى يورى متريناً إلى الحديقة الخضراء الأرجة ولم يوجل فيها بل وقف يلتفت في أرجائها ويحدق في نوافذ البيت المظلمة كأنما قام بنفسه أن شيئاً يجري هناك — شيئاً غريباً جميلاً غير مفهوم — وبرزت سينا إلى عتبة الباب ولكن يورى لم يكده يعرفها وكانت قد نضت ثوبها الأسود وارتدت ثوب « الروسية الفتاة » وهو صدرية إلى الخصر قصيرة الأكام ينسدل من تحتها إلى الساقين قميص أزرق فقالت باسمه :

— « هذا أنا » .

فأجابها يورى رفى صوته نبرة توكيد لا يقدرها غيرها :

— « وكذلك أراك » .

فابتسمت ثانياً ونحى عنها عنقه وهما يسيران بين الحشائش الطويلة وأغصان اليبلاج . وكانت الأشجار صغيرة وأكثرها أشجار توت لأورافها الصغيرة رائحة الصمغ . ومما يلي الحديقة مرج متفتحة فيه الأزاهير بين الحشائش .

فقالت سينا :

— « دعنا نجاس هنا » .

فجلسا إلى جانب السور المتداعى وجعلا يتأملان الشفق الزائل من وراء المرج ، وتناول يورى عود ليلاج صغير فتساقطت عنه الأنداء .

وسألته سينا : « هل أغنيك ؟ » .

أجاب : « نعم غنى ! » .

فأصعدت سينا نفساً عميقاً كما فعلت ليلة الزهرة وبرزت معالم صدرها  
البديع تحت صدريتها الرقيقة وهي تغنيه :

« آه يا نجم الحب الوضىء »

وسبحت ألحانها النقية الحارة فى جو المساء .

وظل يورى جامداً يرمقها ويحبس أنفاسه أن تطغى بصدرة .  
وأحست هى أنها قيد لحظه فأغمضت عينها وانطلقت تغنى أعذب غناء  
وأحره .

وكان السكون شاملاً محيطاً كأن كل شىء يصغى ، وهى فى خاطر  
يورى سكون الغابات الرهيب فى الربيع إذا ما غرد بلبل .  
وكانت خاتمة غنائها نغمة صافية عالية غادرت السكون أتم وأشد .  
ركان الشفق قد زال وأمست السماء حائلة مهولة وارتعشت الأوراق  
والحشائش من حيث لا تراها عين ، وهب على المرج وجاز الحديقة نسيم  
لرج خفيف كالزفرة .

فأدارت سينا عينها المتألمتين فى الظلام إلى يورى وقالت :

« مالك صامتاً ؟ » .

أجاب : « ما أجمل هذا المكان » .

وتناول عود ليلاج ندى آخر .

فقالت سينا بهيئة الحالم : « نعم إنه جميل » .

فقال يورى :

— « جميل جداً أن يعيش المرء » .

وطاف برأسه خاطر غامض مقلق واكنه لم يابث أن زال قبل أن يستبين ويتضح .

وصفر بعضهم صفرتين عاليتين على الناحية الأخرى من المرج .  
ثم سكنت كل نائمة فقالت سينا فجأة وقد سرها على ما يظهر هذا السؤال الذى لم يكن من داع له :  
— « أتحب شافروف ؟ » .

فأحس يورى ألم الغيرة لحظة واكنه أجاب بتؤدة بعد جهد لطيف :  
— « إنه رجل طيب » .  
فقالت : « ما أعظم انقطاعه لعمله » .  
فسكت يورى وتصاعد من المرج ضباب رقيق أشهب وحال لون الحشائش تحت الندى .

وقالت سينا وهى ترتجف قليلا :  
— « لقد اشتدت الرطوبة » .  
فنظر يورى إلى كتفيها الرقيقتين المستديرتين واضطرب فجأة .  
وأحست هى بنظرته فسرت إليها عدوى الاضطراب وإن كان قد سرها ما لاحظت وقالت :  
— « لنقم من هنا » .

وعادا أدراجهما آسفين وقطعا ممشى الحديقة الضيق وكانا يتكبان أحيانا وهما سائران : وكل ما حولها مظلم مهجور . وخيل إلى يورى أن ستبدأ حياة الحديقة الآن — حياة مستسرة مجهولة — وأن ستتلسل بين الأشجار وترتمى على الحشائش المثقاة بالأنداء ظلال غريبة حتى احلوك الظلام، وأن أصواتاً ستهامس فى المخضر الساكن من أرجائها .  
وأفضى إلى سينا هذا الخاطر فشخصت بعينيها السوداوين إلى الظلام



وهي تفكر وقام في نفس يورى أن « سينا » لو نضت عن جسمها كل أرويتها وانطلقت تعدو على الحسائش المطلوثة إلى حيث تتكاثف الأشجار - وهي عارية بيضاء بجدلة - لما كان في هذا شيء من الغرابة . بل أخلق به أن يكون أمراً طبيعياً حسن الوقع . وليس من شأن هذا الحادث - إذا وقع - أن يززع حياة الحقيقة الخضراء المظلمة ولعها تستوفى به حاجتها ونازعتة نفسه أن يسر إليها بهذا الخاطر ولكن شجاعته نخائته فتحدث إليها عن المحاضرات والشعب ولكن الحديث كان مقطوع الأوصال ثم كفا عن الكلام كأنما ضنا بالألفاظ أن يسوقاها عبثاً .

وهكذا وصلا إلى الباب وهما صاهتان باسيان ينفضان باكتافهما الندى عن الأغصان .

وكان كل شيء ساكناً مفكراً سعيداً مثلهما .

وكان الفناء مظالمًا مهجوراً كما ألقيا من قبل . ولكن الباب الخارجى كان مفتوحاً وتأدى إليهما من البيت وقع أقدام مسرعة وصوت أدراج تفتح وتقفل فقالت سينا :

- « لقد عادت أولجا » .

وسألت دوبروفا من البيت :

- « سينا ! أهذا أنت ؟؟ » .

وكان في نبرة صوتها ما يشعر بوقوع أمر سيء وبرزت إلى الباب مضطربة حائلة اللون . وقالت وأنفاسها منبهرة :

- « أين كنت ؟ لقد كنت أبحث عنك . إن سمينوف يموت ! » .

فصاحت سيدا فزعة :

- « ماذا تتولين ؟ » .

أجابت : « نعم يموت . فقد انفجر أحد أوعية الدم . ويقول أنا تول بافلوفتش أنه مقضى عليه . وقد حملوه إلى المستشفى . وكان كل ذلك بسرعة مرعبة . فقد كنا في بيت راتوف نشرب الشاي وكان المسكين جدلاً يجادل نوفيكوف في كل مسألة . ثم أخذ السعال فجأة فنهض وتطرح ونفث الدم على كساء المائدة وفي طبق المرابي ... والدم أسود سائل » .

فسألها يورى باهتام ساهم :

« وهل هو يعرف ذلك ؟ » .

وذكر الليلة القمراء والظل الخالك والصوت الضعيف المتقطع يقول له « ستكون حياً وتمر بقبرى وتقف عليه وأنا . . . » .

فقال دوبروفا وعلى يديها حركة عصبية :

— « نعم يظهر أنه يعرف . فقد دارت بنا عينه وسألنا « ما هذا ؟ » ثم أخذته الرعدة من فرعه إلى قدمه وقال : « أو قد قضى الأمر ؟ . أليس هذا فظيماً ؟ » .

فقال يورى : — « هذا أهول مما يطاق ! » ٥

وصمتوا جميعاً .

وكان الظلام الآن حالكأ . ومع أن السماء صافية فقد توهموا فيها الكآبة والحزن .

ثم قال يورى ووجهه أصفر :

— « الموت شيء فظيع » .

فتنهت دوبروفا ونظرت إلى الفضاء . وارتعشت ذقن سينيا وابتسمت وهى لا تملك غير ذلك ولم تستطع أن تحس ما أحساه من الهول . وهى غادة فى عنقوان الصبا يجول فى عودها ماء الحياة الدافق ولايسعها أن تحصر

خواطرها في الموت . ولم يكن مما يصدقة خيالها أو يقوى على تصوره أن يتعذب أحد ويموت في ليلة صيفية جميلة وضيئة كهذه . نعم إن الموت طبيعي لا شك فيه ، ولكنه لسبب ما خطأ . وأنجلها هذا الإحساس فعلمت أن تنميه وأن تظهر على قسما وجهها دلائل العطف . وراحت بفضل هذا الجهد وهي أظهر أسي من صاحبها وسألت :

— « مسكين ! أهو حقيقة . . . ؟ » .

وكانت تريد أن تسأل « هل سيموت عاجلاً ؟ » .

ولكن الألفاظ وقفت في حلقتها .

وجعلت تلقى على دوبروفا أسئلة فارغة مفككة .

فقالت دوبروفا بصوت فاطر :

— « إن أنا تول بافاوفتش يقول إنه سيموت الليلة أو غداً صباحاً » .

فهمست سينا :

« أولاً نذهب إليه ؟ أم تريان أن البقاء خير ؟ لا أدري ! » .

وكان هذا السؤال يدور في أذهانهم جميعاً — أينذهبون ويشهدون سمينوف وهو يقضى نحبه؟ أيكون هذا خطأ منهم أم صواباً — ورجبوا جميعاً في الذهاب ولكنهم أشفقوا مما عسى أن يشهدوا .

فهز يورى كتفيه وقال :

« فلنذهب . ومن المحتمل جداً أن لا يأذنوا لنا وربما . . »

فأضافت دوبروفا كأنما ارتفع عن كاهلها عبء :

— « ربما طاب سمينوف أن يرى بعضهم على الخصوص »

فقالت سينا بلهجة باثة :

— « تعالوا بنا ! سنذهب »

وقلت دويوفا وكأنها تريد أن تسوخ الأمر لنفسها :

— « إن شافروف ونوفيكوف هناك » .

وعدت سينا إلى البيت لتعود بقبعتها ومعطفها ثم مضوا جميعاً في وجوم محترقين الباردة إلى البناء الضخم الأشهب ذي الأدوار الثلاثة أى المستشفى الذى كان سمينوف يجود فيه بأنفاسه .

وكانت الممرات الطويلة ذات الأقبية مظلمة تتصاعد منها رائحة اليودوفرم والكاربولياك .

ومروا فى طريقهم بقسم المجانين فسك أسباعهم صوت ناثر أجش ، ولكنهم لم يروا أحداً ففرعوا وحشوا الحطى إلى نافذة صغيرة معتمة .

وجاء إليهم فلاح هرم شائب الرأس والاحية وعلى صدره « فوطه » كبيرة وقدماه فى حذائين عاليين ضخمين يدب بهما على الأرض . فسألهم ووقف :

— « من تريدون أن تعودوا ؟ » :

فقالت دويوفا متلجلجة :

— « جئنا بطالب إلى هنا — سمينوف — اليوم ! » :

فقال الخادم :

— « رقم ٦ فى الدور الثانى » .

وتركهم وسمعوه يتمخبط ويصق على الأرض ثم يدهس البصاق

بقدمه .

وكان الدور الثانى أضواً وأنظف ولم تكن بالسقف عقود ورأوا باباً مفتوحاً مكتوباً عليه « حجرة الطبيب » ولحوا فيها مصباحاً يضيئها وسمعوا أصوات الزجاجات والأكواب .

فأدخل يورى رأسه وفادى من فيها فانقطعت الأصوات .  
وظهر ريزانترزيف نظير الوجه مسروراً كعادته وقال بصوت طروب  
إذا كان قد ألف هذه الحوادث التي أحزنت زائريه :

— « آه إن دورى اليوم . كيف أنتم سيداتى ؟ » :

ثم قَطب فجأة وقال بلهجة جادة كبيرة الدلالة :

— « إنه لا يزال غائباً عن رشده على ما يظهر . فلنذهب إليه إن نوفيكوف  
وغيره هناك » .

وساروا واحداً وراء الآخر فى الممر الضيق النظيف وإلى يمينهم ويسارهم  
أبواب بيضاء عليها أرقام سوداء وقال ريزانترزيف :

— « لقد أرسلنا فى طلب القسيس : ما أسرع ما جاءت الخاتمة ! إنى مستغرب !  
ولكنه أصيب ببرد كما تعلمون وهذا هو الذى قضى عليه . هذه هى الغرفة » .

وفتح ريزانترزيف باباً أبيض ودخل منه وتبعه الآخرون يتصامدون على  
العتبة .

وكانت الغرفة نظيفة رحيبة . وفيها أربعة أسرة خالية وعلى كل منها  
غطاؤه الخشن مطويًا يحضر فى اللذهن صورة النعش . وفى السرير الخامس  
رجل هرم ضئيل الجسم جاف العود جالس يلحظ الداخلين وعلى السرير  
السادس سمينوف وفوقه غطاء خشن كذلك . وإلى جانبه نوفيكوف  
منحنياً إليه . على حين كان إيفانوف وشافروف واقفين عند النافذة .

وكانوا كلهم يرون من الأمور الغريبة المؤلمة أن يتصافحوا فى حضرة  
رجل يموت وربكم أن لا يفعلوا كأن فى ترك المصافحة إشارة إلى أن المنتهى  
قريب . فسلم البعض وامتنع الآخرون ووقفوا جميعاً يرمقون سمينوف  
بعيون مستفسرة

وكان يتنفس ببطء وجهده . وما أبعداه عن سمينوف الذى يعرفونه ،  
والواقع أنه لم يكن كالأحياء . وقد ظلت معارفه وأوصاله ولكنها صارت  
متصلبة مشدودة فظيعة المنظر . وكان ذلك الذى يصب الحياة والحركة فى  
أجسام الآدميين غيره لم يعد له وجود . وكان أمراً مرعباً يجرى بسرعة  
وتحكم فى هذا الجسم الجامد - أمراً مهماً لاسبيل إلى إرجائه وكانما لم يبق  
له من الحياة إلا تلك القوة المشتغلة بهذا العمل المتفرغة لاتمامه باهتمام حاد  
لا يناله التفسير .

وكان المصباح المدلى من السقف يصب ضوءه على وجه ذلك المائت .  
وكل من فى الغرفة يتثره النظر ويلق أنفاسه كأنما يخشى أن يزجج شيئاً  
رهيباً . فكانت أنفاس المريض المحشجة المخنوقة - وسط هذا  
السكون - واضحة وضوحاً مرعباً

وفتح الباب ودخل قسيس بدين قصير يسير بخطى قصيرة ضعيفة ومعه  
المرتل وهو رجل أسمر هزيل ودخل معهما سانين وسعل القسيس سعالاً  
خفيفاً وانحنى للطبيين وللحضور فردوا عليه بأدب مبالغ فيه ثم عادوا  
إلى الصمت التام .

أما سانين فلم يجعل باله إلى أحد . ومضى إلى النافذة ومن ثم أخذ يرصد  
سمينوف والحاضرين جميعاً منقباً فى سرائرهم معالجا أن يستشف من  
الوجوه ما يحسه المريض ومن حوله ويفكرون فيه فى الواقع .

وظل سمينوف جامداً يتنفس كما كان .

وقال القسيس فى رفق غير موجه سؤاله إلى أحد على التعيين .

- «إنه غائب عن رشده . أليس كذلك؟» .

فأسرع نوفيكوف وأجابته : « نعم » .

وتتم سائين شيئاً غير مفهوم فنظر إليه القسيس مستفسراً غير أن سائين ظل صامتا فصرف القسيس وجهه عنه ومسح شعره ورده إلى الورااء ولبس عباءته وشرع يندشد التراتيل للميت بصوت عال شجى .

وكان صوت صاحبه المرتل ضخماً خشناً ثقيلًا فصار الصوتان مختلفان مؤلين في تنافرهما وهما يتصاعدان إلى السقف العالى .

ولم يكاد الترتيل يبدأ حتى اتجهت كل العيون في فزع إلى ذلك الذى يموت . وكان نوفيكوف أدنى إليه فخيل إليه أن جفون سمينوف اختلجت قليلاً كأنما تحرك من تحتها الإنسانان المكفوفان في اتجاه الغناء . أما الآخرون فلم يروا إلا أن سمينوف بقى بلا حراك كما كان من قبل .

ولم يكاد الترتيل يبدأ حتى بكت سينا بكاء ساكناً مباحاً وانهمرت الدموع على محياها النضير الجميل . فتهولت لإبها العيون وشرعت دو بوفاً تبكى كذلك وجالت العبرات في عيون الرجال ولكنهم قرضوا أسنانهم ليمنعوا الدموع أن تسيل . وكانت الفتيات كلما علا الترتيل يزددن نحيباً . فعبس سائين وهز كتفيه مخنقاً وجعل يقول لنفسه : ما أخلق سمينوف أن لا يطبق - إذا سمع - هذا العويل الذى يكرب نفس الأصحاب ثم قال للقسيس في غيظ :

- «خفض من صوتك !» -

فقال القسيس إليه ليسمع ما يقول فلما فهم معناه قطب وزاد في صوته علوا . وحملق رفيقه في سائين ورماه الجميع بنظرهم كذلك وبهم زبيج من الخوف والدهشه كنهه فال شيئاً يسوء فأعرب سائين عما به من الضيق بإيماءة ولم ينبس .

ولما انتهى من الترتيل وطوى القسيس الصليب في عباءته ألح الانتظار على النفوس بالألم .

وكان سمينوف متصلباً جامداً كالعهد به .

ثم طاف بأذهان الجميع فجأة خاطر فظياع لا سبيل إلى مغالبتة . ونفيه .  
« أما لو أنه انتهى الأمر بسرعة ! لو أن سمينوف يعجل بالموت ! » .  
ولكن الخوف والحيل دفعاهم إلى كتمان هذه الرغبة والاكتفاء  
بتبادل النفترات الضعيفة .

فقال سانين بصوت منخفض :

— « أما لو انتهى كل هذا ! فظياع . أليس كذلك ؟ » .

فأجابه إيفانوف :

— « نعم » .

وكان كلامهما همسا ومن الجلي أن سمينوف لم يكن يستطيع أن يسمعهما  
غير ان الحاضرين بدت عليهم إمارات الاشمئزاز والاستفزاز .  
وهم شافروف أن يقول شيئاً ولكن صوتاً جديداً شاكياً لا سبيل إلى  
وصف ما انطوى عليه من ألم — دوى في الغرفة وأرسل الرعدة في الموجودين .  
ذلك أن سمينوف أخرج هذا الصوت :

« اي..... اي..... اي..... » .

وكأنما اهتدى إلى طريقة يطلبها للتعبير والنطق ففضى يخرج هذا الصوت  
الممطوط لا يعوقه الا نفسه المحشرج المننوق .

ولم يدرك الحضور في أول الأمر ماذا حدث له .

ولكن سينا ودوبوفا بكتا .

واستأنف التمسيس ترتيبه في بطء واحتفال وظهرت على وجهه السمين  
الطيب دلائل العطف والانفعال .

ومضت دقائق . وكف سمينوف فجأة عن التوجع . وهمس التمسيس أن قد

قضى الأمر



ثم حرك سمينوف ببطء وبجهد جاهد شفثيه المصمتين وتقبض وجهه  
كأنما يبتسم وسمع النظارة صوتاً أجوف منكرأ يخرج من أعماق صدره وكأنه  
خارج من نعش - يقول :

- « أيها الشيخ الأحمق ! » .

وعينه تنظران شزرا إلى القسيس وشاعت الرعدة في جسمه ودار حملاقاه  
كالمجنونين في كهفيهما وتمطى .:

وسمعوا جميعا كلماته الثلاث ولكن لم يتحرك منهم أحد وغاضت -  
لحظة - من وجه القسيس السمين الرطب آية الحزن وتلفت حوله في قلق  
غير أن لحظه أخطأ كل عين .  
وكان سانين وحده يبتسم .

وحرك سمينوف شفثيه ثانيا غير أنه لم يخرج منهما صوت واسترخى  
أحد شاربيه الخفيفين وتمطى مرة أخرى وصار في رأى العين أطول  
وأفطع . وانقطع كل صوت وكل حركة . ولم يبك أحد الآن . فقد كان  
نزول الموت أهول من ترنيقه وكأنما كان من الغريب المعجب أن ينتهى  
منظر دفنت كهذا بمثل تلك السرعة والبساطة .

فظاوا برهة وقوفا إلى السرير يتأملون دعارف وجهه الميتة الناتئة وكأنهم  
يتوقعون أن يحدث شئ جديد وراحو - لكى ينهوا في نفوسهم الإحساس  
بالهول والمرثية - يرقبون نوفيكوف وهو يغمض أجناف الميت ويضع له  
يديه على صدره .

ثم خرجوا في سكون وحذر . وكانت المصابيح قد أضيئت في الممر  
وبدا لهم كل شئ مألوفا فخلصت أنفاسهم .

وكان القسيس أول الخارجين فمضى بخطوات قصيرة وأراد أن يقول شيئا  
على سبيل العزاء للإيضاح من الحاضررين فتمهد وقال بصوت رقيق :

- « وآسفاه ! إنه لأمر محزن جداً ! وفي مثل هذا الشباب أيضاً .  
 وآسفاه ! ومن الواضح أنه مات غير تائب ولكن الله رحيم » :  
 فقال شافروف وكأنه يليه متوخياً الأدب :  
 — « نعم : نعم . بالطبع » .  
 فسأل القسيس :  
 — « أتعرف أسرته ما حدث » .  
 فأجابه شافروف :  
 — « لست أدري » .  
 ونظر بعضهم إلى بعض في دهشة واستغربوا واستقبحوا أن لا يعرفوا  
 من هم أهل الميت .  
 وقالت سينا : « أظن أخته في المدرسة العالية » .  
 فقال القسيس :  
 — « آه حسن ! والآن عموا مساء » .  
 ورفع قبعته قليلاً بأصابعه السمينة .  
 فقالوا جميعاً بصوت واحد .  
 — « عم مساء ! » .  
 ولما بلغوا الشارع تهادوا كأنما تخلصوا . وسألهم شافروف :  
 — « أين نذهب ؟ » .  
 وبعد تردد قليل ودع بعضهم بعضاً ومضى كل في طريقه .

( ١١ )

لما رأى سميتوف الدم الذي نفث وأحس الفراغ الرهيب في نفسه ومن  
 حوله : ولما احتملوه ومضوا به ووضعوه وقاموا له بكل ما كان يفعله

هو في حياته - حينئذ أيقن أنه سيموت وعجب كيف لا يشعر بأقل فزع من الموت .

وقد قالت دوبروفا : إنه ربيع لأنها هي نفسها ربيعت وتوهمت أنه لما كان الصحيح المعافى يرهب الموت فلا بد أن يكون المحتضر أعظم فزعاً واستهوالاً له . وحسبت اصفراره وشرود نظراته - وهما نتيجة الضعف ونخسارة الدم - دليلاً على الخوف . ولكن الأمر لم يكن كذلك في الواقع . وكان سمينوف يخاف الموت أبداً ويفرق منه لاسيما منذ عرف أنه مصاب بالسل . وكان في أول مرضه نهب الفزع وفريسة الذعر شأنه في ذلك كشتأن المحكوم عليه بالإعدام ضاع كل رجاء في العفو عنه . وكاد يصور له الرعب أن الدنيا لم يعد لها وجود منذ تلك اللحظة وأن كل مستباح جميل سار قد اختفى وزال وأن ما حوله يموت ويقضى نحبه وأن كل لحظة بل كل ثانية قد تكر عليه بالفزع الذي لا يسعه طوق والمستهول كالهواية السحيقة السوداء الفاغرة . وكان الموت يتمثل له كالهواية الهائلة المضامة كالليل . وكانت هذه الهواية أبداً ماثلة لعينه حيثما ذهب . وفي ظلامها الكشيف يختبئ كل صوت وكل لون وكل إحساس . وأخلق بمثل هذه الحالة النفسية أن تكون مرعبة ولكنها لم تطل وصار سمينوف كلما أخطب به الداء وأوجف على مر الأيام يزيد الموت في نظره بعداً وعموضاً والتبائناً .

واسترد ما حوله من الأصوات والألوان والعواطف قيمته الأولى عنده وعادت الشمس تشرق كأضواء ما كانت . ورأى الناس يباشرون أعمالهم كالعادة وأحس هو مثلهم أن ثم أموراً خطيرة وأخرى تافهة ينبغي له أن يعالجها . وصار يقوم في الصباح ويتحرى العناية في غسل وجهه ويتناول غذائه ويستمرئه أو لا يستمرئه كسابق عهده ويجد الغبطة بالشمس تطلع والقمري ينير والضيق بالمطر والرطوبة كما كان . ويأعب البليارد مساء مع نوفيكرف وغيره ويفرأ الكتب ويستعيد بعضها ويستسخرن البعض ويستردله كعهده قديماً .

وضايقه - بل آلمه في أول الأمر - إن كل شيء ظل على حاله لم يلحقة تغيير فحاول أن يبدل هذا الحال بأن يدفع الناس إلى الاهتمام له والاكتراث لموته وأن يكرههم على أن يقدروا موقفه المفرع وأن يدركوا أن الأمر قد قضى : غير أنه كان كلما أفضى إلى إخوانه بهنا يعود فيرى أنه لم يكن يتبغى له أن يفعل ذلك وكانوا يعجبون أولاً ثم يتشككون ويذهبون إلى الريب في دقة تشخيص الطبيب للمرض . ثم جعلوا يتوخون آخر الأمر أن يتقوا غضاضة وقع المسألة بأن يغيروا موضوع الكلام ويحولوا مجرى الحديث . وهكذا ألغى سمينوف نفسه يجادتهم في كل شيء ما خلا الموت .

ثم نزعته نفسه إلى العزلة وأن يخلو أبداً بنفسه وأن يتعذب مستفرداً إذ كان حزين إدراكه قد استغرقه القضاء المنتظر . غير أن كل شيء بقي على حاله كما ظلت حياته وأوساطه كما كانت فبدا له أن من الخرف أن يتصور أن الأمر يمكن أن يكون على خلاف ذلك أو أنه هو سيصبح ولا وجود له وصار خاطر الموت أقل لدعا بعد إذ كان جرحاً عميقاً . ووجدت روحه المكروبة حرقتها وتعددت لحظات النسيان التام وانبسطلت أمامه وجوه الحياة رائحة اللون والحركة والصوت .

ولم يعد يطوف بنفسه إحساس الهاوية السوداء إلا وهو وحده ليلاً . فكان بعد أن يطنىء المصباح يرى شعفاً مسيحاً لا شكل له ولا معارف يشارفه شيئاً فشيئاً في الظلام ويهمس في أذنيه « شش . . شش » بلا انقطاع فيجاوبه صوت بشع كأنه خارج من جوفه ويحس أنه صائر بعض هذا الهمس وهذه الهيولى ويرى حياته فيها هليماً وانبا محتضراً قد ينطفيء في أي لحظة :

فاعتزم أن يدع المصباح يضيء الغرفة الليل كله وكانت هذه الهمسات تنقطع في الضوء والظلمة تنسخ . وفارقه إحساسه بأنه معلق على فوهة هاوية

باغرة لأن النور أشعره وجود ألف شيء نافه مألوف في حياته كالكراسي والنور والدواة وقدميه ورسالة لم يتم كتابتها والحذاء الذى نسي أن يتركه خارج لغرفة وغير ذلك من الأشياء اليومية المحيطة به .

على أنه مع ذلك كان يسمع همسات صادرة عن أركان الغرفة التى لم يترها ضوء المصباح فتغفر الهاوية فاها له . فكان يصرق من النظر إلى الظلام بل من التفكير فيه لأنه كان إذا فعل تكتنفه الخلوكة المزعجة وتحجب عن عينه المصباح وتخفى العالم كأنما أضمره ضباب بارد كثيف . وكان هذا هو الذى يعذبه ويفزعه حتى اكان يحس الحاجة إلى البكاء كالطفل أو أن ينطح الحائط برأسه .

ولكنه ألف هذه الإحساسات والهواجس على مر الأيام وكلما دنا من الموت . ولم تكن تلج به وتطغى إلا إذا أذكره مذكر - من كلمة أو إيحاء أو منظر جنازة أو قبر - أنه هو أيضاً لا محالة ميت فألى - لكنى يتنى هذه النذر - أن لا يسير فى سكة تؤدي إلى المقبرة وأن لا ينام على ظهره ويدها مطويتان على صدره .

وكأنما كانت له حياتان : حياته الأولى الرحيبة المفهومة وهذه لا تتسع لخاطر الموت بل تغضى عنه إذ كانت فى شاغل من شئوننا وهى متعلقة بالأمل فى البقاء أبداً كأننا ما كان ثمن ذلك - وحياة أخرى مستمرة غامضة غير معينة تقرض - كالودودة فى التفاحة - قلب حياته الأولى وتسمها وتجعلها غير محتالة .

وهذا الازدواج فى حياة سمينوف هو الذى جعله لا يكاد يحس أى فزع لما واجه الموت وأيقن أن المنتهى قريب . فلم يزد على أن سأل « أو قد قضى الأمر ؟ » ليعرف على وجه التحديق ماذا يجب أن ينتظر .

ولما قرأ فى وجوه من حوله جوابهم عن سؤاله عجب للموت كيف يكون على هذه البساطة كأنه مهمة ثقيلة أرهقت قواه وأدرك فى الوقت نفسه بنوع

من الإلهام الباطن أنه لا يمكن أن يكون إلا هكذا وأن الموت نتيجة طبيعية لاستنزاف حيويته ولم يتحسب على شيء سوى أنه لن يرى شيئاً بعد ذلك .

ولما احتملوه في المركبة إلى المستشفى جعل يحلق وعيناه مفتوحات كل الفتح محاولاً أن يأخذ كل شيء بنظرة وأسف لأنه لا يستطيع أن يثبت في ذاكرته كل دقيق وجليل في هذه الدنيا بسماها اللانهائية وأناسها وخضرتها وآفاقها القصية الزرقاء وصار كل ما لم يكن قد فطن إليه حبيباً إلى نفسه عزيزاً عليها ككل ما كان يجده حافلاً بالجمال والخطر الجليل لا بل أحب من أن يناله وصف وأقوم من أن يفي ببيانه تعبير . فمن السماء القائمة المترامية ونجومها الواججة إلى ظهر السائق الهزيل ومن وجهه نوفيكيوف المكتتب إلى الطريق الترب ومن المنازل ونوافذها المضيئة إلى الأشجار الجهمية التي ظلت مكانها وراءهم في صمت . ومن العجلات المضطربة إلى نسيم العشبى اللين - كل أولئك رآه وسمعه وأحسه .

ولما صار في المستشفى دارت عيناه بسرعة في الغرفة الكبيرة ورضدنا كل حركة وشخص حتى صرفهما الألم الجثاني الذي أشعره العزلة المطلقة عما حوله . وانحصرت مداركه في صدره منبع كل آلامه - تم أخذ في بطء شديد يفارق الحياة وصار إذا رأى شيئاً يستغربه ولا يرى فيه معنى . . فقله بدأ الصراع الحاسم بين الحياة والموت واكتظ به كل كيانه وخلق له عالماً جديداً غريباً موحشاً - عالماً من الفزع والألم والصراع اليائس .

وكانت تعاوده من حين إلى حين لحظات انتباه وإفاقة فينقطع الألم ويهدأ ويعمق تنفسه وتستبين الشخوص والأصوات من خلال النقب الأبيض . غير أن كل شيء كان ضعيفاً وباطلاً كأنه آت من مكان سحيق . وكان يسمع الأصوات واضحة ثم لا يتبينها أما الأشخاص فلم يكن لحركاتها صوت كأنها أشباح الصور المتحركة وأنكر الوجوه التي كان يعرفها ولم يستطع أن يذكرها .

وكان على السرير المجاور له رجل له وجه حليق غريب يقرأ شيئاً ويرفع الصوت به . لماذا يقرأ؟ ولماذا يقرأ؟ لم يعن سمينوف بالتفكير في هذا . وسمع بأجلى وضوح أن الانتخابات البرلمانية أرجئت وأن بعضهم حاول أن يقتل غراندوقا — ولكن الألفاظ كانت فارغة لا معنى لها كأنها الفقايع انفجرت وزالت ولم تخلف وراءها أثراً .

وتحركت شفتا الرجل والتمعت أسنانه ودارت عيناه وخشخششت الورقة وأضاء المصباح المدلى من السقف ودارت حوله فراشات كبيرة سوداء فظيعة المنظر . وكأنما اشتعل في ذهن سمينوف طيب فأثار كل ما يحيط به وأحس فجأة أنه لا يعنيه شيء وأن كل ما في الدنيا من قوة لا يستطيع أن يطيل حياته ساعة واحدة وأنه لا بد أن يموت . فهوى مرة أخرى في أمواج الضباب الحالك وعاد الصراع الصامت بين قوتين هائلتين خفيتين تحاول إحداهما بأقصى ما أوتيت من العنف أن تقضى على الأخرى .

وكانت إفاقة سمينوف للمرة الثانية لما سمع البكاء والترتيل فلم ير وجه الحاجة إلى هذا إذ كان لا صلة له بما هو جار في جوفه على أن ذلك أضاء ذهنه لحظة فرأى بوضوح وجه رجل مزيف الكتابة لا يعنيه من أمره شيء على الإطلاق . وكانت هذه آخر دلائل الحياة .  
أما ما تلا ذلك فيتجاوز مدى الفكر والإدراك .

( ١٢ )

قال إيفانوف اسانين :

— « تعالى عندي نخبي ذكرى الفقييد » .

فهز سانين رأسه دلالة على الموافقة واشترى في طريقهما شيئاً من الفودكا

والخضر وأدركا يورى وكان يتمشى مستمهلا في الميدان وعلى وجهه كتابة شديدة .

وكان موت سمينوف قد وقع من نفس يورى موقعاً أليماً مزعجاً رأى معه من اللازم أن يحلاه وإن كان قد أعجزه ذلك فقال لنفسه محاولاً أن يرسم خطأً مستقيماً قصيراً في ذهنه :

— « إن الأمر بسيط على كل حال . لم يكن الإنسان موجوداً قبل أن يولد وليس في هذا شيء مفرع أو غير مفهوم . والإنسان ينتهى وجوده متى مات . وهذا — كسابقه — بساطة وسهولة إدراك فالموت . وهو الوقوف التام للأداة التي تخلق القوة الحيوية ، فهمه ميسور على أتم وجه وليس فيه ما يفرع الخاطر ولقد غير زمن كان فيه غلام اسمه « يورا » ذهب إلى الكلية وضارب زملاءه وكان يتلهى ويروح عن نفسه بأن يقطع رءوس الأشواك ويقضى حياته الخاصة الممتعة على النحو الخاص به . وقد مات « يورا » هذا وذهب في سبيل من خلا وحل محله رجل آخر تمشى ويفكر هو الطالب « يورى » . ولو أنهما التقيا لما وسع « يورا » أن يفهم « يورى » ولعله يعمقه ويرى فيه أستاذاً مريباً يحمله ما لا آخر له من المتاعب . لهذا كان بينهما جون يتعاطم المجتاز . ولهذا أيضاً أرى أنى أنا قد قضيت نجبي بموت الغلام « يورا » وإن كنت لم أوطن لهذا من قبل . هذا هو واقع الأمر . وإنه لطبيعى بسيط ! وماذا يخسر الإنسان بأن يموت ؟؟ إن الحياة على كل حال يرجح فيها الشقاء بالسعادة . نعم إن لها مسراتها وما أقسى أن ينفض المرء يده منها ! ولكن الموت يريحنا من كثير من البلايا والشورور فنحن في نهاية الأمر نستفيد به ونريح من ورائه . ما أبسط هذا وأقل عناصر الفرع فيه !! أليس كذلك ؟؟ » .

قال يورى آخر جملة بصوت عال وتنفس الصعداء غير أنه فرغ فجأة فقد طاف برأسه خاطر للداع .



« كلا ! عالم بأسره ، حافل بالحياة ، معقد الأمر إلى حد يتجاوز المدارك ، هذا العالم يحول فجأة إلى عدم ؟؟ كلا ! ليس هذا في شيء من تطور الغلام « يورا » وصيرورته الرجل « يورى » أن هذا سخيف مشير وهو لذلك مفرغ غير مفهوم ! » .

وجاهد يورى بكل ما استطاع من قدرة أن يكون لنفسه فكرة عن هذه الحالة انى لا يرى أحد أن في الطوق احتمالها والتي يحتملها كل أمرىء على الرغم من ذلك كما فعل سمينوف .

وعاد يورى إلى مخاطبة نفسه وهو ينتمس لغرابة الخاطر فقال :

— « ولم يمت خوفاً مع ذلك ! كلا ! لقد كان يضحك منا جسيماً ويهزأ بقسيسنا وتراتيلنا وعبرتنا . ألا كيف وسع سمينوف أن يضحك وهو موثق أنه بعد دقائق لا يكون ؟؟ أترأه كان بطلاً ؟ كلا ! ليست المسألة مسألة بطولة . إذا فالموت ليس من الهول بحيث أتوهم ! » .  
وأنه كذلك وإذا بايفانوف يحويه فجأة بصوت مرتفع فسأله يورى وهو يرجف :

— « آه ! هذا أنت ! أين تراك ذاهب ؟ » .

فقال ايفانوف بجذل وحشى :

— « إلى الصلاة على روح صديقنا الفقيد ! ونحير لك أن تمضى معنا . ما خير أن تظل دائماً مستفرداً ؟؟ » .

ولما كان يورى حزينا مهموماً فإنه لم يحتو سائين وإيفانوف كالعادة . وقال :

— « حسن جداً . سأمضى معكما » .

ثم ذكر فجأة بعد المدى بينه وبينهما وأنها دونه مواهب وملكات فقال لنفسه :

— « أى جامعة بينى وبين مثل هذين ؟ أشار بهما الفودكا وأروح أهدر مثلهما ؟ » .

وهم أن ينصرف عنهما ولكن إشفاقه من الوحدة بلغ منه مبلغاً دفعه إلى البقاء معهما .

ولم يثبت سائين ولا إيفانوف بشيء ووصلوا جميعاً في صمت إلى بيت إيفانوف . وكان الظلام قد أرخى سدوله وبدأ لهم شبوح رجل واقف عند الباب ومعه عصا غليظة معوجة اليد فقال إيفانوف مغتبطاً :

— « أنه العم بيتر ايليتش » .

فأجابه الشيخ بصوت عميق رنان :

— « نعم هو بعينه » .

وذكر يورى أن عم إيفانوف شيخ سكير ياشد التراتيل في الكنيسة وكان شاربه أبيض فأكسبه ذلك منظر الجندي على عهد نيقولا الأول . وفعمتهم من معطفه الأسود البالى رائحة كريهة .

« بوم . بوم » هكذا كان صوته فكأنه خارج من جوف برمبيل :

وعرفه إيفانوف بصاحبه يورى فصافحه وهو لا يدرى ماذا يقول . مثل هذا الرجل . على أنه ذكر أن الناس ينبغي أن يكونوا سواء عنده فتأدب مع المغنى الكهل وتركه يتقدمه في الدخول .

وكان بيت إيفانوف أشبه بمخزن أخشاب منه بمسكن إنسان لكثرة التراب وقلة الترتيب والنظام .

ولكن إيفانوف لم يكذب يشعل المصباح حتى وجد يورى أن الجدران مغطاة بصور فاستنسوف وأن ما خاله أقداراً ليس سوى كتب مكادسة أكواما على أن هذا لم يخفف من ضيقه فذهب يتأمل الصور ليخفى ما به .

وسأله إيفانوف :

— « أتحب فاستنسوف ؟ » .

ولم ينتظر الجواب بل غادر الغرفة طلباً للصحاف .

وتعى نسانين صديقهم سمينوف إلى بيتر فقال هذا :  
 — « رحمته الله ! آه ! لقد قضى أمره ! » .

قرماه يورى بنظرة المستطلع وأدركه العطف على هذا الشيخ الحرم .  
 وعاد إيفانوف يخبز وكؤوس وبشيء من الخضر المملحة ووضعها على  
 المائدة وكانت مغطاة بجريدة . ثم فتمح زجاجة بسرعة لا تكاد تحس وبجدق  
 بلغ منه مع السرعة أن لم تسل قطرة واحدة .  
 فقال بيتر معجباً موافقاً :

— « يد صناع ! » .

فقال إيفانوف بلهجة الراضى عن نفسه وهو يملأ الكؤوس بالشراب  
 الأخضر .

— « إنك تستطيع أن تبين فى لحظة هل المرء عارف بما يعالج أم  
 جاهل به » .

ثم رفع صوته وهو يتناول الكأس وقال :

— « والآن أمها السادة لنشرب على ذكر الفقيد الخ ! » .

وشرعوا يأكلون وأصابوا من الفودكا كثيراً وأقلوا من الكلام وأكثروا  
 من الشراب وماهى إلا برهة حتى عاد جو الغرفة جاراً ثقيلاً .  
 وأشعل بيتر سيجارة فاختلط بالهواء الدخان الأزرق المتصاعد من الطباق  
 الردىء .

فدار رأس يورى من الخمر والدخان والحرارة وجرى بهاله سمينوف  
 مرة ثانية فقال :

— « إن فى الموت شيئاً مفرعاً » .

فسأله بيتر :

— « لماذا؟ الموت؟ هو هو هو ! إنه لا بد منه . الموت؟ تصور أن يحيا  
 الإنسان أبداً؟ هو هو ! لا ينبغي لك أن تتكلم على هذا النحو . الحياة الأبدية  
 حقاً ! ماذا عساها أن تكون؟ » .

فعالج يورى أن يتصور الحياة الأبدية كيف تكون . فارتسم لعينه خط أبيض ضارب إلى السواد ممتد إلى غير غاية في الفضاء كأنما تقذفه موجة وتلقفه أخرى واستعجمت كل صورة للألوان والأصوات والعواطف وتسرب بعضها في خلال بعض وغابت في ثنايا جدول مربد يتحدر أبدا . وليس هذا في شيء من الحياة وما هو إلا الموت الدائم . فاستهول هذا الخاطر . وتمتم .

— « نعم لاشك » .

وقال إيفانوف :

— « يظهر أن الأمر عظيم الوقع في نفسك » .

فسأله يورى :

— ومن ذا الذى لا يعظم وقع الموت في نفسه ؟ » .

فهز إيفانوف رأسه هزة مبهمة المعنى وشرع يحدث بيتر عن آخر ساعات سمينوف . وكان الهواء في الغرفة قد صار لا يطاق . وراقب يورى إيفانوف وهو يرشف النفودكا المتألقة في ضوء المصباح وبدأ له أن كل شيء يدور ويجول .

وهمس في أذنه صوت غريب ضئيل « آ آ آ » .

فقال وهو لا يدري أنه إنما يرد على هذا الصوت العجيب الهامس :

— « كلا ! أن الموت شيء فظيع ! » .

فلاحظ إيفانوف متمكنا :

— « إنك تضطرب له أكثر مما يجب » .

فقال يورى :

— « أو لست أنت كذلك ؟ » .

— « أنا ؟ كلا ! لا ريب أنى لا أشتهي الموت فليس فيه متعة كبيرة

ترغب . والحياة أشهى منه وأمتع . ولكن إذا كان لابد من الموت فأنى أحب

أن يكون حيا وأن تخلو موافاته من الجلبة والكلام الفارغ » .

فضحكك سائين وقال :

— «إنك لم تجرب الأمر بعد !» .

فأجابه إيفانوف :

— « كلا ! هذا صحيح » .

فقال يورى :

— « لقد سمعنا كل هذا من قبل . قولوا ماشئتم فالموت هو الموت وهو فطير في ذاته وكفى هادما لكل لذة في الحياة أن يفكر المرء في هذه الخاتمة العنيفة التي لا منفر منها . ما معنى الحياة ؟ » .

فصاح به إيفانوف متضايقاً :

« لا معنى لها » .

فأجابه يورى :

« كلا ، هذا مستحيل . إن كل شيء أحكم نظاماً وأبرع ترتيباً

من .. »

فقال سائين مقاطعاً :

— « إن رأي أنه ما من خير في أي شيء » .

فقال يورى « كيف تذهب إلى هذا ؟ وما قولك في الطبيعة ؟ » .

فضحكك سائين ضحكة خفيفة ولوح بيده مستخفاً وقال :

— « الطبيعة ؟ ها ها ، إني أعلم أن من المؤلف أن نقول إن الطبيعة بالغة حد الكمال . والحقيقة هي أن الطبيعة مثل الإنسان نقصاً وعيوباً . وفي وسع كل منا بدون جهد كبير أن يتصور عالماً يكون خيراً من هذا مائة مرة . لماذا لا تكون الحرارة والضوء سرمداً علينا والرياض خضراء نصيرة طليقة أبداً ؟ أما عن معنى الحياة فلا أشك في أن لها معنى فإن الغاية في مطاوعها مجرى الأمور وأخلق بالفوضى أن تكون شاملة محبطة إذا لم يكن ثم من

غاية . ولكن هذه الغاية خارجة عن دائرة وجودنا إذ هي كائنة في أساس الوجود . هذا محقق . ونحن لا يمكن أن نكون أصل الوجود ولا آخره كذلك . وليس دورنا فيه إلا سلبيا إضافيا . ونحن نؤدى مهمتنا بمجرد حياتنا . فحياتنا ضرورية . وكذلك موتنا أيضاً » .

فقال يورى «لأى سبب ؟» .

فأجاب سانين :

— «أنى لى أن أعلم هذا؟ وماذا يعينى منه فضلا عن ذلك أنه حياقى معناها نحوالجى الذبذة كانت أوغير الذبذة وكل ما هو خارج عن هذه الحدود . . . فىلى الشيطان به ! ومهما تكن النظرية التى نشاء أن نخرعها فهى لاتعدو أن تكون نظرية ولا يمكن أن تخرج عن كونها نظرية . ومن الخرف أن نبني عليها فكرة عن الحياة . ومن شاء فليذهب ذهنه فى ذلك أما أنا فإنى معتزم أن أحياء !»

فقال إيفانوف مقترحا :

— «لنشرب جميعا على قوة هذا العزم !» .

وقال بيتر لسانين وهو يتأمل بعينه الضعيفتين :

— ولكنك تؤمن بالله أليس كذلك؟ أنه لا يؤمن أجد بشىء فى هذه الأيام

حتى ولا بما يسهل الإيمان به »

فضحك سانين وقال :

— نعم تؤمن بالله . ولقد آمنت به طفلا ولا حاجة لى المنازعة فى أسباب

ذلك أو تأييدها . والحقيقة أنه ليس أجدى علينا من الإيمان فإذا كان

الله موجودا تقدمت إليه بأصدق الإيمان وأخلصه . . . وإذا لم يكن له

وجود كان ذلك خيرا لى » :

فقال يورى :

— « ولكن كل حياة تقوم على الإيمان أو عدم الإيمان »

فهز سائين رأسه وابتسم مغتبطاً وقال :

— « كلا، إن حياتي ليست بقائمة على شيء من هذا القبيل » .

فسأله يورى وقد تداععت قوته :

— « على أى شيء تقوم حياتك إذا؟ » .

وقال لنفسه : « آه ، ينبغي أن أكف عن الشرب » .

ومسح جبينه البارد الرطب بكفه ولم يسمع مقال سائين رداً عليه فقد كان رأسه يدور وغلبته الخمر على أمره برهة .

وقال سائين :

— « إنى اعتقد أن الله موجود وإن كنت لست على يقين جازم مطلق .

وسواء أكان موجوداً أم غير موجود فإنى عاجز عن تصوره ولا أستطيع أن أعرف هذا حتى لو كنت أحر الناس إيماناً به ؟ إن الله هو الله ولما كان غير آدمى فلاسنا نستطيع أن نجري عليه المقاييس الإنسانية ، إن عالمه المخلوق المحيط بنا شامل لكل شيء : للخير والشر ، وللحياة والموت ، وللجمال والقبح — كل شيء فى الواقع — ولذلك يعجزنا كل معنى وكل تعريف محدود لأن معناه غير انسانى وآراؤه فى الخير والشر ليست بإنسانية ولا معدى لنا عن أن تكون فكرتنا عن الله وثنية فى صميم أمرها وليس يسعنا إلا أن نكسو معبودنا السحنة والثوب الملائمين للأحوال الجوية فى بلادنا التى نعيش فيها — سخافة — أليس كذلك ؟

فقال إيفانوف :

— « نعم ، أصبت . كل الإصابة ! » .

فسأله يورى ودفع كأسه مكروباً :

« إذن ما الفائدة من الحياة ؟ أو من الموت أيضاً ؟ » .

فأجابه سائين :

— « إنى أعرف شيئاً وحداً هو أنى لأريد أن تكون حياتى شقية . لذلك

يجب على المرء أن يرضى رغباته الطبيعية قبل كل شيء . إن الرغبة هى كل

شئ . ومتى انقطعت الرغبة انتطعت الحياة معها . وإذا قتل المرء رغباته فإنه يكون قد قتل نفسه .

فقال يورى : « ولكن رغباته قد تكون شراً ؟ » .

فأجاب سانين : « ربما » .

فقال يورى : « إذأ ماذا يكون من أمرها ؟ » .

فأجابه سانين فى رفق وحنق فى وجهه بعينه الزرقاوين الصافيتين :

— « إذأ .... تكون شراً ، لا أكثر ولا أقل » .

فرفع إيفانوف حاجبيه غير مصدق ولم يتمكلم . وصمت يورى كذلك وحيرته هاتان العينان الزرقاوان الصافيتان لسبب ما وجعل يرنو إليهما .  
وساد السكون لحظة فكان المرء يسمع فراشة هناك تصطدم مستيثة بزجاج النافذة . وهز بيتر رأسه فى حزن وتلدى رأسه المخمور إلى الجريدة القذرة الملوثة .

فعاد سانين إلى الابتسام . وكانت هذه الابتسامة المرتسمة أبدا على ثغر سانين تشير يورى وتفتمنه كذلك فقال لنفسه :

— « ما أصفى عينيه ! » .

ونفض سانين فجأة وفتح النافذة وأخرج الفراشة واندفعت موجه هواء بارد عليل كأنما أرسلتها أجنحة رقيقة .

وقال إيفانوف مجيباً على خواطره :

— « نعم ليس فى الناس اثنان متشابهان . فلنشرب على هذا كاسا أخرى »

فقال يورى وهز رأسه :

— « كلا ! لن أشرب شيئاً آخر »

أجاب إيفانوف : « ولماذا ؟ » .

قال يورى : « أنى لا أكثر من الشراب »



وكانت الفودكا والحرارة قد صدعاها فطلبت نفسه الهواء الخالص وقال وهو يهض :

— « لا بد لي من الخروج » .

فقال إيفانوف : « إلى أين ؟ تعال . اشرب كأساً أخرى » .  
فقال يورى متلعثماً باحثاً عن قبعته :

— « كلا ، يجب أن ... » .

فرد عليه إيفانوف : « حسن . عم مساء » .

وخرج يورى وأغلق الباب وراءه .

وسمع سانين في هذه اللحظة يقول لبيتر :

— « نعم أنت لست كالأطفال . إن هؤلاء لا يستطيعون أن يميزوا بين

الخير والشر . لأن نفوسهم ساذجة على الفطرة . وهذا هو السبب في أنهم ... »

وكان يورى قد أتم إغلاق الباب فلم يسمع شيئاً .

وكان القمر مضيئاً في قبة السماء ، وهب نسيم الليل البليل على محيا يورى ،

وجلت له الطبيعة كل جميل محرك للخيال وجرى بذهنه سمينوف وهو يجتاز

الشوارع الساكنة المضيئة . فتصور سمينوف راقداً في قبر مظلم ساكن على أنه

مع ذلك لم تعاوده تلك الهواجس المحزنة التي كانت من قبل تجثم على صدره

وتسود الدنيا كلها في نظره . بل خامرته الكتابة الهادئة المطمئنة وأحسن دافعاً

يغريه بالشخص بطرفه إلى القمر . وذكر سانين وهو يجتاز ميداناً مهجوراً

فسأل نفسه « أى رجل هذا ؟ » .

وغاظه أن في الدنيا رجلاً لا يستطيع هو أن يحلل شخصيته في لحظة فراح يجد

لذة في النيل منه وقال :

— إن هو لإلصواغ عبارات ليس إلا . وقد كان يتكلف الطيرة أولاً ويدعى  
مقت الحياة ويرفه عن نفسه بالإعراب عن المستحيل من الآراء أما الآن  
فإنه يعبث بالحيوانية .

وانتقل يورى من التفكير فى سائبن إلى تأمل نفسه وانتهى من الموازنة إلى  
أنه لا يعبث بشيء ما، وأن كل خواطره وآلامه وشخصيته مبتكرة وأنها لا تشبه  
خواطر الناس غيره وشخصياتهم فى دقيق أو جليل .

فارتاح إلى هذه النتيجة أعظم الارتياح . . ولكنه أحس افتقاد شيء :  
فانقلب يفكر فى سمينوف وأحزنه أن عينيه لن تقع عليه أبداً ، واستوحشت  
نفسه وإن كان لم يشعر له بإعزاز فى حياته ، وترقرقت الدموع فى عينيه  
وتصور الطالب الميت مدرجاً فى قبره وقد صار كلمة متعفة وذكر هذه الكلمات  
له :

« ستكون حياً تستنشق الهواء وتمتع بضوء القمر وتمر بالقبر الذى يضم  
رفائى » .

فرمى يورى بلحظة إلى التراب وقال لنفسه :  
— « إن هاهنا تحت قدمى آدميين أيضاً . وإلى أطا بقدمى عقولا وقلوبا  
وعيوننا آدمية ! آه وسأموت مثلهم ويمشى غيرى فوقى وتخطر لهم مايطوف  
بذهنى الآن : آه . يجب أن يحيا الإنسان قبل أن يخرج الأمر من كفيه .  
الآن أنه يجب أن يعيش المرء ! نعم ولكن على الطريقة الصحيحة حتى لا تضيع  
عليه لحظة من حياته . ولكن كيف هذا ؟ » .

وكانت السوق عارية بيضاء فى ضوء القمر وكل ما فى البادة ساكت  
فغنى يورى نفسه : « لن نسمعنا المزمار عنه نبأ » .

ثم قال بصوت عال :

— « ما أثقل كل شيء وأشجاء وأرهية ! »

. كأنما يقول بشجوه لرفيق معه وأفزع صوته وتلفت ونفض المكان بعينه ليرى هل سمعه أحد. وخطر له أنه «سكران»  
وكان الليل مشرفاً في سكون وجلال .

لما كانت سينا كارسافينا وزميلتها دوبرفا غائبتين في زيارة كانت حياة يورى مملّة فاترة :

وكان أبوه أبدأً في شاغل من «النادى» أو من شئون البيت .

ولم تكن لياليا وريازانتريف يرتاحان الى وجود شخص ثالث معهما فكان يورى يجانبهما :

وصار من عادته أن ييكرز في الذهاب إلى مضجعه وأن لا يقوم إلا وقت الغداء وكان يقضى نهاره كله بين غرفته والحديقة مفكرآ في أموره . منتظرآ أن تساعفه موجه نشاطا تدفعة إلى عمل جليل .

وكان هذا العمل الجليل يتخذ في كل يوم صورة فيوما يكون صورة ويوما يكون سلسلة مقالات تكشف للعالم عن الخطأ الجسيم الذي وقع فيه الديمقراطيون الاشتراكيون بأن لم يعقدوا ليورى الزعامة في حزبهم . وطورآ. تكون مقالا في الحث على معاضدة الشعب والتعاون معه - مقالا شاملا ضافيا في الموضوع . ولكن كل يوم كان يمضى عليه ولا يخلف له سوى السآمة .

وجاء إليه نوفيكوف وشافزوت مرة أو مرتين يزوراناه .

وحضر يورى بعض المحاضرات وأدى بعض الزيارات غير أن هذا كله كان في نظره فارغا لاخير فيه وليس هو بالذى يفكر فيه أو يظن أنه يفكر فيه .

. وفي يوم من الأيام ذهب لزيارة ريزازانتريف وكانت غرف هذا الطبيب رحبية مهواة حافلة بكل ما يحتاج إليه الرجل الصحيح

الجسم المعافى البدن من وسائل التسلية فمن عصى هندية إلى كتل حديدية  
وسيوف وأدوات الصيد وحقائب للطباق غير ذلك مما هو بسبيل الملاهى التى  
يباشرها الرجال الأصحاء .

فرحب به ريزانتزيف وأحسن ملاطفته ومحادثته وقدم له السجائر ثم  
سأله أن يخرج معه للصيد .

فقال يورى : « لسن معى بنادقية » .

فقال : « خذ واحدة من هنا فإن لدى خمساً »

وإذ كان يورى أخا لياليا فقد أراد ريزانتزيف أن يلاطفه ما أمكثته  
ملاطفته . أصر على أن يأخذ يورى إحدى بنادقه وعرضها كلها عليه ليختار  
من بينها وفككها وشرح له تركيبها بل لقد أطلق إحداها على هدف فى الفناء .  
فاقتنع يورى وأخذ واحدة بعض والخراطيش وهو يضحك .

فسر ريزانتزيف وقال :

— « هذا حسن جداً . لقد كان عزى أن أخرج غداً لصيد البط فلنذهب  
معا » .

فقال يورى :

« هذا يسرنى جداً » .

ولما عاد إلى بيته قضى نحو ساعتين يفحص بنادقيته ويتحسس رندها  
ويسددها إلى المصباح ثم صقل حذائى الصيد القديمين . وفى مساء اليوم التالى جاء إليه  
ريزانتزيف يهتزمسوراً فى مركبة يجرها جواد مضمر وصاح به من النافذة  
وكانت مفتوحة .

— « أنت مستعد ؟ » .

وكان يوزى قد احتمل حزامه الخراطيش وحقيبة الصيد والبنادقية

فخرج إليه مثقلاً بها وقال :

— « إني مستعد . مستعد » :

وكان ريارانتزيف قد أخف من هذه الأحمال فمعجب ليورى وماتأهب به :  
وقال مبتسماً :

— « ستغاني البرح من هذه الأثقال . اخلعها وضعها هنا . فابك  
حاجة إلى لبسها قبل أن نبلغ المكان » .

وساعد يورى على التخلص منها ووضعها تحت المقعد ثم ألها الجواد  
فأخب بالمركبة وكان النهار قد أوشك أن ينتفضى ولكن الجو كان لا يزال  
دافئاً كثير التراب .

وجعلت المركبة تميل يمنة ويسرة حتى اضطر يورى أن يتشبث بمقعده :  
وكان ريارانتزيف يتكلم ويضحك طول الطريق فلم يسع يورى إلا أن  
يشاطره جذله .

ولما برزا إلى الحقل كانت الاكلاء الطويلة تلمس أقدامهم وصار الجو  
الطف وانقطع التراب .

وبلغا حقلاً واسعاً مستويماً فأوقف ريارانتزيف الجواد وكان يتصبب  
عرقاً ورفع كفه إلى فمه وصاح بصوت رنان صاف :  
« كوسما ! كوسما » :

وكان المرء يرى عند نهاية الحقل صفراً من الرجال صغيرى الأجسام  
فشخصه بأبصارهم إلى مصدر الصوت .

ثم اجترأ أحدهم الحقل متحرزاً بين الأخاديد ولما دنا منهم رأى يورى فلاحاً  
ضحكاً أبيض الشعر طويل اللحية مفتول الساعدين .  
فسار إليهما وقال مبتسماً :

— « إنك تحسن الصباح يا أناتول بافلوفتش » .

— « عم مساء كوسما كيف حالك ؟ أتسمح لى أن أترك الجواد  
معك ؟ » .

فقال الفلاح بصوت ساكن وى وأمسك اللجام :  
 — « نعم ولاشك . جئت للصيد أليس الأمر كذلك ؟ ومن هذا ؟ » وأتى  
 إلى يورى نظرة رقيقة . فقال ريبازانتريف :

— « إنه ابن نقولايجوروفتش » .

أجاب : « آه نعم ! إنى أراه شبيها بلياليا ! نعم . نعم ! » .  
 وسر يورى أن هذا الفلاح الهرم المغتبط يعرف اخته ويذكرها ذكر  
 الصديق المخلص .

وقال ريبازانتريف بصوته الطروب وتقدم زميله بعد أن احتمل  
 بندقيته وحقيبة الصيد .

— « والآن فلنمض فى سيلنا » .

فقال كوسيا :

« أرجو أن يكون حقلكما عظيما » .

وكان يسمعانه يلاطف الجواد وهو يجره إلى كوخه .  
 وكان عليهما أن يسيرا نحو ميل قبل أن يصلا إلى المستنقع وكادت  
 الشمس تغيب وكانت الأرض مكسوة بالحشائش والأعشاب تحس القدم  
 بللها وتجذ الأنف ربح رطوبتها والعين جهامتها . والماء تاعم صفحته فى  
 بعض المواضع .

وكف ريبازانتريف عن التدخين ووقف ورجلاه منفرجتان ونجهم  
 وجهه كأنما كان يهم بعمل عظيم التبعة .

ووقف يورى إلى يمينه يبحث عن مكان جاف مريح . وكان أمامهما الماء  
 صافياً عميقاً تنعكس فى صقاله صفة السماء الجاوة ومن ورائه الشاطئ  
 كالخط الأسود .

وهب البطمثى وثلاث وجعلت أفراخه تطير مترتبة فوق الماء خارجة  
 من الأعشاب محاقمة فوق رأسى الصائدين صفا من الأشباح السوداء باديا  
 دون السماء فأرسل ريبازانتريف أول طلقة فأصاب وهوت بطة مكالومة إلى

الماء وجناحها يخبطان الأعشاب فقال ريارانتزريف وضحك عالياً :  
- « لقد أصبتها » .

وقال يورى لنفسه وكان قد جاء دوره: «إنه رجل طيب حقيقة ..» .  
وأطلق بندقيته فهوت ببطة ولكنها سقطت في مكان بعيد لم يصل إليه  
يورى وإن كان قد جرح كفيه وخاض إلى ركبتيه في الماء ولم تزده هذه  
الخبية إلا حاسة وظن الأمر طويلاً .

وكان لدخان البنادق رائحة لذيدة في هذا الجو الصافي البليل وكانت  
الطلقات تبرق في الظلام فيجد المرء لبريقها وقعاً حسناً . وجعلت الطيور  
الجرمجة ترسم وهي تهوى أقواساً رشيقة تحت قبة السماء الخضراء التي بدت  
فيها النجوم . وأحسن يورى من النشاط والاعتباط مالا عهد له به كأنما لم يمر  
به ما هو أمتع من هذا وأعظم إنعاشاً للنفس . وقلت الطيور الطائرة الآن  
وتعذر تسديد المرى في الظلام المتكاثف .

وصاح ريارانتزريف بزميله :

-« يورى ! يجب أن نعود الآن ! » .

فأسف يورى لذلك وعز عليه أن يرجع ولكنه مضى إلى رفيقه لإجابة  
لرغبته وكان يتعثر في سيره بين الأعشاب ويخوض الماء الذي لم يعد يفترق  
في الظلام عن الأرض الصلبة .

فلما التقيا برقت عيونهما وكان كلاهما يلهث .

فقال ريارانتزريف :

-« هل مالأك الحظ ؟ » .

فقال يورى وكشف عن حقيقتة المكتتة :

-«أظن ذلك !»

فقال ريارانتزريف متبسّطاً :

- «إليك أشد منى ساعداً وأحكم رماية» .
- فابتهج يورى بهذا الثناء وإن كان لا يفتأ يدعى قلة الاعتداد بالقوة الجثمانية أو المهارة وقال بعبر اهتمام :
- «لا علم لي بأنى خير أو شر . وكل ما فى الأمر أن الحظ ظاهرنى» .
- وكان الظلام قد اشتد لما بلغا الكوخ وغمرت الدياتجى حقل الليمون فلم تكن العين تأخذ منه سوى صفوفه الأولى تلتمع فى ضوء النار وتلقى على الأرض ظلالاً طويلة .
- وكان الجواد واقفاً ينبفخ إلى جانب الكوخ حيث أوقدت النار من عيدان الكلا الجافة فجعلت تقعقع وهى تحترق .
- وسمعا أصوات رجال ونساء يتكلمون ويضحكون .
- وخيل ليورى أنه يعرف أحد الأصوات وكان ليناً جذلاً .
- فقال ريزانتريف وقد أخذه العجب :
- «إنه سانين . ماذا جاء به إلى هنا؟» .
- واقربا من النار . وكان كوسما ذو اللحية البيضاء جالساً بجانبها فرفع طرفه إليهما وهز رأسه مرحباً بهما وسألها بصوت غليظ عميق يخرج من تحت شاربيه المتهدلين .
- «كيف كان حظكما؟» :
- فقال ريزانتريف :
- «متوسطاً» .
- وكان سانين جالساً على جذع ضخم فرفع رأسه أيضاً وابتسم لهما .
- فسأله ريزانتريف :
- «كيف جئت إلى هنا؟» .
- فقال سانين وزاد ابتساماً :
- «أوه . إني أنا وكوسما صديقان قديمان» .
- فضحك كوسما وانفرجت شفثاه عن بقايا أسنانه الصفراء المتداعية وجعل يربت ركبته سانين بيده الخشنة وقال :



« نعم نعم . اجلسا يا أناتول بافلوفتش وذوقا هذا البطيخ وأنت ياسيدي الشاب ما اسمك ؟ » .

فقال يورى مسرورا :

« يورى نيقولا ييفتش » .

وأحسن بعض الارتباك ولكنه أحب هذا الفلاح الشيخ الرقيق وارتاح إلى لهجته الودية . وقال كوسما :

« يورى نيقولا ييفتش . أها . يجب أن نتصاقد . اجلس يا يورى » .  
فجلسا قريبا من النار على جذعين كبيرين وقال كوسما :  
« والآن اريانا ماصدتما » .

فأفرغا من الحقيبتين كوماً من الطيور المقتولة وتلوثت الأرض بدمها وكان لها في ضوء النار المضطرب منظر منفر وبدا الدم أسود اللون وكأتما كانت المخالب تتحرك .

فرفع كوسما بطة وأمر يده تحت جناحيها متحسباً . وقال :

« هذه بطة سمينة . يجب يا أناتول أن تدع اثنتين . وماذا تصنع بكل هذه ؟ » .

فقال يورى فى خجل :

« نخذها كلها » .

فضحك الشيخ قائلاً :

« لماذا أخذها كلها ؟ إنك أكرم مما يجب . لا آخذ سوى اثنتين » .

ودنا منهم فى هذه اللحظة فلاحون آخرون ومعهم نساؤهم ولم يستطع يورى أن يميز وجوههم لفرط ما ازاحت النار من نظره وكان الوجه تلو الوجه يخرج من الدجى ثم لا يكاد يظهر حتى يغيب .

ورمى سانين الطيور بعينه وهو عابس ثم أدار وجهه ونهض واستكره أن

يرى هذه المخلوقات الحميلة مكسورة الأجنحة ملطخة بالدم والتراب .

وراقب يورى كل شىء باهتمام وهو يمص بطيخة كبيرة ناضجة شهية  
قطعها له كوسما بسكين يدها من العظم الأصفر وقال كوسما :  
— « كل يا يورى . إن هذه البطيخة جيدة . إني أعرف أختك  
الصغيرة لياليا وأباك أيضاً . كل وتمتع » .

وشاع السرور في نفس يورى بكل شىء : برائحة الفلاحين والخبز  
الجديد وضوء النار والجذع الضخم الذى كان جالساً عليه ووجه كوسما كلما  
أطرق . وكان إذا رفع رأسه يلقه الظلام ولا تظهر منه إلا عيناه وكانت  
الظلمة الطاغية فوقهم تكسب المكان المضاء بهجة وأنسا .  
وكان يورى إذا رفع رأسه لا يرى شيئاً ثم لا تايث السماء الشاسعة  
الساكنة أن تبدو متألفة فيها نجومها البعيدة .

على أنه حيره أنه لا يعرف ماذا يقول لؤلؤ الفلاحين .  
وكان كوسما وسانين وريازانتزيف يحدثونهم بلا كلفة وببساطة عن هذا  
الأمر أو ذلك ولا يهتمون بأن يتخبروا موضوعاً خاصاً للكلام .

ولما انقطع الحديث سألهم :

— « كيف حال الأرض ؟ » .

وأحس أن سؤاله متكلف لا محل له فرفع كوسما لظه وقال مجيباً :  
— « سنصبر . سنصبر ونرى » .

ثم طفق يحدثهم عن حقول البطيخ وغيرها من الشئون الخاصة ويورى  
يزداد ارتباكاً وحيرة وإن كان قد سره أن يصغى إليه .

وسمعوا وقع أقدام مقبلة وظهر في الضوء كلب أحمر صغير ذنبه أبيض  
ملتو وجعل يشم يورى وصاحبه ويحك جسمه بركبة سانين فمسح له هذا  
جلده الخشن . وجاء على أثر الكلب شيخ قصير له لحية خفيفة وعينان  
صغيرتان لامعتان . وفي يده بندقية صدئة ذات خرطوم واحد . فقال كوسما :  
— « إنه الجدد حارسنا » .

وجلس الشيخ على الأرض ووضع إلى جانبه سلاحه وأقبل يتأمل يورى وصاحبه ثم قال وكشف عن لثاه المجد المشوه :

— « كمتا تصيدان؟ نعم. نعم. هاها! كوسما لقد آن أن تغلى البطاطس ». فالتقط ريبازانتزيف بندقية هذا الشيخ وأرى يورى إياها ضاحكا ، وكانت قديعة علا الصدا كل أجزاءها ، ثقيلة مشدودة بسلك ملفوف عليها ، وقال لصاحبها :

— « أى بندقية هذه؟ ألا تخشى أن تصيد بها؟ » .

أجاب الشيخ :

— « هاها . لقد كادت تفتلني مره . قال لى ستيبان شابكا إن المرء يستطيع أن يطلقها بدون . . اسطوانة . هاها . بدون اسطوانة . وقال إنه إذا كان فى البندقية مقدار من الكبريت باقياً فإنك تستطيع إطلاقها بغير اسطوانة . فوضعت البندقية المشوه على ركبتي هكذا وأطلقت زنادها بأصبعي هكذا — انظروا . فانطلقت وكدت أقتل نفسي . هاها . حشوت البندقية وأطافمتها وكدت أقتل نفسي » .

فضحكوا جميعاً وانحدرت دموع السرور من عيني يورى وما كان أمتع هذا الشيخ انضليل ولحيته الخفيفة وشذقيه الغائرين .

وضحك الشيخ كذلك حتى دمعت عيناه وحمل يردد قوله :

— « كدت أقتل نفسي ! هاها » .

وكان المرء يستطيع أن يسمع فى الظلام وراء دائرة النور ضحكاً وأصوات بنات نأى بين الحياء عن المجلس .

. وكان سائين جالسا على بضعة أقدام من النار فى مكان غير الذى توهمه

يورى .

. فأوقد سائين عود كبريت ورأى يورى فى ضوءه الأحمر عينيه الساكتين الودودتين وإلى جانبه وجه غض عيناه الرقيقتان مرنوعتان إلى سائين وفيهما نور الجدل الساذج .

فنظر ريباز انتزيف إلى كوسما وقال :  
 — « أيها الجمد أليس خيراً لك أن ترقب بعينيك حفيدتك ؟ » .  
 فأجاب كوسما عنه وأومأ بإيماءة من لا يكثرث :  
 — « ما الفائدة ؟ إن الشباب هو الشباب » .  
 وضحك الشيخ والتقط بأصابعه جمرة متقدة من النار .  
 وسمع القوم ضحكة سانين في الظلام .  
 وكأن الفتيات خجلن فقد انصرفن عنه وعادت أصواتهن وهي لا تكاد  
 تسمع .

وقال ريباز انتزيف وهو ينهض :  
 — « لقد آن أن نذهب . أشكرك يا كوسما » .  
 فقال كوسما : « لا شكر البتة » .  
 ومسح يكمه بنور البطيخ التي علمت بلحيته البيضاء . وصافحهما .  
 وأحس يورى استكراهاً لمس هذه الراحة الحشنة المعروفة .  
 ونخفت الظلمة لما نأيا عن النار ورأيا فوقهما النجوم الزهراء المقرورة  
 وقبة السماء الهائلة الجلييلة الجمال .  
 وبدا الجمالسون حول النار والخييل وكوم البطيخ في شملة من الظلام  
 وقال لهما سانين :

— « افتحا عيونكما . عما مساء » .  
 فقال يورى : « عم مساء » .  
 وتلفت وراءه ليرى قوامه الطويل وخييل إليه أن امرأة رشيقة القد  
 معتمدة على كتفه فحقق قلبه وذكر سيننا وأحس الغيرة تدب في صدره لسانين .  
 وانطلقت عجلات المركبة تخطف الأرض وجعل الجواد يتفخ وهو  
 يجرى ونخفيت عنهما النار والأصوات والضحكات وساد السكون وتطلع  
 يورى إلى السماء ورنأ إلى نجومها المنتورة ولما قاربا البلدة بدأت الأضواء  
 تسطع هنا وههنا والكلاب تنبح .

وقال ريزانتزيف ليورى :

« إن كوسما هذا فيلسوف . ألا ترى ذلك ؟ » .

وكان يورى جالسا خلف صاحبه ينظر إلى عمقه فنبهه السؤال وأيقظه مما كان غارقا فيه من الخواطر السوداء وحاول أن يفهم ما ألقى إليه وأجاب بتردد :

« آه — نعم ! » .

فقال ريزانتزيف وهو يضحك :

« لم أكن أظن أن سانين فاجر إلى هذا الحد » .

ولم يكن يورى يحلم الآن فذكر منظر سانين ومخيا الفتاة الجميل في نور الكبريت وعاودته الغيرة وما عتم أن طاف برأسه أن معاملة سانين للفتاة وضبعة مستوجبه للاحتقار فقال محجبا صاحبه :

« كلا . ما حسبته كذلك قط » .

وكان في صوته نبرة تهكم لم يلتفت إليها ريزانتزيف فألهب الجواد بالسوط وقال بعد فترة :

« إنها فتاة جميلة . أليست كذلك ؟ وأنا أعرفها . حفيدة الشيخ الهرم » .

فصمت بورى . وانقضت عنه سحابة التفكير واقتنع بأن سانين رجل

سوء .

وهز ريزانتزيف كتفيه ثم قال :

« إلى الشيطان بها ! وفي لياة كهذه أيضاً ؟ وأراني أخذت كذلك .

أسمع . ما قولك في أن نعود وأن ... » .

ولم يفهم يورى في أول الأمر ما أراد صاحبه الذى عاد فقال :

« إن هناك بضع فتيات حسان كما تعلم . ما قولك ؟ أعود ؟ » .

فصبغ الحياء وجه يورى وشاعت في كيانه هزة شهوة حيوانية ومدلت

لعينيه ونخيلاه الملتهب صور مغرية واكنه ضبط نفسه وقال بصوت جاف :

« كلا ! لقد آن أن نكون في البيت الآن » .

ثم زاد على ذلك بنجبت :

« لياليا تنتظرنا » .

فتداعى ريزانترزيف وقال :

« نعم . نعم بالطبع . نعم يجب أن نكون في البيت الآن » .

وقرض يورى أسنانه وحلق في ظهر صاحبه العريض تنسجم عليه الجاكتة البيضاء وقال متحدياً مناصباً :

« لست أحب المغامرات التي من هذا القبيل » .

فأجابه ريزانترزيف ضاحكاً في فتور :

« كلا ! كلا ! أعلم ذلك ! هاها ! » .

ثم صمت . وقال لنفسه :

« قاتلنى الله ما أغباني ! » .

وسارا بالمركبة إلى البيت دون أن ينبسا بحرف آخر وكان يخيل إليهما أن الطريق لا آخر له ولما وصلا قال يورى دون أن يرفع رأسه :

« ألا تدخل معى ؟ » .

فقال ريزانترزيف متردداً :

« أ . . . لا ! إن على أن أعود مريضاً . والوقت متأخر كذلك » .

فنزله يورى ولم يعن بأن يأخذ البندقية أو الطيور وكأنما صار يمقت كل شىء مما يتعلق بريزانترزيف فصاح به هذا :

« لقد نسيت بندقيتك » .

فالتفت يورى وعاد فأحتمل البندقية والحقيبة مهيئة المتمزز وصافح صاحبه ملفاً ودخل .

ومضى الآخر بمركبته فى بطاء مسافة قصيرة ثم انثنى فجأة وعطف على زقاق وكان يورى يسمع صوت العجلات آتيا من ناحية أخرى غير التى درجت فيها المركبة أولا فأصغى يورى وهو نائر النفس إلا أنه غائر وقال لنفسه :

« حظ سىء » وأدركه العطف على أخته .

( ١٤ )

أدخل يورى ما معه ولم يجد بعد ذلك ما يصنع فأنحدر إلى الحديقة وكان الليل كظلمة القبر وزاد فى وقعه منظر السماء وما فيها من النجوم المتألقة وكانت لياليا جالسة على إحدى درجات السلم وهى لا تكاد ترى فى الظلام فسألته :

« أهذا أنت يا يورى ؟ » .

« نعم هو أنا » .

وجلس إلى جانبها فأسندت رأسها إلى كتفه وهى كالحالمة وفاح منها غير الصبا الغض فتمحرت حواسه وقالت :

« هل آتاك الحظ فى الصيد ؟ » .

ثم سأله بعد قليل بصوت رقيق :

« وأين أنا تولى بافلوفتش ؟ لقد سمعت صوت المركبة » .

وود يورى - وقد هاج فجأة - لو يقول لها « إن أنا تولى هذا بهم

قدر » غير أنه أجابها غير محتفل :

« لا أدرى أين هو . لقد كان عليه أن يعود مريضا » .

فرددت لياليا لفظة « مريض » ولم تزد وشخصت بعينها إلى النجوم ولم يسؤها أن ريزانترزيف لم يحضر فقد كانت على نقيض ذلك تبغى الوحدة لتطلق لأحلامها وخيالها اللذيذة العنان ولا يكبحها وجوده وكانت العاطفة التى استولت على كيانها الغض غريبة حلوة رقيقة أشعرتها أنها تستقبل غاية منشودة

محتومة إلا أنها مقلقة تطوى بها صفحة ماضيها ويبدأ بها عهد جديد بالغا من  
الجلدة مبلغا جعل لياليا تحسب أنها ستصير كائنا آخر غير الأول في كل شيء .

وعجب يورى لأخته اللعوب الضحوك كيف تغرى بالسكون والتفكير  
وكان هو مكروبا مكتثبا فبدا له أن كل شيء به مثل سهومه وفتوره - كل  
شيء حتى لياليا والحديقة المظلمة والسماء البعيدة الملتمة النجوم ولم يفتن إلى  
هذه الحالة الخاملة لا تنطوي على الحزن بل على قوة الحياة نفسها . في السماء  
قوى مجهولة لا حاد لها تموج وتتصارع . والحديقة الغامضة تمتص من الأرض  
ما تحتاج إليه من العصير الحيوى . وفي قلب لياليا غبطة تامة كاملة تضمن بها  
أن تنفى سحرها أية حركة أو شعور . وفي صدرها الحب والحنين يتجاوبان  
وهي بما يخلج في نفسها منهما وضيفة كالسما المزدانة بالنجوم وعليها كالحديقة  
المستسرة نقاب يخفى ما تحته .

وسألها يورى مترفقا كأنما نحشى أن يوقظها :

« خبرنى يا لياليا . أتخبين أنا تول كثيرأ ؟ » .

فبدا لها أن تقول « كيف تسألنى عن هذا ؟ » ولكنها كبحت نفسها ودنت  
منه حتى التصقت به وفي نفسها له الشكر على أن لم يحدثها إلا عما يعينها في  
حياتها - أى الرجل الذى تحبه .

فقالت لياليا : « نعم أحبه حباً جماً » .

وكان صوتها من الرقة بحيث حزر يورى ما قالت إذ لم يكاد يسمعه وهى  
تتكلم وتحاول أن تمنع دموع الفرح . ولقد خيل إلى يورى أن فى صوتها نغمة  
أسى فزاد عطفه عليها ومقته لريازانتريف .

فسألها وأذله أن يسألها ذلك :

« ولماذا ؟ » .

فرفعت طرفها إليه مستغربة وضحكت فى رفق وقالت :

« أيها الولد الخرف ! لماذا حقاً ؟ لأن . . . اسمع ! ألم تحب مرة

فى حياتك ؟ إنه طيب شريف مستقيم . . » .



وكان بودها أن تزيد على ذلك « وهو جميل قوى ولكنها نجحت ولم  
تزد شيئاً » .

فقال يورى :

« أتعرفينه حق معرفته ؟ » .

ونخطر له أنه لم يكن ينبغي أن يسألها هذا لأنها بالبداهة تحسبه خير  
من في العالم .

فأجابته بنجمل وفي صوتها لهجة الظافر المنتصر :

« إن أنا تول لا يكتمنى شيئاً » .

فابتسم يورى وإذا كان يدرك أن لا سبيل إلى التراجع فقد ألح عليها  
بالسؤال :

« أنت على يقين جازم ؟ » .

أجابت : « نعم واثقة بالبداهة . ولماذا لا أكون على يقين ؟ » ؟  
وارتجف صوتها .

فقال يورى وبه شيء من الارتباك :

— « لا شيء . لا شيء . إنه سؤال لم أرد به شيئاً خاصاً » .

وصممت لياليا ولم يستطع هو أن يحزر ما يجري في ذهنها من الخواطر ،  
ثم سألته فجأة :

— « لعلك تعلم عنه شيئاً ! » .

وكان في صوتها ما يرم على الألم .

فحار يورى وقال :

— « لا ! لا ! كلا ماذا يمكن أن أعرف عن أنا تول بافلو فتش » .

فقالت لياليا ملحة :

« لولا أنك تعلم شيئاً لما قلت ما قلت » .

قال : « إن كل ما أعنيه هو . . . » :

ثم قطع الكلام فجأة واستحي وعاد فقال :

— « إننا معشر الرجال كلنا فساق » .

فلزمت لياليا الصمت هنيئة ثم انفجرت ضاحكة وقالت :

« نعم . أعرف ذلك ؟ » .

فلم ير أن لضحكها هذا محلا وقال بشيء من الغيظ :

« لا يحسن بك الاستخفاف بالأمر إلى هذا الحد . كذلك لا يسمعك أن

تخيطني بكل ما يجري . وأنت خالية الدهن مما في الحياصة من حقارة . أنت

أصغر سنا من أن تلمى بهذا وأنتى وأطهر » .

فقالت لياليا ضاحكة وقد سرها كلامه :

« أهذا كذلك حقا ؟ » .

ثم اتخذت لهجة الجدة فقالت :

« أتحسب أنى لم أفكر في مثل هذه الأمور ؟ لقد فكرت وآلمى وأحزنتى

أننا نحن النساء نكثر لسمعتنا وطهرنا وعفتنا كل هذا الاكتراث ونخاف

أن نخطو خطوة لثلا . . . لثلا . . . نهوى ونسقط على حين يعد الرجال

إغواء الفتاة من مظاهر البطولة . إن هذا ظلم شنيع أليس كذلك ؟ » .

فقال يورى بمرارة وإن كان على ذلك قد وجد شيئاً من الارتياح إلى

الاعتراف بمعايبه وذنوبه ولكنه اعتراف يخالطه الشعور بأنه ليس كالناس

في شيء .

— « نعم هذا أظلم شيء في الدنيا . سلى من شئت منا أيرضى أن يتزوج

من . . . ( وهم أن يقول مومسا ولكنه رد هذا اللفظ وأعتاض منه ) عنجة

يقبل لك « كلا » ومن أى الوجوه يفضل الرجل المرأة الغنجة ؟ إنها تبيع نفسها

في مقابلة المال على الأقل لترتزق وتعيش ، فأما الرجل فيطلق لشهوته العنان

بلا خجل ولا استحياء » .

فصمت لياليا .

وكان هناك خفاش يطير تحت سقف البهو رائحا بجائبا ولا يراه أحد  
واصطدم جناحاه مرات بالجدار ثم رفر ف واختفى .

وأصغى يورى إلى أصوات الليل الغريبة ثم أستأنف الكلام وقد زادت  
مرارة لهجته وصار صوته نفسه يدفعه ويستاقه فقال :

« وشر ما فى الأمر أنهم جميعاً يعرفون ذلك وهم مع هذا متفقون على  
أن الحلال يجب أن يظل كذلك ثم ترينهم يمثلون مآسى مضحكة فيسمحون بأن  
يتزوجوا ثم يكذبون على الله والإنسان . ولا يذهب ضحية أحط الفساق وأدنا  
المستهكين إلا أنقى الفتيات وأطهرهن ( قال هذا وهو يفكر فى سينا  
كرسافينا ) .

ولقد قال لى سمينوف مرة « كلما كانت المرأة أظهر كان صاحبها أقدر» .  
وأراه على صواب .

فسألته لياليا بلهجة مستغربة :

« أهذا كذلك ؟ » .

فقال يورى وعلت وجهه ابتسامة مرة :

« نعم كذلك بلا سراة » .

فتمتمت لياليا وقد خنقتها العبرات :

« لا أعرف . . لا أعرف شيئاً عن هذا »

فصاح بها يورى ولم يكن قد سمع ما قالت :

« ماذا ؟ » .

أجابت : « لاشك أن توليا ليس كالباقين ! إن هذا مستحيل » .

وكانت هذه أول مرة دكرت فيها اسم حبيبها بلفظ الإعزاز ثم طفقت

تبكى فجأة فوقع من نفسه بكاؤها وأمسك بيدها وقال :

« لياليا ! لياليا ! ماذا جرى ؟ لم أكن أقصد أن . . لا تبكى يا عزيزتى

لياليا ! ازجرى العين عن بكاها» .

ونحى يديها عن وجهها وقبل أصابعها التي بللها الدمع فقالت وهي  
تشجج :

« لا ! لا ! إن الأمر صحيح وأنا أعلم ذلك ! » .

وكان قولها أنها فكرت في هذا من قبل تخيلاً محضاً ولم تكن تدرى عن  
حياة ريزانترزيف وساوكة شيئاً . نعم إنها تعرف أنها ليست أرل من أحب  
ولا تجهل معنى هذا ودلالته ولكن وقع هذا الذي تعلمه كان غامضاً زائلاً .  
وكانت تحس أنها تحبه وأنه يحبها . وهذا هو الجوهر وما سواه لا قيمة  
له ولا وزن . فأما وقد قال أخوها ما قال بلهجة التعنيف والازدراء فقد  
خيل لها أنها على حرف هاوية واستهولت ما تحدثا عنه وحسبت أن حلم  
سعادتها قد انتسخ وأنه لا سبيل إلى إصلاح ما فسد وأنه لم يعد ثم محل  
للتفكير في حبها لريزانترزيف .

وحاول يوى وهو يكاد يبكي أن يرفه عنها وجعل يقبها ويمسح شعرها  
ولكنها ألحت في البكاء واستسلمت للأسى والمرارة كالطفل .

وأسى يورى لحزنها وما بدا له من ألمها فعدا إلى البيت وهو ممتنع اللون  
مضطرب فاصطدم رأسه بالباب وعاد إليها بكوبة ماء أراق نصفها على  
الأرض وعلى يديه وقال لها وهو يقدمها إليها .

— « لا تبكى يا لياليا ! لا ينبغي لك أن تبكى هكذا ؟ ماذا جرى ؟  
ما خطبك ؟ لعل أنا تول بافلو فقتش خير من الباقيين يا لياليا ؟؟ » .

وجعل يكرر ذلك وبه من اليأس خاطر .

ولكن لياليا ظلت تعول وترجف رجفاً عنيفاً حتى لكانت أسنانها  
تصطك بزجاج الكوبة .

وجاءت الخادمة وقالت :

« ماذا جرى ياسيدتى ؟ » .

فنهضت لياليا واتكأت على سور البهو ومضت وهي باكية تنفض  
إلى غرفتها .

فقال لها خادمتها :

« سيدتى العزيزة خبرينى ماذا حدث ؟ أأدعو سيدى والدك ؟ » .

وخرج فى هذه اللحظة أبوها نيتولاً من المكتبة يمشى بخطى بطيئة مترنة  
فلما أخذت عينه لياليا وقف فى الباب وقد أذهله منظرها وسأل :

« ماذا حدث ؟ » .

فأجابه يورى :

« لا شىء ! لا شىء ! مسألة تافهة ! لقد كما نتحدث عن ريازات تريف .  
كلام فارغ » .

وضحك ضحكة مستكرهة فنظر أبوه إليه شزراً وارتسمت على وجهه  
دلائل الغضب وصاح به :

— « ماذا بالله كنت تقول لها ؟ » .

وهز كتفيه واستدار وخرج .

فطار طائر يورى وهم بأن يجيبه جواباً عنيفاً وقحاً ولكن ما خالجه من  
الحياء أسكته وعقد لسانه . وجاش بصدره الغيظ من أبيه والتوجع  
للياليا والاحتقار لنفسه فلم يسعه إلا أن ينحدر إلى الحديقة وداس وهو يمشى  
ضفدعة تمتق فسحتها وكادت تزل قلمه فوثب صائحاً محتماً . وجعل يمسح  
قدمه مدة طويلة على الحشائش الطويلة وقد سرت فى ظهره رعدة باردة .

وعبس وأغراه الاشمزاز الجثمانى والعقلى باعتبار كل تىء مشيراً  
مستفزاً حميراً . وتلمس الطريق إلى متعد جلس عليه وشخص بعينه إلى  
الحديقة غير معتمد شيئاً على التعيين بنظره ولم ير إلا رقعاً عريضة سوداء  
فى الظلام النازل واصطخبت فى صدره ورأسه الخواطر السوداء .

ورمى بعينه إلى حيث كانت تموت تلك الضفدعة الصغيرة المسكينة  
أو حيث ماتت بعد كرب وألم هائلين . فكأنما ماتت دنيا بأسرها وزجق  
عالم برمته فيالها من حياة مفردة مستقلة لقيت حتفها الشنيع ولم يحسها أحد  
ولا سمع بها ديار !

واستطرد يورى من ذلك إلى خاطر مقلق غريب هو أن كل ما يكون  
الحياة من غرائز الحب أو البغض الخفية التي تدفع المرء إلى قبول شيء بعينه  
ورفض آخر — وإحساسه الفطري بالخير والشر ، كل هذا ليس إلا ضباباً  
رقيقاً يغطي شخصيته وحدها ويلفها ويحجبها . فأما أعمق تجاربه وأوجعها  
فلا يكثر لها العالم في جملة الهائلة كما لم يكثر لمصرع هذه الضفدعة  
الصغيرة . وكان قبل ذلك يتصور أن آلامه وعواطفه تعنى غيره فنسج من  
هذه العلاقة شبكة معقدة بينه وبين الوجود كان مصرع الضفدعة كافياً  
لتحطيمها والقضاء عليها فتركه ذلك مستفرداً يعوزه العطف والغفران .

ثم كرت خواطره إلى سمينوف وإلى ما بدا له من استخفافه بالمثل العاليا  
التي استغرقت نفسه هو وملايس غيره من الناس فراح يفكر في لذة الحياة  
الحالصة وفي سحر المرأة الجميابة وضوء القدر والبلابل وهو موضوع كان قد  
شغل خواطره في اليوم التالي لآخر حديث جرى له مع سمينوف ولم يكن  
يومئذ يفهم لماذا يهتم سمينوف بالتافه من الأمور كركوب زورق أو وجه  
فتاة حسنة ، وكيف يأتي أن يكثر لأسمى الآراء وأعمتها . فأما الآن فقد أدرك  
أن هذا لم يكن منه بد وأنه لا سبيل إلا إليه إذ كانت هذه الأمور التافهة هي  
التي تتكون منها الحياة . الحياة الحقيقية الغاصة بالإحساسات والعواطف والمتع  
واللذات — أما تلك الآراء السامية العميقة فليست إلا عبارات جوفاء باطلة  
لا يسمعها أن تؤثر أصلاً تأثير في ذلك السر الضخم المحجوب وراء الحياة والموت .  
وهب لهذه الآراء قيمة ووزناً فستعنى عليها وتحل محلها في المستقبل آراء أخرى  
ليست دونها خطراً وأهمية .

ولما انتهى إلى هذه النتيجة التي نشأت على غير انتظار من آرائه في الخير والشر حار واضطرب وأحس كأنما يواجه فراخاً هائلاً وتحرر ذهنه لحظة وصفا وشعر بالقدرة التي يشعر بها الخالم على السبح في الفضاء إلى حيث أحب دون أن تعتمد به قيود المادة فأفزع هذا الإحساس وجاهد بكل ما وسعه من قوة أن يجمع آراءه المألوفة في الحياة فزايله هذا الإحساس المرعب وعاد كل شيء جهماً ملتاناً في نظره كما كان .

وكان يورى يقول بأن الحياة هي تحقيق الحرية وأن من الطبيعي على ذلك أن يبغى المرء في حياته اللذة وأن يعيش لها . وعلى هذا تكون وجهة نظر ريبازانتزيف — على انحطاطها — منطقية معقولة إذ كان لا ينشد إلا سد حاجاته الجنسية ما أذكته ذلك لأنها الحج الحاجات وأعنفها . ولكن هذا جره إلى القبول بأن الفسوق والظهر ليسا إلا أوراقا ذابوية تكسو الحشائش النضيرة الجديدة وأن لمثل لياليا وسينا كرسامينا من الفتيات الطاهرات الحق كل الحق في الارنماء في تيار اللذة الجميانية . فأحس لهذا الخاطر صدمة واستقدره ورآه عبثاً وصبيانية وعالج أن ينفيه عن ذهنه وقلبه بعبارة الحادة القاسية المألوفة فقال وهو ينظر إلى السماء :

« نعم . إن الحياة هي الشعور ولكن الناس ليسوا بهمائم لا تعقل وعليهم أن يحكموا شعورهم وعواطفهم وأن يضبطوها وأن يوجهوا رغباتهم إلى ما هو خير . ولكن أتم إله فيما وراء هذه النجوم ؟ » .

وما كاد يسأل نفسه هذا حتى شاع في جوانب نفسه إحساس مضطرب مؤلم رهيب كاد يسحقه وألح بالنظر على نجم وضئ في ذيل الدب الأكبر وذكر أن كوسما الفلاح صاحب حقل البطيخ سمى هذه المجموعة الجلييلة من النجوم « عجلة أفتال » وضابقه أن يذكر هذا الوصف المردول الوضيع وشخص إلى الجديقة المظلمة السوداء بنظره كأنما يريد أن يقابل بينها وبين السماء الرضيئة وأن يفكر فيهما ويتدبر أمرهما . ثم قال لنفسه :

« إذا حرم العالم طهر المرأة وحسنها وهما باكورة أزهار الربيع فإذا عسى أن يبقى للإنسان مما هو مقدس جليل ؟ » .

وصور لنفسه وهو يقول ذلك سرّياً من الغادات الفاتنات كأزهار الربيع جالسات في ضوء الشمس على المروج الخضراء في ظل الأغصان المتهدلة بالثمار والنوار وجعلت صدورهن واكتافهن الرقيقة البديعة التكوين وأعضاءهن اللينة تتحرك أمام عينيه وتشيع في جسمه هزات لذة سارة وكأما أدارت رأسه هذه الصورة فأمر يده على جبينه يمسه بها .

وجعل يسائل نفسه « لماذا يثور ثائري لأن لياليا ليست بأول من أحب ريزانتزيف ؟ » .

ولم يدر كيف يجيب عن سؤال كهذا ثم مثلت لعينه فجأة صورة سينا كرسافينا ففكر ثائر نفسه . وحاول أن ينم إحساساته التي ايقظتها هذه الصورة ولكنه كان كلما عالج ذلك يزداد شعوراً بما يجعاه ينشدها كما هي : نقيّة لم تمسها يد .

وقال لنفسه لأول مرة « نعم واكسى أحبا » .

ونفى هذا كل ما عداه من الخواطر واستحوذ على نفسه حتى لجالت الدموع في عينيه . ودا هي إلا برهة ثم راح يسأل نفسه وعلى وجهه ابتسامة مرة :

« لماذا إذاً توددت إلى سواها من النساء قبلها ؟ نعم إنى لم أكن أدري أنها موجودة . وكذلك لعمرى لم يكن ريزانتزيف يعرف لياليا . وكان كلانا وقتئذ يحسب أن المرأة التي يشتهي أن يفوز بها هي الوحيدة التي لا عنى له عنها وكنا في ذلك على ضلال ولعلنا الآن مخطئون أيضاً . فلا معادى لنا عن إحدى اثنتين : أن نعب أبداً أو أن نتمتع بالحرية الجنسية دون قيد ما ونبيح للنساء مثل ما أبجنا لأنفسنا . وعلى هذا لا يكون ريزانتزيف ملوماً من أجل أنه أحب نساء غير لياليا بل من أجل أنه لا يزال على صااة بعدة منهن . وليس هذا مما أصنع أنا في شيء » .



وزهاه هذا الخاطر وأشعره الطهر ولكن هذا الإحساس لم يدم إلا هنية  
ثم ذكر ما تخيله من منظر الفتيات الحميلات اللينيات في ضوء الشمس  
وغلبه ذلك حتى ملك عليه حواسه وصار دهنه ميدانا تتدافع فيه الخواطر  
المتناقضة واتعبه النوم على جانبه الأيمن فانقلب وتمطى على الأيسر وقال  
يخاطب نفسه :

« الحقيقة أنه ما من امرأة عرفتها تستطيع أن ترضيني طول حياتي والذي  
أسميته الحب الحقيقي مستحيل لا سبيل إلى تحقيقه ومن الهذيان أن يحلم  
المرء بشيء كهذا » .

ولم يجد للتمطى على جانبه الأيسر ما قدره من الراحة فعاد إلى الأيمن  
وهو قلق يتصبب تحت الغطاء الدائم وتصدع رأسه .

« إن العذرية مثل أعلى رنى تحقيقه فناء الإنسانية فهي إذا جنون —  
والحياة ماذا هي إن لم تكن بالجنون كذلك ؟ » .

وكاد ينطق هذه الكلمات بصوت عال وعض على نواجذه حتى  
أومضت لعيه نجوم صفر .

وهكذا ظل إلى الصباح يتقلب وقد أثقلت فاهه وذهنه الخواطر الموثسة  
ولما أراد أن يتخلص منها راح يقنع نفسه أنه هو أيضاً أنانى شهوانى  
مستهتك وأن شكوكه ليست إلا نتيجة الشهوة المخبوءة . غير أن هذا لم يزد  
إلا مضاً ولم يرفه عنه إلا هذا السؤال البسيط :

« لماذا أعذب نفسي هكذا ؟ » .

وأحرقه عبث هذا التشریح لنفسه ونفدت قواه فنام .

بكت لياليا في غرفتها طويلاً ووجهها مخبوء في الوسائد حتى أخذ عينها  
الكررى وقامت في الصباح برأس متصمغ وعين منتفخة وكان أول ما خطر

لها ان البكاء لايجمل بها لأن رianza تزيف سيتغدى معها وأخلق به إذا  
 هى لجت فى البكاء أن يروعه منظرها وهيثما ثم ذكرت أن الأمر انقضى  
 بينهما فألهت هذه الذكرى حياها وأشعرتها ألماً مرا فبكت من جديد  
 وقالت وحاولت أن تحبس دموعها :

« يالها من نذالة زشاعة ! ولماذا ؟ لماذا؟ » .

وجعلت تكرر هذا السؤال كأنما غلبها البث والحزن على الحب الذى  
 ضاع وأهاجها أن رianza تزيف كان يكذبها ابدأ على هذا النحو .

« وليس هو بالكاذب وحده بل كل من عداه كانوا يكذبون مثله .  
 كانوا يدعون أنهم أتم ما يكونون سروراً بوشك زواجنا ويزعمونه رجلا  
 شريفا طيبا ! لا لا ! إنهم لم يكذبوا فى الواقع ولكنهم لم يروا أن  
 زواجنا خطأ . وما أشنع ذلك منهم ! » .

وهكذا خيل لها أن كل من حولها أشرار بغضون فأسندت جبينها  
 إلى زجاج النافذة ونظرت إلى الحديقة من خلال درعها وكانت الحديقة  
 فى ثوب من الجهادة . والمطر يضرب زجاج النافذة فلم تدر أيهما حجب  
 الحديقة عن عيناها : المطر أم دموعها . وكانت الأشجار كاسفة ولم يزل  
 القطر عن أوراقها الصفراء ولا تكاد تبدو غصونها السوداء من خلال  
 خطوط الديمة السحابة السكوب التى أحالت ممشى الحديقة مستنقعا من الطين .

وأحست لياليا أنها شقية وأرسلت طرفها إلى المستقبل فلم ترفيه  
 نجم أمل واحد يومض وكرت إلى الماضى فإذا هو مظلم .  
 وجاءت الخادمة تدعوها إلى الإفطار فسمعت لياليا ألقاظها ولكنها  
 عجزت عن فهم معناها .

ولما جلست إلى المائدة ألقت نفسها مرتبكة كلما خاطبها أبوها ولم  
 يخامرها شك فى أن كل الناس قد أحاطوا علما الآن بغدر حبيبها وزيف  
 حبه فبادرت إلى العود إلى غرفتها وجلست مرة أخرى تنظر إلى الحديقة  
 الساهمة الموحشة .

« لماذا يغادر؟ وما الذى يدفعه إلى إبنائى وإبلايى؟ أترى يفعل هذا لأنه لا يحببى؟ كلا! إن توليا يحببى وأحبه . إذاً فإدا؟ إن الأمر هذا : لقد خدعنى وكان فى خلال ذلك يخطب وداد كل امرأة مقبوحة . فبإعجاب ، أحببته كما أحبه؟ »

سألت نفسها ذلك فى دلالة وحرارة ثم قالت :

« تالله ما أحقتنى ، ما خير أن أقطع قلبى بالأسى والتفكير فى هذا؟ لقد خاننى عهدى فانقضى الأمر بينى وبينه ، آه ، ما أتم شقاوتى ! نعم يحق لى أن أقطع قلبى أسى ، لقد غدر بى ، وكان يجدر به أن يعترف لى بذلك على الأقل ولكنه لم يفعل ، فبالها من نذالة ، يقبيل زمراً من النساء غيرى ، ولعله أيضاً ..... يا للشناعة ، ربحى لقد صرت شقية ! »

ثم غنت نفسها :

« وثبت ضفدعة فى الطريق ورجلاها ممدودتان » .

تلك كانت اغنيتها وهى تنظر إلى ضفدعة صغيرة تثب فى الطريق الزل .  
ثم عادت تحدث نفسها بعد أن اختفت الضفدعة بين الحشائش :

« نعم أنا شقية وقد قضى الأمر . وما كان أحلى ما مر بى من عهد حبى هذا وأحفظه بالغرائب الممتعة أما هو .. فلم يكن الأمر فى نظره إلا مسألة عادية مألوقة ! وأحسبه لهذا كان يحاذر أن يحدثنى عن ماضيه ! وهذا أيضاً فيما أظن سر ما كان يبدو لى من غرابة شأنه ومن هيئة التفكير التى كانت تلازمه . كأنما كان يقول لنفسه أبداً « إنى خبير بهذا وأنا أعرف ما تحسبته واستطيع أن أنكهن بالنتيجة بينما كنت أنا طول هذا الزمن ... آه ما أقطع هذا وأشنعه ! ألا لن أحب أجدا بعد ذلك ! » .

ثم بكث مرة أخرى وأسندت خدها إلى الزجاج البارد وشخصت بعينها إلى العمال السائر ولم تكف عن مناجاة نفسها :

« ولكن توليا سيحضر للغداء اليوم ! » .

وارتجفت لهذا الحاضر :

« فهاذا عسى أن أقول له ؟ ماذا ينبغي لمثل أن يقوم لمثله في هذه الأحوال ؟ » .

وفتحت فيها وأتارت نظرها إلى الحائط :

« لا بد لي من سؤال يورى في هذا . إيه ما أطيب يورى وأقومه ! » .  
وجالت دموع العطف في عينيها . ولما كانت لم تألف أن ترجىء أمراً ما فقد  
خذت إلى أخيها في غرفته حيث ألفت معه شافروف يناقشه في مالا تعلم فوقفت  
مرددة في الباب وقالت بشيء من الدهول :

« عما صباحا » .

فأجابها شافروف :

« عمى صباحا ! تفضلى بالله يالاليا ! إنه لاغنى لنا عن عونك  
في هذا الأمر » .

فلم يفارقها ارتباكها واطاعت وجلست إلى المنضدة وجعلت تعبت بأصابعها  
ببعض الأوراق الخضراء والصفراء المكومة فوقها .

وانفتت إليها شافروف التفاتة من يهم بجلاء معضل وقال :

« المسألة هي أن كثيرين من زملائنا في كورسك في ضيق وكرب  
شديدين ولا بد لنا من بذل كل ما يسعنا بذله لمساعدتهم ومن أجل هذا فكرت  
إحياء ليلة فهل توافقين ؟ » .

فأذكرها سؤاله وعباراته المألوفة ما جاءت من أجله إلى أخيها فنظرت إليه  
بعين ملؤها الأمل وقالت وهي تعجب لماذا يتقى يورى لحظتها :

« لم لا ؟ إنها فكرة حسنة جداً ! » .

وكان يورى بعد الذى شهده من بكاء أخته وما كابده من الخواطر المقلقة  
طول الليل - يحس أنه أشد اكتئاباً وحزناً من أن يستطيع أن يكلم أخته . ولقد  
توقع أن تقصده إليه طلباً لمشورته ولكنه شعر أن الإشارة عليها بشيء مرضي

مطلب بعيد . كذلك من المستحيل استرداد ماقاله ليرفه عنها ويسرى  
أحزانها وليدفعها إلى ذراعى ريزانترزيف . ولم يشعر بالقدرة على انقضاء على  
سعادتها الوليدة .

وعاد شافروف إلى الكلام ودنا من لياليا كأنما زاد الأمر تعقداً  
أو إشكالا :

« حسن . إن الذى قررنا أن نفعله هو هذا : نريد أن نطلب إلى ليذا  
سانين وإلى سينا كرسافينا أن يغنيا - كل منهما على حدة أولاً ثم بعد ذلك  
معاً وليس أصاح من صوتيهما للغناء المشترك فإذا فرغا عزفت على الكمنجاتم  
بعد ذلك يغنى سارودين ووجه تاناروف » .

فسألته لياليا بلا تعمد وهي تفكر فى شىء آخر :

« إذا فسيشترك الضباط فى الحفلة أليس كذلك ؟ » .

فصاح شافروف ولوح بيده :

« نتم بلاشك ، وما على ليذا إلا أن تقبل فتلتف بها جمهرة منهم  
كالزناير . أما من حيث سارودين فهنا يسره أن يغنى وهو لا يكثر  
للمكان مادام يستطيع أن يغنى وسيجتنب غناؤه عدداً جماً من زملائه  
الضباط فيخص المكان » .

فرمت لياليا إلى أنخبها بنظرة ذات معنى وقالت :

« يجب أن تدعو سينا كرسافينا » .

رحدثت نفسها قائلة :

« لا أحسبه قد نسى . كيف يكلمنى فى شأن هذه الحفلة وأنا ..... » .

فقال شافروف :

« لقد قلت لك منذ هنيهة أننا دعوناها ! » .

فقالت لياليا :

- « نعم قلت ذلك » .
- وابتسمت : « وهناك أيضاً ليذا ولكنك ذكرت اسمها فيما أظن ؟ » .
- قال شافروف : « نعم فعلت . ومن ندعو غيرهما ؟ » .
- فتمتمت لياليا :
- « لا أدري والله ! .... إن برأسى صداعاً » .
- فنظر يورى إلى أخته مسرعاً ثم استأنف الإكباب على الأوراق وحرك عطفه عليها اصفرارها وثقل جفونها وقال لنفسه :
- « لماذا قلت لها كل هذا ؟ إن المسألة غامضة مستهمة المعالم فى رأى ورأى الكثيرين من الناس . ولا مفر للمسكينة الآن من تعب القلب والخطاير . فلماذا خبرتها ؟ » .
- وأحس كأنما سيهم بتمزيق شعره .
- وفى هذه اللحظة دخلت الخادمة وقالت :
- « سيدتى إن المسيو أناتول بافلوفتش قد حصر ! » .
- فأسرع يورى وألقى إلى أخته نظرة فزعة فالتقت عينه وعينها فأشاحت لارتباكها بوجهها عنه إلى شافروف وقالت على عجل :
- « هل قرأت شارل برادلاف ؟ » .
- أجاب : « نعم قرأنا بعض كتبه مع دوبروفا وسينا كرسافينا . إنها ممتعة ! » .
- قالت : « نعم . أو قد عادتا ؟ » .
- أجاب : « نعم » .
- فسأل يورى وكم انفعاله :
- « متى ؟ » .
- قالت : « منذ أول من أمس » .
- فقال يورى : « حقاً ؟ » .

ونظر إلى أخته وخجل منها وأحس الخوف في حضرتها كأما كان قد خدعها .

وظلت لياليا لحظة وهي واقفة مترددة تعيث بأصابعها بكل شيء ثم دنت من الباب .

فقال يورى مخاطباً نفسه « ويحي ماذا صنعت ؟ » وأصغى وهو مكروب إلى وقع قدميها المتعثرتين .

ودمضت لياليا إلى الغرفة الثانية مترددة حزينة وأحست كأما جمد الدم في عروقها وكأنما هي تائهة في غابة مظلمة فنظرت إلى امرأة ورأت في صقالها وجهها المقطب وقالت تحدث نفسها :

« سيراني بهذا الوجه ! » .

وكان ريباز انتزيف واقفاً في غرفة المائدة يقول لنيقولا بصوته الخلو :

« بديهي أن هذا غريب ولكنه لا بأس منه » .

فلما سمعت لياليا صوته خفق قلبها خفقاً عنيفاً كأنما بهم أن يتمزق وأبصرها ريباز انتزيف فكف فجأة عن الكلام وتقدم إليها وذراعاها مفتوحان ولم يكن أحد سواها يعلم أن هذه الإشارة دليل على أنه يريد أن يحتضنها .

فرفعت إليه طرفها في حياء وارتجفت شفتاها ونزعت كفها من كفه دون أن تنبث واجتازت الغرفة وفتحت الباب الذي يفضى إلى الشرفة وجعل ريباز انتزيف يرقبها وهي تفعل ذلك — وهو هادىء غير أن به بعض الدهشة . والتفت إلى أبيها وقال بوقار المازح :

« إن لود ميللا ناهرة ! » .

فانمجر الأب نيقولا يضحك وقال :

« الأرى أن تذهب إليها وتأنفها » .

فتهد ريباز انتزيف وقال مهينة مضحكة وهو يتبعها إلى الشرفة :

« ليس ثم غير ذلك » .

وكان المطر لا يزال يهطل وفي الجو صوت قطراته المتساقطة المملة  
واكن السماء كانت أصفى والسحب متقطعة .

وكانت لياليا واقمة ونحدها الى أحد عمدان الشارقة والمطر يضرب  
يدها العارياة وشعرها مبتل

فقال ريزانتريف وهو بدنو منها

« أن سيدتى غاضبة . . . . . لياليتشكا ! . . »

ومنح شعرها العطر البابل قباة خفيفة فأحست كان شيئاً يذوب في  
صدرها ويتمثال وأقبلت عليه وهى لاتدرى ماتصنع وطوقت عنق  
حببيها القوى بذراعيها وامطرته وابلا من اللثام وهى تقول بينها :

« لى مستائة جداً جداً منك . . . أنت رجل شرير »

وكانت فى خلال ذلك تقول لنفسها أن ليس فى الأمر بعد كل  
مايقال سوء لاسبيل الى إصلاحه كما حسبت من قبل . وماذا بهم ؟ أن  
كل ماتريده هو أن تحب هذا الرجل الكبير الجميل وأن يحبها .

ولما جلسا بعد ذلك الى المائدة آلمها من أخيها نظرة اليها مستغربة  
وما سنحت لها الفرصة حتى أسرت اليه « أن هذا منى فظيع وأنا  
أعرف ذلك »

فلم يزد على أن ابتسم ابتسامة مجتواة .

وكان يورى فى الواقع قد سره أن الأمر انتهى على هذا الحال الحسن  
وإن كان على هذا قد ذهب يدعى استنكار هذا التسامح العامى  
واحتقاره فانسحب الى غرفته ومكث بها وحده الى المساء

ولما آذنت الشمس بالمغيب ورأى السماء صافية احتمال بندقيمة على  
نية الذهاب للصيد فى حيث صاد هو وريزانتريف أمس .

وكان المطر قد أكسب هذه الحركة حياة جديدة فكان المرء يسمع



أصواتنا غريبة كثيرة والحشائش تترنح كأنما تحركها قوة حيوية خفية والضفادع تنفق جماعات والطيور من حين إلى حين ترسل أصواتا حادة متنافرة والبط يصبح بين الأعشاب والأكلاء البائلة على مقربة من يورى وأن كان أبعد من ملدى بندقيته . ولم يحس الرغبة فى الصيد فاحتمل بندقيته وانثنى آيبا يصغى الى أصوات الصفاء البلورى فى الغسق الساكن ثم قال :

« ما أجمل هذا كل شىء جميل الا الإنسان فهو وضع . »

وأخذت عينه النار موقدة على بعد فى حقل البطيخ ولما اقترب عرف فى ضوءها وجهى كوسيمًا وسانين فاستغرب ونزعت نفسه الى استطلاع السر « ولماذا يدأب على المجرى الى هنا ؟ »

وكان كوسيمًا جالساً الى جانب النار يقص حكاية وهو يضحك ويومئ وسانين يضحك كذلك وكان طيب النار خفيفا كلسان الشمعة ورديا لأحمر قانئاً كما يكون فى ظلمة الليل . وفى قبة السماء الزرقاء طلائع النجوم تتوامض وفى الجو رائحة الجلدة غب المطر وشذى النبات المطاول .

وخاف يورى لسبب ما أن يرياه وأحزنه فى الوقت نفسه أن لا يستطيع أن يلحق بها ويكون معهما فكأنما قام بينها وبينه حجاز كاذب غير مفهوم أو فضاء لاجو فيه أو بون لاسبيل الى تخطية . .

وثقلت على نفسه وطأة هذا الإحساس بالعزلة . وتجسم له أنه مستفرد وحيد وأنه واقف بمعزل عن هذه الدنيا بأصواتها وألوانها ونيرانها ونجومها وأصواتها الآدمية كأنما هو ملقى به فى غرفة حالكة وبلغ من جثوم هذا الشعور بالوحدة أن خيل له وهو يجتاز حقل البطيخ حيث كانت مئات منه أن هذه ليست سوى جماجم آدمية مبعثرة فوق ظهر الأرض .

( ١٦ )

جاء الصيف بالحرارة والدفء فكان الجو بين الارض الساخنة والسماء

الرقاء المشرقة الصنمجة كأنما يغشاها ويسبح فيه نقاب خفيف من البخار الذهبي وكأنما أرهق الحر الأشجار فنامت وألقت أوراقها المتدللية الساكنة ظلالات شفافة قصيرة على الثرى الظامىء الحاف . وفي البيوت الرطوبية . والحدائق ترسل ألواناً خضراء باهتة ترسمها الأضواء على السقوف وكل شىء ساكن ما خلا الستائر المجموعة إلى جوانب النوافذ . هذه وحدها كان النسيم الوانى يعاينها .

وكان سارودين فى جاكنة من التيل مفكوكة الازرار يقطع أرجاء الغرفة فى بطء وهو يدخن سيجارة فى كسل وفتر ويكشف عن أسنانه الكبيرة البيضاء . وعلى الكنبه تاناروف فى ثياب الركوب متمطياً يلحظ سارودين بعينيه الصغيرتين السوداوين . وكان فى أشد الحاجة إلى خمسين روبلا وقد طلب إلى سارودين مرتين أن يسلفه أياها ولم يجرؤ على معاودة الكرة مرة ثالثة . فجعل ينتظر فى قلق أن يعود سارودين من تلقاء نفسه إلى الموضوع ولم يكن سارودين قد نسى ولكنه كان قد قامر وأضاع سبعمائة روبل فى الشهر الماضى فضعن على صاحبه بأى قرض آخر . وكان يقول لنفسه وهو ينظر إلى تاناروف إذ يمر به « أن عليه لى دائتى روبل وخمسين روبلا . وهذا مدهش حقاً ! نعم نحن صديقان حميان الخ ولكنى أعجب له كيف لا ينجبل . أنه على الأقل يستطيع أن يعتذر إلى دن أنه ملدين لى بكل هذا المبلغ . كلا . لن أقرضه درهما واحداً آخر » .

ودخل فى هذه اللحظة خادمه وهو جندى صغير الجسم منقط الخلد ووقف بشكل محتوى وحيا وقال وهو لا ينظر إلى سارودين :

« سيدى لقد طلبت جعة ولكنه لم يبق منها شىء »

فنظر سارودين على غير إرادته إلى تاناروف وأحمر وجهه وقال لنفسه :

« حقاً أن هذا أكثر مما يطافى ! أنه يعلم ما أنا فيه من الضيق ومع

ذلك لا بد من الجعة ! » .

وزاد الخادم على تجربته السابق :

« والباقى من الفودكا قليل أيضاً »

قال « حسن . لعنة الله عليك ! أنه لا يزال معك روبيلان فاذهب واشتر ما تريد » .

أجاب « عفواً سيدي، فليس معنى شىء على الإطلاق » .

فوقف سارودين وصاح به :

« كيف هذا ؟ ماذا تعنى بالكذب على ؟ » .

قال « عفواً ياسيدي . لقد أمرت أن أتقذ الغسالة روبيلاً و٧٠ كوبيك

ففعلت ووضعت الثلاثين الباقية على المنضدة » .

فقال تاناروف متكلفاً عدم الاهتمام وإن كان على هذا قد احمر خجلاً :

« نعم هذا صحيح . لقد أمرته بهذا أمس وكانت المرأة لم تزل تتبعني

منذ أسبوع وأنت تعلم ذلك » .

قادت على خدى سارودين الخليقين المصقولين نقتطتان حمروان وتبضت

عضلات وجهه واستأنف رواجه ومحيثه فى صمت تم ما عثم أن وقف بغتة

أمام تاناروف وقال والغضب يرعش صوته :

« اسمع . إنى أكون شاكرآ جداً إذا تركتني أدير شئونى المالية فى المستقبل » .

فاحتقن وجه تاناروف وتمتم وهو يهز كتفيه :

« ه . م ! ومسألة تافهة كهذه ! » .

فقال سارودين :

« أنها ليست مسألة توافه . بل مسألة مبدأ . فهل تسمح لى أقول لك

بأى حق . . . » .

أجاب « أنا . . . » .

وقاطعه سارودين بنفس هذه اللهجة الجارحة وقال :

– « أرجوك أن لا تشرح لى شيئاً . وليس يسعنى إلا أن أرجوك أن لا تستعمل هذه الحرية مرة أخرى » .

فارتجفت شفتا تاناروف وتدلى رأسه وجعلت أصابعه تعبت « بفم » سيجارة .

وبعد لحظة استدار سارودين بحدة وأخرج مفاتيحه وفتح درج مكتبه وقال :

« خذ واذهب واشتر ما نريد ! » .

قال ذلك بصوت أهدأ وأعطى الجندى ورقة بمائة روبل .

فقال الخادم : « حسن يا سيدى » .

وحيا وخرج .

ثم أغلق سارودين صندوق نقوده ورد الدرج وأدار فيه المفتاح واستطاع تاناروف أن يرى الصندوق الذى يحتوى الخمسين روبلا التى به الحاجة إليها ثم تنهد وأشعل سيجارة وهو على أشد ما يكون ألماً ولكنه خشى أن يظهر ألمه لئلا يزداد سارودين غضبا واكتفى بأن يقول لنفسه :

« ما قيمة روبيلين عنده ؟ أنه يعلم علم اليقين أن فى ضيق شديد » .

وظل سارودين يروح ويجيء فى الغرفة والغضب باد عليه إلا أنه كان يهدأ شيئاً فشيئاً ولما عاد الخادم بالجمعة كرع كوباً من هذا الشراب المرغى المتلجج بالتذاذ واضح وبعد أن مص حافة شاربيه قال كأنما لم يكن قد حدث شىء :

« لقد عادت ليذا إلى أمس ! تالله ما أحلاها ! حارة حامية ! » .

وكان تاناروف لا يزال متوجعاً فلم يجبه ولم ياتمت سارودين إلى صمته . واجتاز الغرفة فى ببطء وفى عينه ضحكة ذكري مكتومة . وجعل الحر كيانه القوى الصحيح أحس بتأثير الخواطر المتيرة . ثم ضحك ضحكة قصيرة فكأنما كان يصهل ثم وقف وقال :

« تعلم أفي البارحة حاولت ... »

وهنا استعمل لفظة خشنة وضيعة لا يليق أن يشار بها إلى امرأة واستأنف الكلام .

« فتأبّت قليلاً في أول الأمر ؛ بالنظرة عينها ! أنت بالضرورة تعرف » .

فابتسم تاناروف ابتسامة الشهوان وقد ثارت غرائزه الحيوانية .

وقال سارودين والذكرى ترعش منه .

« ولكن بعد ذلك لانت أعطاف الأمور . لم يمر بي مثل هذا الوقت في حياتي كلها » .

فقال تاناروف حاسداً أياه :

« ما أسعد حظك ! » .

وصاح بهما صوت من الشارع :

« هل سارودين هنا ؟ أندخل ؟ » .

وكان السائل هو إيفانوف ففزع سارودين وأشفق من أن يكون ما قاله عن ليذا قد سمعه أحد ولكن إيفانوف كان يناديه من السكة ولم يكن بحيث يرى فصاح به سارودين من النافذة .

« نعم . نعم هنا » .

وعلمت في الغرفة الأخرى جارية ضحك ووقع أقدام كأنما غزا البيت جيش من أهل القصف ثم دحل إيفانوف ونوفيكوف والكبتن مالمينوسكى وضابطان آخران وسائين وصاح مالمينوسكى وهو يدفع بمسه داخل العرفة .

« هوراه ! كيف أنتم أيها الصبيان ؟ »

وهو رجل وجهه أحمر وخدها سمينان طريان وله شاربان تحالها عودين من القش .

وقال سارودين يحدث نفسه مغضباً :



البيضاء وقسمات وجهه المليحة وصوته — كل هذه كانت سهاما أو خناجر في جرح رغييب فاغر .

وقال ضابط طويل نحيف له ذراعان طويلتان :

« سارودين ! لقد جئت إليك بكتاب » .

وسمع نوفيكوف وسط الصخب العالى اسم سارودين يذكر وصك أذنه صوته كذلك كأنما كانت السنة الحضور خرساء وقال .

— « أى كتاب ؟ »

فقال الضابط الهزيل ورفع صوته كأنما يلتقى بيانا :

« إنه كتاب عن النساء بقلم تولستوى » .

وكانت على وجهه الطويل الهضم آيات الزهو والمباهاة بأنه يقرأ

تولستوى ويبحثه .

فسأله إيفانوف وقد لاحظ دلائل هذا الزهو .

« أو تقرأ تولستوى ؟ »

وقال مالتوسكى مجيباً عنه :

« إن فون دايتز مجنون بتولستوى » .

وتناول سارودين الكتاب الصغير وقلب بعض صفحاته وقال .

« أهو الذيد ؟ »

فقال فون دايتز بحماسة :

« سترى . لعمري أنه لعقل ! ويخيل لك بعد قراءته كأنما كنت تعرف

هذا من قبل ! »

فسأل نوفيكوف بصوت منخفض وعيناه إلى الكأس في يده .

« ولكن لماذا تطالب إلى فيكتور سر جيفتش (سارودين) أن يقرأ تولستوى

مع أن له آراء خاصة عن النساء ؟ »

فقال سارودين بخنجر وقد استروح نية المحوم :

« ما الذى يجعلك تظن هذا ؟ »

فصمت نوفيكيوف وكان يود أن يلطم سارودين على وجهه الحسن الذى يتم على الرضى عن النفس وأن يطرحه على الأرض ويلكزه لكز من طغى بصدره ورأسه جنون العاطفة . ولكن الألفاظ التى يطلبها خاتنه . وأدرك - وآلمه أن يدرك - أنه ينطنى بما لا يريد حين قال :

« حسب المرء أن ينظر إليك ليعرف ذلك » .

فأحدث لهجته الغريبة المنذرة سكوناً مبالغاً كما نما ارتكبت جريمة

قتل وفطن إيفانوف إلى سر المسألة وقال سارودين بهرود :

« تخيل إلى أن . . . . »

وتغيرت هيئته قليلاً وإن كان قد ملك عواطفه وضبطها .

فصاح بهما إيفانوف :

« مهلاً مهلاً يا سادى ، ماذا حدث ؟ »

فقال سانين مقاطعاً :

« لاتدخل بينهما ، دعهما يقتتلان ويفرغان من الأمر » .

وعاد نوفيكيوف فقال مجيباً سارودين بنفس اللهجة وعيناه إلى

كأسه :

« ليس فى الأمر تخيل وإنما هو كذلك » .

ولم يكده يقولها حتى حال بين المتنافسين حائط من اللحم والدم وكثير الصياح والتلويح بالأذرع واطلقت الألسنة بعبارات المزاح والدهشة وأمسك ماينوسكى وفون دايتز بسارودين ورد إيفانوف والضباط الآخرون نوفيكيوف وأترع إيفانوف الكؤوس وقال شيئاً غير معتمد أحداً بخطابه وصار السرور متكلفاً لا إخلاص فيه زأحس نوفيكيوف أن خروجه واجب ولم يطق البقاء فابتسم ابتسامة خرقاء والتفت إلى إيفانوف والضباط انذين كانوا يعالجون أن يانفتوا نظره إليهم وقال يحدث نفسه .



« ماذا دهاني ؟ أحسب أن واجبي أن أضربه . . . أن أهجم عليه  
والكده في عينه ، وإلا عدوني طفلاً إذ لا بد أن يكونوا قلب حذروا  
أني أتحكمك به .. »

ولكنه بدلاً من أن يفعل هذا ادعى الاهتمام بما يقوله إيفانوف  
وفون دايتز .

وقال فون دايتز .

« أما من حيث النساء فاست أوافق تولستوى كل الموافقة » .

فقال إيفانوف :

« إن المرأة ليست إلا انثى . وقد تجد في كل ألف رجل واحداً  
جديراً بأن يسمى رجلاً فأما النساء . . . ويجهن أنهن جميعاً سواء ولسن  
إلا قردة عارية حمراء ولكنها بغير أذنان »

فقال فون دايتز موافقاً .

« ما أذكي هذا ؟ »

فقال نوفيكوف بمرارة .

« بل ما أصدقه ، »

واستمر إيفانوف ملوحاً بيديه قريباً من أذن صاحبه فقال .

« يا سيدى العزيز . اسمع . إذا ذهبت إلى الناس وقلت لهم ( إن  
المرأة إذا نظرت إلى الرجل نظرة اشتهاة فقد زنت معه في فلها ) - كان  
الأرجح أن يعد أكثرهم هذا القول صحيحاً مبهكراً » .

فأخرج فون دايتز ضحكة جشاة كأنها نباح الكلب ولم يكن قد فهم  
نكتة إيفانوف غير أنه على هذا أسف لأنه لم يقلها دونه .

وإنهم كذلك وإذا بنوفيكوف يمد يده إلى فون دايتز فقال فون

دايتز مستغرباً :

« ماذا ؟ أذهب أنت ؟ »

فلم يجر نوفيكوف جواباً . وسأله سانين :

« إلى أين ؟ »

فضال نوفيكوف صامتا وهو يحس كان الألم المكثوم يوشك أن ينهمر دموعا .  
فقال سانبين .

« إلى أعرف ما بك . ابصق على كل ذلك . »

فرى إليه بنظرة من يرثى له وارتجفت شفتاه وأوما إيماءة الأسف وخرج في صمت والإحساس بعجزه يخمره فقال ليتسلى ،  
« ما خير أن أنظم هذا النذل على وجهه ؟ أن هذا ما كان ليفضى إلا إلى قتال سخيف ولخير لى أن لا ألوث يدي » .

ولكن الغيرة النائرة والإحساس بالعجز ظللا ضاغطين فعاد إلى بيته وهو في أشد حالات الغم والأسى والتى بنفسه على الفراش وأخفى وجهه في الوسادة وظل كذلك بقية النهار وبه ما به من مرارة الشعور بأن لا حياة له



وسأل مالميتوسكى زملاءه :

« الان لعب الورق ؟ »

فقال إيفانوف :

« حسن جداً » .

وجاء الخادم بمنضدة اللعب وعليها غطاؤها الأخضر يستهويهم جميعاً . وكان اقتراح مالميتوسكى قد أيقظهم فجعل ينقل الأوراق بكفيه الصغيرتين الكثير في الشعر وانتشرت على المائدة الخضراء الأوراق الزاهية وسمع رنين الروبيلات الفضية بعد كل دور أو صارت الأصابع تطبق عليها كالعناكب ولم تند عن الأفواه إلا عبارات وجيزة مصرحة عن السرور أو الكمد .

وخذل الحظ سارودين فذهب إلى العناد وأصر على المخاطرة في كل شوط بخمسة عشر روببلا وكان يخسرها في كل مرة وصار وجهه ناطقاً

بالألم الشديد وكان في الشهر الماضي قد قاهر وخسر سيمائة روبل يضاف إليها كل مذهب اليوم وأعدى غيره بسوء خلقه فلم يلبس فون دايتز وماليتوسكى أن تراشقا بالعبارات الجارحة

فصاح بهما سارودين وألقى ورقة :

« ويحكم ما معنى هذا كله ؟ »

وفي هذه اللحظة ظهر قادم جديد في مدخل الغرفة . فمخجل سارودين لانفجار مرجلي غضبه وانطلاق لسانه بعبارات العامة ولوجود هؤلاء الضيوف المخمورين الصاخبين ولأوراق اللعب وزجاجات الخمر وخيل اليه أن غرفته قد صار لها منظر الحمارة

وكان القادم رجلا نحيفا طويلا في بدله بيضاء فضفاضة وأنيقة عالية فوقف على العتبة منزهولا وجعل يتأمل الحضور باحثاً عن سارودين بينهم

فصاح سارودين وتقدم اتحيتية ووجهه كالجذير من الغيظ

« أهلا بك يا بافل لفوقتش ! ماذا جاء بك »

ودخل القادم بهيئة المتردد وصارت كل العيون قيد حدائيه الأبيضين الناصعين وهو يخطو بهما على حذرين زجاجات الجمعة وسداداتها وأعقاب السجاير وكان من البياض والنظافة والتعطر وحسن الهندام بحيث صار بين سحب الدخان المعقود في جو الغرفة ودرسليها السكارى أشبه شيء بالزنبقة في المستنقع لولا خورة وذبوله ولولا أن قسمت وجهه ضعيفة وأسانه البادية تحت ساربيه الخفيفين الأحمرين - متداعية .

فقال سارودين :

ومن أين جئت أغبت طويلا عن بتجر (١)

ثم أدركه الخوف من أن تكون بتجر لفظه لا يجمل بمثله استعمالها

(١) اسم علمي لبتروغراد .

فقال الرجل ذوالثوب الأبيض بلهجة باثة وإن كان صوته كصياح الديك المكتوم :

« جئت أمس فقط » .

فقال سارودين وقدمه إلى الحاضرين :

« هذا هو المستر بافل لفوفتش فلوتشين » .

فاتحني فلوتشين قليلا وقال لبفانوف وكان ثملا فأزعج سارودين :

يجب أن تدون هذا !

« تتصلل واجلس يا فلوتشين . أتشرب نبيذاً أم جمعة ؟ »

فجلاس فلوتشين ببطاء وحذز على كرسي ذى ذراعين فظهر نصوع

ثوبه إلى جانب الغطاء القنز وقال برود ودارت عينه فى الحضور :

« أرجوك أن لاتتعب نفسك . انما جئت لأراك هنيهة »

فسأله سارودين :

« كيف تقول هذا ؟ سأطلب لك نبيذاً أبيض . فإتلك تحية أليس كذلك ؟ »

وأسرع فخرج وهو يقول لنفسه :

لماذا شاء هذا الأحمق أن يأتى إلى اليوم ؟ إنه سيروى عنى فى بطرسبرج ما يجعل

من المستحيل على أن تطأ زحلى عمبة بيت محترم فيها »

وبعث خادمه ليشتري النبيذ

وفى خلال ذلك كان فلوتشين ينقد الحاضرين نقداً صريحاً وبنظر اليهم نظر

الموقن أنهم دونه بمراحل . ويقلب فيهم عينة الرجاجية تقلب من يعرض مجموعة

من الوحوش ووقع من نفسه على وجه الخصوص قادة سائين ووثاقه تركيبه

وثيابه فقال لنفسه

( هذا نوع ممتع ! ولا بد أن يكون قويا ! )

وبه إعجاب الضعيف الحوار للقوى الباطش . والواقع أنه اعتم أن انطلق

يكلم سائين غير أن سائين كان متكئا على حافة النافذة ينظر إلى الحديقة

نكف فيوتشين عن الكلام وغازطة حتى صوته وحدث نفسه أن هؤلاء ليسوا

الاحتمالة الخلق

وعاد سارودين في هذه اللحظة وجلس بجانبه وجعل يسأله عن بطرسبرج وعن مصنعه ليفهم الحاضرين أن زائره رجل ثرى خطير الشأن وبدت على وجهه الوسيم دلائل الزهو والغرور الحقيق فأجابه فلوتشين بلهجة السأمان :

« كل شيء هناك كما كان ! وكيف حالك أنت ؟ »

فقال سارودين وأخرج زفرة :

« لى أعيش عيشة النبات »

فصمت فلوتشين ورفع طرفه بازدياء إلى السقف حيث كانت تلتصع الأضواء المنعكسة عن الحديقة .

وعاد سارودين إلى الكلام :

« إن سلوتما الوحيدة هي هنا »

وأشار إلى الورق والزجاجات والضيوف .

فقال فلوتشين .

« نعم نعم ، »

وخيل لسارودين أن صاحبه يقول له « أنك لست بخير منهم .. »

ثم وقف فاوتشين يودع صاحبه وقال

« يجب أن أذهب الآن . لى مقيم بالفندق القائم في الميدان وأرجو أن

أراك مرة أخرى ، »

وفي هذه اللحظة دخل الخادم وحيابيه رثة وقال :

« سيدى أن السيدة الصغيرة هناك »

ففزع سارودين وصاح به :

« ماذا ؟ »

اجاب : « لقد حضرت ياسيدى »

فقال سارودين :

« آه ! نعم سمعت »

وأدار لحظة في الغرفة مضطربا وأوجس خيفة وقال لنفسه .

« أتراها ليذا مستحيل ! »

فالتمعت عين فلوتشين وكأنما استجد جسمه الصغير الضعيف في ثيابة  
الواسعة البيضاء حيوته المفقودة فقال وهو يضحك :

« حسن أسعد الله نهارك . أراك لا تزال على عهدك القديم ها ها ! »

فابتسم سارودين وهو قلق وماشى زائره إلى الباب :

ولما عاد سارودين قال لرفقائه :

« والآن يا سادة . كيف يجرى اللاعب ؟ خذ ( البنك ) عنى يا تاناروف

إذا سمحت . وسأعود اليكم عاجلا »

وكان يتكلم بسرعة وعيناه قلقتان .

فنبحه مالبينوسكى وكان قد سكر .

« وهذا كذب ! لا بد أن نشبع من النظر سيدتك الصغيرة هذه .. »

فأهسك تاناروف بكتفه ورده إلى كرسيه وعاد الباقيون إلى أماكنهم حول  
المنضدة وهم لا ينظرون إلى سارودين وجلس سائين كذلك ولكن ابتسامته  
كان فيها شيء من الجلد وكان قد أدرك أن ليذا هي التي جاءت وخالجه إحساس  
غامض بالغيرة والمرثية لأخته الجميلة التي صارت الآن في كرب شديد .

( ١٧ )

جلست ليذا على سرير سارودين يائسة تلوى المندبل لى الاضطراب فلما  
دخل عليها لحظ تغير منظرها وحؤول هيئتها - فما بقى شيء من تلك الفتاة المزهوة  
الشامخة الرأس العالية الروح - ورأى أمامه امرأة محزونة حطمها الأسى  
وأغار من خديها وأحمد لمعة عينيها . فحدقته هاتان العينان السوداوان ثم  
ما عتمتا أن جانبته فأدرك بغريزته أن ليذا نحشاه وفاجأة ذلك غيظ شديد  
فرد الباب بعنف ومضى إليها . وقال وهو لا يكاد يغالب جماح رغبة أن يضر بها :

« إنك حتمية عجيبة جدا ! هاذا أنا هنا في غرفة خاصة بالناس  
وفي جملتهم أخوك . أما كان يسعلك أن تتخيري وقتنا آخر للمجىء ؟  
أن هذا مشير حقا . »

فانطلقت اليه من العيذين السوداوين نظرة تداعى لها سارودين فتغيرت  
لهجته وابتسم وكشف عن أسنانه البيضاء وتناول يد ليدا وجلس إلي  
جانبا على السرير وقال :

« حسن حسن . أن الأمر غير مهم . وإنما كان قلقي وإشفاقي عليك  
ولقد سرنى أنك جئت فقد كنت مشتاقا لرؤيتك »

ورفع سارودين يدها الحارة المعطرة الى شفثيه وقبلها مما يلي التقفاز  
فسألته :

« أتقول حقا ؟ »

فأدهشته غرابة لهجتها . ثم نظرت اليه مرة أخرى وقالت له عيناها  
بأصرح ما تنطقان :

« أصبح أنك تجبني ؟ أنك ترى مبلغ شقوتي الآن . وكيف إن  
لم أعد في شيء مما كنت . وإنى لأخافك وأشعر بكل ما في حالي من  
الذلة والمهانة ولكنه ليس لي معين سواك »

فأجابها سارودين :

« كيف يخامرك الشاك في صادق ما أقول ؟ »

ولكن صوته خلا من رنة الإخلاص بل لقد كان باردا جافيا .  
وتناول يدها مره أخرى ولثمها وأحس أنه عالق بشبكة عجيبة من  
الأحاساس والخواطر — منذ يومين فقط على هذه الوسادة بعينها  
كانت نحصل شعرها متمدلة وهو يطوقها بذراعيه وشقاها ملتقىة في  
قبلة عن أحر عاطفة وأجممها ، وفي تلك اللحظة خيل اليه أن كل

ما استمتع به من النساء الأخر قد تحقق وأنه بلغ سؤاله من الإساءة الى هذه المرأة التي جمعتهما العاطفة درج يديه إساءة وحشية متممة - والآن . . . شعر لها فجأة بالمرقت . وود لو استطاع أن يدفعها عنه وأن لا يراها أو يسمع صوتها بعد ذلك . وبلغ من قوة هذه الرغبة وطغيانها أن الجلوس الى جانبها صار مؤلماً له . على أنه نازعه خوف مبهم منها فسلبه ذلك إرادته واضطره الى البقاء بجانبها . وكان يدرك أتم إدراك أنه ليس ثم ما يربطه بها وأنه ما نال منها شيئاً إلا برضاها دون أن بعدها شيئاً فكان كلا منهما قد أخذ كما أعطى بيد أنه سع ذلك أحسن كأنما لصق بمادة لزجة لم يقو على التخلص منها وتوقع أن تطالبه ليذا بشيء وأنه سيكون بين أمرين : أن يوافق ويقرها على ما تدعى أو أن يأتي عملاً حقيراً دنيئاً . وأحس أن كل قوة له مسترقة كأنما نزعت عظام رجليه وذراعيه وكأنما صار لسانه الذي في فيه خرقة مبلولة . وأراد أن يصيح في وجهها وأن يفهمها صراحة أن ليس لها حق ما في مطالبتها بشيء ولكن قعد به عن ذلك الخوف والحجب وندت الى لسانه عبارة فارغة كان يعلم أنها لا محل لها على الإطلاق

« آه . المرأة . المرأة . »

ف نظرت اليه ليذا مستفظة وكأنما أضواء لذهنها بارق فأدركت في لحظة أنها فقدت كل شيء وأن كل ما منحت من طهرها وشرفها إنما منحت رجلاً ليس له وجود وأن حياتها وصبابها وطهرها وكبرها قد ألفت بها جميعاً عند قدمي بهيم جبان نذل لم يشعر لها بالشكران على ما بذلت له بعد أن لو شها فهمت أن تلطم كفا بكف وأن تسقط على الأرض يأساً وألماً غير أن الرغبة في الانتقام المنبعثة عن مرارة البغض حلت محل ذلك الشعور بسرعة البرق فقالت وأسنانها مطبقة وعينيها محذقة به :

« ألا تعلم أنك غاية في الغباء والسخف . ؟ »



فجاءت قحة هذه الألفاظ ونظرة الحقد التي لاتلأم ليدا اللينة السمحة —  
 صدمة لسارودين تراجع لها ولم يكذب يفهم مدلولها وحاول أن يمزح  
 ويضيق أثرها بالفكاهة وقال وهو مستغرب مغيظ :  
 « أى ألفاظ هذه ؟ »

فردت ليدا بمرارة وخبطت كفا بكف  
 « لست فى حالة تسمح لى بانتقاء الألفاظ »

فقطب سارودين وسألها :

« لماذا كل هذه السمات الحزينة ؟ »

واستهواه وهو لا يشعر جمال شكلها فجعل ينظر الى كتفها الرقيقتين  
 وذراعها البديعتى التكوين وأشعرته إيماءات اليأس والضعف الثقة بقوته  
 فكأنما هما فى كفتى ميرآن اذا شالت إحداها رجحت الأخرى ووجد سارودين  
 لذة قاسية لعلمه أن هذه الفتاة التي كان يعدها أسى منه قد صارت معاذبة  
 من أجله وكان فى العهد الأول من علاقتهما يخافها ففسره الآن أنها هوت الى  
 حضيض العار :

فلان لها وتناول فى رفق يديها الضعيفتين وجذبها اليه وتنبهت مشاعره  
 وصار نفسه سريعاً وقال :

لاتراعى . سينصلح الأمر فى شىء فطبيع بعد كل مايقال .  
 فأجابته باحتقار :

« أو تظن ذلك ؟ »

وساعدها الاحتقار على أن تثوب اليها نفسها وقوتها فحدجته بنظرة غريبة  
 العنف

فقال سارودين وهو يحاول أن يضمها اليه ضمة يعلم أن لها سحرا  
 نعم بلا شك اظن ذلك .

غير أنها ظلت باردة جامدة فقال بلهجة العاتب المترفق :

« تعالى تعالى . مبالك نافرة يا حبيبتى » .

فصاحت به ليدا وهى تدفعه عنها :

« دعنى ! أقول لك دعنى ! »

فتألم سارودين وحز في نفسه أن عوطفه هاجت عبثاً وحدث نفسه « إن المرأة هى الشيطان بعينة » وسألها وقد حرج صدره واحمر وجهه

« ماخطيك ؟ »

وكانما أطاف سؤاله بذهنها ذكرى فسترت وجهها بكلتا يديها وبكت بكاء الفلاحات الساذجات وأءولت ووجهها مدفون في راحتها وجسمها منحن وشعرها متهدل على محياها البليل المتهمضم فأستمط في يد سارودين ولم يسمعه الا بتسام. وإن كان على هذا خشى أن يسوءها ابتسامه وحاول أن ينحى كفيها عن وجهها فقاومته مقاومة عنيدة وظلت تبكي

فقال « ياألهى ، » ونازعه نفسه أن يصيح بها وأن ينزع كفيها وأن يسبها ويشتمها وقال لها بخشونة :

« لماذا تبكين ؟ لقد خطنت معنى وهذا من سوء الحظ ولاحيلة الآن ، فلماذا كل هذه الدموع اليوم ؟ أمسكى بالله ، »

وأمسك بإحدى يديها فاهتز رأسها يمنة ويسرة فكفت عن البكاء بغتة ونحت كفيها عن وجهها المبلل بالدمع ورفعت عينها إليه كما رفعها الطفل الخائف وطاف بذهنها بمثل سرعة البرق أن في وسع من شاء أن ياطمها الآن ولكن سارودين ألان من شدته وقال بصوت المواسى :

« اسمعى ياليدوتشكا ، كفى عن البكاء ، إنك ملومة مثلى ، فلماذا تحلنين ضجة ؟ لقد خسرت الكثير ولاشك وإنى لأعلم ذلك ولكننا نلنا حظا كبيرا أليس كذلك ؟ ويجب علينا أن ننسى ... »

فانطلقت ليذا تبكى من جديد فصاح :

( آوه ، أمسكى عن هذا ، )

ثم مشى الى آخر الغرفة وجعل يشد شعر شاربيه بعنف وشفتهاء ترجفان وصارت الغرفة ساكنة . وحط طائر على أغصان شجرة مما يلي النافذة

فاهتزت في رفق وحاول سارودين أن يكبح جماح غضبه فدنا من ليذا وطوق خصرها بذراعه ولكنها أفلتت منه بسرعة وضربته بجمع يدها على ذقنه ضربة اصطكت لها أسنانه فصاح مغضباً :

« إلى الشيطان بها ! » .

وألمته الضربة وغاظه صوت أسنانه المصطكة أكثر مما ألم للظمة .

ولم تسمع ليذا قوله هذا ولكنها أدركت بفطرتها أن موقف سارودين مضحك فاهتزت هذه الفرصة بكل ما أوتيت المرأة من قسوة وقالت تحاكبه .

« أى ألفاظ هذه ؟ » .

فأجابها مغيظاً :

« أن هذا يكفي لاستفزاز أى إنسان ! » .

ثم عاد فقال :

« لو أنى عرفت ما خطبك ! » .

فقال ليذا بلهجه جارحة مرة :

« أتريد أن تقول إنك مازلت تجهل ؟ » .

وصمتا برهة . وجعلت ليذا تنظر إليه شزرا ووجهها أحمر كالنار فامتقع سارودين كأنما انسدل على وجهه نقاب أصفر ثم صرخت به صرخة المنشج حتى لأفزعها صوتها :

« مالك صامتاً ؟ لماذا لا تنطق ؟ تكلم قل شيئاً تعزىنى به ! » .

أجاب « أنا ... » .

وارتجفت شففته السفلى .

فصرخت مرة أخرى ودموع الحنق واليأس تكاد تخنقها :

« نعم أنت — ولا أحد سواك ! » .

وسقط عنه كما سقط عنها نقاب الأدب والحاملة وطهر الوحش الشارد

الجالح في عيونهما كليهما .

وطافت برأس سارودين خواطر كالجرذان والفيران ... وخطر له أولاً أن ينقدها مالا وأن يقنعها بالتخلص من الحنين ررأى أن لا بد له من بت كل صلة بها وبذلك ينتهى الأمر غير أنه لم يقل شيئاً وإن كان يرى أن هذه خير وسيلة وتمتم :

« لم يخطر لى قط ... » .

فصرت تحت ليدنا كالمجنونة :

« لم يخطر لك قط ! لماذا لم يخطر لك ؟ بأى حق لم تفكر ؟ » .

فقال والألفاظ تتعثر :

« ولكنى يا ليدا لم أقل لك أبداً لى ... » .

وخاف أن يتم ما يريد فأمسك وفهمت ليدا مراده دون أن يصارحها به فاسود وجهها ومسخه الاستفضاع واليأس وسقط ذراعها إلى جانبها وهوت إلى السرير وقالت وكأنها تفكر بصوت عال :

« ماذا أصنع ؟ أغرق نفسى ؟ » .

أجاب « لا ! لا ! لا ! لا تقولى هذا ! » .

فرمته ليدا بنظرة قاسية وقالت :

« هل تدرى يا فيكتور سرجيفتش ؟ أى وائقة أن هذا لا يحزنك أبداً » .

وكان فى عينها وعلى فيها الحميل المرتجف من الحزن والأسى مما جعل سارودين يدير وجهه عنها .

ثم وقفت . وكانت تحسب فى أول الأمر - ويعزيها حسبانها هذا - أنها ستجد فيه متقناً لها وعوناً وأنها ستعيش معه أبداً . فلان كظها ما أهدها إليها من خيبة الأمل بالمقت والتقرز منه وودت لو هزت له قبضة يدها وبصقت احتقارها فى وجهه جزاء له على إذلالها وامتئانها ولكنها شعرت أنها ستبكى قبل أن ينطلق لسانها بحرف وصدتها بقبية من الكبر هى كل مابقى من ليدا الجريئة الحميلة وقالت له وأسنانها مطبقة وفى لهجتها من الاحتقار العميق ما أدهشها كما أدهشه :

« أياها الوحش ؟ » :

وانطلقت كالسهم خارجة من الغرفة وعلق كعها برتاج الباب فتمزق .  
فاصطبغ وجهه سارودين بالحمرة إلى جذور شعره . ولو أنها قالت  
« أيها الشقي » أو « أيها النذل » لاحتمل منها هذا في سكون ولكن لفظة  
« الوحش » خشنة لا تتفق في رأيه مع شخصيته الساحرة . فأذهله ذلك واحمر  
حتى بياض عينيه فتلوى وهز كتفيه مضطرباً وزر جاكته ثم فك أزرارها  
وهو على أتم ما يكون اضطرباً .

ولكنه ما عثم أن استشعر الارتياح الناجم عن الإحساس بالتخلص . فقد  
قضى الأمر . على أنه غاظه أنه لن يظفر مرة أخرى بليدا وأنه خسر مثل  
هذه الرفيقة الجميلة المشتهة . غير أنه نفي هذا الأسف بإيماءة احتقار .  
« إلى الشيطان بهن جميعاً . إن في طوقى أن أنال ما أشاء ممن أشاء  
منهن » .

وسوى جاكته وأشعل سيجارة وشفتهه لا تزالان ترتجفان ثم استعاد  
مألوف هيبته وكر إلى ضيوفه .

## ( ١٨ )

لم يعد أحد من المقامرين - ما خلا مالينوسكى السكران - يلتذ للعب .  
ولج بهم جميعاً حب الاستطلاع والرغبة في معرفة السيدة التي جاءت إلى  
سارودين من عسى أن تكون . وأدرك بعضهم أنها ليذا وخالجتهم لذلك  
الغيرة وتصوروا جسمها الأبيض بين ذراعى سارودين .

وبعد برهة وقف سانين وقال :

« لن العب أكثر مما لعبت . فألى الملتقى » .

فسأله إيفانوف :

« تمهل يا صديقى . إلى أين ؟ » .

فأشار سانين إلى الباب الموصد وقال :

« سأذهب لأرى ما يجري هنا ! » .

فقال إيفانوف :

« لا تكن أحمق ! اجلس واشرب كأساً ! » .

فأجابه سانين وهو يخرج :

« إنك أنت الأحمق ! » :

ولما وصل سانين إلى منعطف تكثر فيه الأشواك النابتة نفص المكان ليرى الموضوع الذى تشرف عليه نافذة سارودين ثم مشى بجذر بين الأشواك وتسلق الحائط ولما بلغ قمته كاد ينسى لماذا صعد لفرط ما بهره جمال المنظر وهو يطل من مرقبه على النجائل والحديقة الفيحاء — والنسيم الرقيق يسمح اعضاءه الحارة القوية ثم وثب عن الحائط إلى الداحية الأخرى بين الأشواك وجعل يدلك جسمه فى حيث شكته واجاز الحديقة وباع النافذة حين كانت ليذا تقول :

« أتريد أن تقول أنك لا تزال تجهل ؟ » .

فأدرك من غرابة لهجتها حقيقة الأمر فاستند إلى الحائط وعينه إلى الحديقة وأرهف سمعه وأدركه العطف على أخته الحسنة التى لا تلامم جمالها لفظة « الحبلى » الخسنة . ووقع من نفسه الاختلاف بين هذه الأصوات الآدمية الصاخبة والسكينة الرائعة التى كانت تجلجل الحديقة الزاهية .

وطارت فراشة بيضاء فوق الحشائش وقد انعشتها الشمس فضمحت لها فجعل سانين يرقبها بمتل اهتمامه بالإصغاء .

ولما صاحت ليذا « أيها الوحش ! » ضحك سانين جلدلاً وعاد ادراجه فى تناقل وإبطاء غير مكترث لمن يراه أو لا يراه .

وعدت أمامه سحلية فلبث برهة يرصد حركاتها السريعة وهى تزحف بجسمها الصغير الأخضر بين الحشائش الطويلة .

لم تعد ليدا إلى البيت بل حثت خطاها في طريق ينأى بها عنه وكانت الشوارع خالية والحر يأخذ بالخنق والظلال متقلصة إلى الحائط والسياح بعد أن هزمتها الشمس الظافرة ورددتها ففتحت ليدا مظلمتها بحكم العادة وقوتها ولم تلتفت إلى الحر أو البرد ولا إلى النور ولا الظلمة ولم تدر في أيها تسير فمضت مسرعة وتجاوزت الأسيجة المعفرة المكسوة بالاكلاء ورأسها متنى وعينها إلى الأرض ولم تصادف في طريقها إلا نفرأ من الراجلين كاد يخنقهم الحر وفيما عدا ذلك كانت البلدة ساكنة كما تكون في القبلولة .

وكان قد تبعها جرو أبيض شم رداءها ثم انطلق يعدو أمامها يلتفت إليها ويصبص لها بذنبه كأنما يريد أن يقول لها أنهما زميلان مترافقان . ورأت ليدا عند منعطف الشارع صبياً صغيراً بديننا مضحك الهيئة أطل قيصه من جاكيتته عند كتفه وخذاه طويلاً ملوثان بعصير بعض الفاكهة ويداه تعملان بقوة في منفاخ خشبي .

فأومأت ليدا إلى الجرو وابتسمت للصبى غير معتمدة شيئاً مما فعلت فقد كان روحها سجيناً وكانت تدفعها إلى الأمام قوة غامضة تفصل ما بينها وبين الدنيا وتجاوز بها ضوء الشمس والخضرة وكل ما في الحياة من مفارح ومتع وتسوقها إلى هاوية سحيقة مظلمة أشعرها الألم أنها منها قريبة .

ومر بها ضابط تعرفه على جواده فلما أبصرها وقف وسألها بصوت طروب : « ليدا بتروفنا ! إلى أين في هذا القيظ » .

فارتفعت عينها بلا عمد إلى قبعته المشدودة إلى جبينه الملوح الرطب ولم تتكلم ولكنها منحته ابتسامة الدلال المألوفة رجعت تردد سؤاله « إلى أين؟ » وهي تجهم ماعسى أن يقع لها .

وزايلها غضبها على سارودين ولم تكذب تفهم لماذا قصدت إليه فقد كان يخيل أن من المستحيل أن تحيا بدونه أو أن تحتل حزنها وحدها . أما الآن

فكأنما اختفى وغاب ولم يعد له وجود في حياتها ومات الماضي ولم يبق إلا ما يعينها وحدها وهذا ما يسعها أن تبت فيه دون أن ترجع في ذلك إلى أحد. وكان ذهنها يفكر بسرعة المحموم غير أن خواطرها كانت على هذا واضحة جليلة . ولكن أهول ما كان يهولها هو أن ليسدا الجميلة المزهوة ستذهب وتحاف وراءها مخلوقاً شقيماً مضطهداً باطخا ضعيف الحول .. كلا! لا بد أن تبقى النفس المزهوة والوجه الجميل .. وإذن لا بد لها أن تمضي.. إلى حيث لا تعلق بها الأوحال .

ولما تقرر هذا في ذهنها أحست كأنما أحاط بها فراغ وغابت الحياة والشمس والناس وصارت مستفردة بينهم كل الاستفراد . . الألامفر ! لا معدى لها عن الموت ! يجب أن تغرق نفسها . وما عتمت أن استولت عليها هذه النية واستغرقتها هاته الفكرة فبدا لها كأن سوراً من الحجر التف بها وحجبها عن كل ما كان وكل ما عسى أن يكون .

وقالت : « ما أبسط هذا في الحقيقة ! » .

ودارت بعينها ولم تر شيئاً ..

وصارت خطاها أسرع . واولا سعة ثوبها لجرت فقد كانت تحس أن بطنها لا يطاق .

« هنا بيت وههنا آخر له نوافذ خضراء ثم هنالك الفضاء ! » .

والنهر والجسر ثم ما سيحدث . . فلم تتمثل لها صورة واضحة لهذا ، فكأن ثم سحابة أو ضباباً يوجب كل شيء . غير أن دذه الحالة النفسية لم تدم إلا ريثما بلغت الجسر . ولما حنت على سور الجسر ترمق الماء المربرد زاباتها ثققتها بنفسها وتمسكها الخوف وإرادة الحياة وعاودتها إحساسها بكل شيء حتى وسكت سمعها الأصوات وتناغى الأطيوار ورأب نور الشمس والأزاهير في الرياض والجرو الأبيض يتطاع إليها تطاع من يعدها سيدته بلا مرء وكان مقعياً قبالتها يرفع لها كفه ويضرب الأرض بذياه .



فرنت إليه ليذا واشتافت أن تضمه على ساعديها إلى ثديها واغرورقت  
عينها وغلبها الأسى والأسف على حياتها الجميلة التي درست  
فمالت إلى السور وهي تكاد تفقد رشدها واتكأت على حافته المنتهية فسقط  
لسرعة انحنائها أحد قفازيها في الماء فجعلت ترقب في فزع صامت هويه  
الساكن إلى صفحة الماء واندياح الدوائر فيها فرأت قفازها الأصفر يجلو لك  
شيئا فشيئا ويملأه الماء وينقلب كأنما لواه ألم النزع ثم يهوى إلى اغوار النهر  
الخضراء فحددت ليذا نظرها لتري غوصه ولكن النقطة الصفراء لم تزل  
تتضاءل حتى غابت ولم تعد تأخذ عينها إلا صفحة الماء المصقولة .

وأنها كذلك وإذا بصوت انثى على كذب منها يسألها : « كيف حدث  
هذا أيتها السيدة ؟ » .

ففزعت مترجعة ورأت فلاحه مفرطحة الأنف ترمقها مستطلعة بعين عطوف  
ومع أن هذا العطف لم يكن المقصود به إلا الفغاز المفقود إلا أن ليذا شعرت  
كأنما هذه الفلاحه النسيمة الطيبة القلب تعرف كل شيء وترثي لها فهمت أن  
تقص عمايها خبرها وأن ترفه بذلك عن قلبها غير أنها نحت هذه الفكرة  
وطاردتها مستسخرفة إياها . واحمر وجهها وتمتمت « لاشيء ! » وهي تتطرح  
مترجعة عن الجسر .

« هنا ! مستحيل ، لو أغرقت نفسى هنا لأنقذونى » .

وسارت مسافة أخرى على شاطئ النهر متوخية طريقا ممهدا إلى اليسار  
بين النهر والحقول وعلى جانبيه الأشواك والأزهار وأشجار الصفصاف منحية إلى  
النهر وكان الشاطئ المنحدر مكسواً بالخضرة ومغموراً بنور الشمس والنباتات  
ترنح نواراتها اللزجة فوق الأكلاء والأشواك التي علقت بأهداب ليذا ولبست  
وهي سائرة نباتا هائجا وانثرت فوقها حباته البيضاء .

وكانت ليذا تدفع نفسها دفعاً وتغالب القوة التي تحاول أن تثنيها  
وتقول وتكرر « لا بد من ذلك ! لا بد منه ! » وهي تجر نفسها وكأن

رجليها أثبت ما بينهما لما نأت عن الحسر وندت من الموضع التي اعتزمت أن  
تتهي إليه .

ولما بلغت ورأت الماء الأسود البارد في ظل الاغصان المتهداة والتيار  
يندفع ويزخر عند زاوية نائمة من الشاطئ أدركت لأول مرة كيف  
شوقها إلى الحياة وفزعها من الموت وأكبه لم يكن لها مفر من الموت  
إذ كان البقاء مستحيلا . فرمت بقفازها الثاني ومظلمها دون أن تنظر  
حولها وعاجت عن الطريق ومالت إلى النهر بين الحشائش ومر بذهنها  
في تلك الهنيئة ألف خاطر وتنبه لإيمانها من أعرق أعماق روحها حيث ظل  
راقداً فجعلت تردد هذه الصلاة : « رب انقذني ! رب ساعدني » . وما أتمتها  
حتى ذكرت من حيث لا تحتسب قطعة من انشودة كانت تدرسها في الأيام  
الأخيرة فارتد ذهنها إلى سارودين ثم بدا لها وجه أمها وزاد حبها لها في  
تلك الآونة . فلم يشها ذلك بل زاد عزها مضاء فاندفعت تعدو إلى النهر ولم  
تكن ليذا تدرك حتى الساعة أن أمها وسائر من يحبونها إنما يحبون منها ذلك  
الذي يودون أن تكونه لا ليذا على حقيقتها وبكل عيوبها ونقائصها  
وشهواتها . فالآن وقد حادت عن الطريق الذي لا يعدون غيره مستقيماً فإن  
هؤلاء الوامقين وأمها على وجه أخص سيقسون عليها بقدر حبهما لها .

ثم اختلط كل شيء في نظرها اختلاط الحلم في مخيلة المحموم وتنازعها  
الخوف والشوق إلى الحياة والإحساس بالقدر المحموم والإنكار والافتناع  
بأن الأمر قد قضى والأمل واليأس والشعور المفزع بأنها هاهنا ستموت ثم  
مثلت لعينها صورة رجل شبيه بأخيها يشب بين الأكلاء إليها .

« لم يكن يسعك أن تفعلني أسخف من هذا ! » .

هكذا قال سانين وهو يلهث .

ومن عجيب الاتفاق أن ليذا كانت قد انقلبت إلى نفس الموضع  
الذي أمكنت فيه سارودين منها لأول مرة وهو موضع تحجبه الأشجار  
الضخمة عن ضوء القمر فرآها سانين وفطن إلى ما عقدت عليه نيتها فخطر

له بادىء الرأى أن يدعها وشأنها ولكن حركاتها العصبية المضطربة حركت عطفه فتخطى مقاعد الخديفة وحواجزها وأسرع إلى إنقاذها .

فكان لصوت أخيها تأثير مفرع في نفسها فتداعت أعصابها بعد أن شدد الصراع الباطن ودارت بها الأرض وصار كل شيء يسبح أمام عينيها ولم تعد تدرى أنى الماء هي أم على الشاطئ . وكان سانين قد أمسك بها ولما يكد وتراجع عن الماء وقد سرته قوته ومهارته وقال : « هذا أنت ! » وأجلسها إلى سياج الخديفة وأدار عينه فيما حوله وهو يقول لنفسه « ماذا أصنع لها ؟ » .

وثابت إلى ليذا روحها في هذه اللحظة وشرعت تبكى بكاء ألياً وهي مصفرة مضطربة وتقول وهي تعول كالطفل : « يا إلهى ! يا إلهى ! » : فقال سانين ناهراً في رفق : « سخافة مطبقة ! » .

ولم تسمعه ليذا ولكنها لما أخذ يتحرك تعلقت بذراعه وزاد عويلها ثم قالت لنفسها خانفة :

« آه ! ماذا أنا صانعة ؟ لا ينبغي لى أن أبكى . يجب أن أضحك وإلا فظن إلى الأمر » . فسألها سانين وربت كتفها بخنان :

« مالك مضطربة ؟ » . فرفعت إليه طرفها تحت القبة وبها مثل حياء الطفل وكفت عن البكاء . فقال سانين : « إنى أعرف كل شيء . القصة كلها . أعرفها من زهن مديد » .

وكانت ليذا تعلم أن أناساً كثيرين قد فطنوا إلى نوع علاقتها مع سارودين ولكنها أحست لما قال سانين هذا كأنما لطمها على وجهها فتقبض جسمها البين ونظرت إليه بعين غاض منها الدمع . فقال سانين وهو يضحك : « ماذا دهاك الآن ؟ إنك تنظرين إلى كأتى دست على قدمك » . ثم أمسك بكتفيها المستديرتين المصقولتين فارتجفتا للمسته وردها في رفق إلى مجلسها الأول وهي مدعنة طائعة وقال : « تعالى ! ماذا يحزنك ؟ أهو

أنى أعلم كل شىء؟ أم تحسبن نخطيئتك مع سارودين من الفظاعة بحيث تخافين أن تقرى بها؟ الحق أنى لا أفهمك يا ليذا - إذا كان سارودين لا يريد أن يتزوجك - حسن . . هذا شىء يجب أن تحمدى الله عليه . لقد عرفت الآن - ولا بد أنك كنت تعرفين من قبل - أى حقير دنىء هو على الرغم من قسامته ومن صلاحه لمواقف العشق . إن كل ماله هو الوسامة وأحسبك الآن أصبت منها كفايتك .

فقلت ولسانها يتعثر : « لقد أصاب هو كفايته منى . . لا أنا منه ! آه ! ربما كنت قد أصبت كفايتى ! آه ! يا إلهى ماذا أصنع ؟ » فقال سانين : « والآن أنت حبلى . . . » .

فأنعمضت ليذا عينها وأطرقت . فمضى سانين فى كلامه مترفقاً :

« لا شك أن هذا أمر سيء . فالوضع - أولاً - عمل ثقيل مؤلم والناس ثانياً وهو المهم - قد يضطهدونك . على أنك ياليدو تشكا لم تسيء إلى أحد واو أنك جئت إلى هذه الدنيا بعشرة أطفال لما أضر هذا بأحد سواك . » .

وأمسك سانين ليفكر وطوى ذراعيه على صدره وجعل يعض أطراف شاربه وقال : « وفى وسعى أن أشير عليك بما ينبغى لك أن تصنعى ولكنك أضعف وأسخف من أن تعملى برأى . إنك أجبن من ذلك ! ومهما يكن من الأمر فالمسألة لا تستحق أن تتحبرى من جرائها . انظرى إلى الشمس المشرقة وإلى النهر المتحدر الساكن وادكرى أنك إذا مت عرف كل إنسان ماذا أماتك فأى خير لك فى هذا؟ إنك لا تريدين الموت من أجل أنك حبلى بل من أجل أنك تخافين ما سيقوله الناس . فشر ما فى مصيبتك ليس فى المصيبة نفسها بل فى أنك تضعينها بينك وبين حياتك التى ترين أنها يجب أن تنتهى . ولكن هذا فى الحقيقة لن يغير من الحياة شيئاً . إنك لا تخافين البعداء بل القريبين منك ولا سيما من يحبونك ويعدون بذلك نفسك إحدى الكبر لأن البذل كان فى غابة أو مرج لا فى سرير شرعى . وهوؤلاء لن

يتلكؤوا في عقابك على زلتك فأى خير في هؤلاء لك؟ إنهم قوم أغبياء غلاظ القلوب فارغو الرعوس . ولماذا تموتين من أجل قوم أغبياء غلاظ القلوب فارغى الرعوس؟» .

فسألته بصوت أجش : «ولكن ماذا ينبغي أن أصنع؟ خبرنى ماذا . . . ماذا . . .؟» .

فقال سانين : «أمامك طريقان . أن تتخلصى من هذا الطفل الذى لا يريدك أحد والذى لا يفيدك ميلاده إلا المتاعب كما لا بد أن تعرفى . وأعربت عينا ليذا عن الاستفطاع وعاد سانين إلى الكلام فقال : «من الظلم الشديد أن يقتل المرء مخلوقاً يقدر لذة الحياة ويعرف هول الموت . ولكن جرتومة . . . كتاة جامده من اللحم والدم . . .» .

فوجدت ليذا إحساساً عجيباً . وشعرت فى أول الأمر بالعار حتى لكأنها نضت عنها ثيابها جميعاً وراحت أصابع وحشية تجسها وتلمسها . ولم تجرؤ أن تنظر إلى أخيها وخشيت أن يميتهما العار كليهما . ولكن عيى سانين السوداوين كانتا ساكنتين وكان صوته متزناً هادئاً كأنما يحدثها عن أمور مألوفة . وهذه القوة الهادئة وعمق الصواب هما اللذان أزالا خجل ليذا وخوفها غير أنها ما لبثت أن غلبها اليأس فأمسكت بجبينها وجعلت أطراف ثوبها الرقيق تخفق كجناحى الطائر الفزع وقالت :

«لا أستطيع . كلا . لا أستطيع ! أحسبك مصيباً ولكن لا أستطيع ! إن هذا مظيع !» .

فقال سانين وهو يركع وينحى كفيها فى رذق عن وجهها :

«حسن حسن . إذا لم تستطعى هذا فلا بد لنا أن نحتال على إخفائه على نحو ما . وسأرى لى رأياً فى حمل سارودين على الخروج من الباده : وأنت - حسن - ستزوجين نوفيكوف وتسعدين . لنى أعرف أنك كنت حقيقة أن تقبلى نوفيكوف لولا أن لاقيت هذا الضابط اللهيح ! لنى على يقين من هذا » .

فلما ذكر اسم نوفيكوف بدا لليدا النور في الظلمة وخيل إليها لحظة أن من السهل إصلاح ما فسد لأن سارودين أشقاها وهى مقتنعة أن نوفيكوف لم يكن ليصنع بها ما صنع ذلك . ولم يبق عاينها إلا أن تنهض لتوتها وأن تعود وأن تقول كلمة أو اثنتين لتعود الحياة وضيئة الجمال . رستحيا مرة أخرى وتحب ثانيه .

ولكن حياتها في هذه المرة ستكون خيراً وحبها أعمق وأطهر بيد أن هذا الحلم لم يطل فذكرت أن هذا مستحيل وأن الحب السخيف الحقير قد لوثها وهوى بها .

وخطرت ببالها كلمته خشنة لم تكن تدرى أنها تعرفها ولم تنطق بها قط فنعتت بها نفسها فكأنما لكمها لاكم على أذنيها وصاحت :  
« ويحى . هل صرت حقاً . . ؟ نعم نعم لا شك » .  
ثم تتممت وقد أخرجها رنين صوتها : « ماذا قات ؟ »  
فسألها سانين : « حسن علام عولت ؟ » .

ونظر إلى شعرها الجميل المتهدل على جيدها الناصع المتألق في ضوء الشمس النافذ إليه من خلال الأوراق . وتملكه الخوف من أن يعجز عن إقناعها وأشفق أن تغيب في فراغ الموت المظلم هذه المرأة الجميلة التى خلقت لتنشر السرور والغبطة وكانت ليدا صامته تعالج أن تصرع رغبتها في الحياة وكانت هذه الرغبة قد طغت بها على رغم إرادتها واستولت على كيانها المرتعد . وحسبت أن من العار بعد الذى جرى لا أن تعيش فقط بل أن ترغب في الحياة . غير أن جسمها القوى المملوء حيوية رفض هذه الفكرة المسوخة كأنها السم الزعاف .

وسألها سانين : « مالك صامته ! » .

قالت : لأن دننا مستحيل . إنه يكون دناعة ! إني .. » .

فقال سانين وقد نفذ صبره : « لا تنطقى بهذه السخافة ! » .

فرفعت ليذا طرفها إليه مرة أخرى وفي عينها المغرورقتين بارقة أمل .  
وكسر سانين غصنا صغيرا عضه ثم ألقى به وقال :

« ذنائة ! إن ألفاظى تذهلك . ولكن لماذا ؟ إن المسألة لا يسعنى لا أنا ولا أنت أن نجيب عنها جوابا صحيحا . جريمة ؟ ما هى الجريمة ؟ إذا تعرضت حياة الأم للخطر وهى تضع طفلا وأميت هذا الطفل الحى لتنجو أمه لم يعد الناس هذا العمل جريمة بل ضرورة منحوسة ! فإما أن نقضى على شىء لم يوجد بعد فهذا جرم شنيع ! نعم جرم شنيع حتى ولو كانت حياة الأم بل سعادتها وهى أكبر من حياتها رهن بذلك ! لماذا يكون هذا هكذا ؟ لا يندرى أحد ! ولكن كل امرئ يذهب إلى هذا ويصيح : رحى ! » وضحك سانين ساخراً « ويحكم معاشر الرجال يخاقون لأنفسهم خيالات وأشباهاً وأوهاما هم أول من يروح فريستها . على أنهم يقولون إن الإنسان أشرف الكائنات وأعلاها وأنه تاج الخليقة وملوكها وأراه ما كالم يحكم قط . ملكا معذبا يفزعه ظله ! » .

وأمسك سانين هنية ثم عاد يتكلم :

« على أن هذا ليس بسبيلنا الساعة . تقولين إن هذا يكون عملا دنيئاً . لا أدرى . لعل الأمر كما تقولين . وأحسب أن لو سمع نوفيكوف بما أنت فيه لأمضه جداً وأحزنه . وربما قتل نفسه على أنه مع ذلك سيحبك كما أحبك من قبل . ولئن قتل نفسه ليكون هو الملووم . أما إذا كان لبيياً ذكياً فأخلق به أن لا يكثر لك ( معذرة من هذه العبارات ) ضاجعت سواه فإن جسمك لم يفقد شيئاً بذلك — لا ولا روحك . ويعجباً له ! أما يمكن أن يتزوج أرملة مثلاً ؟ إذن فليس هذا بالذى يمنعه أن يتزوجك وإنما تمنعه — إذا تمنعته — آراؤه المشوشة المختلطة التى حشى بها رأسه وأما أنت ياليدا فلو أنه كان ممكناً أن لا يجب الآدمى لإمرة فى حياته كلها لكانات معاودة الحب

عبتاً لا يسرو ولكن هذا ليس هكذا . والحب متعة مشتهاة دائماً وستألفين  
نوفيكوف وتحببته فإذا لم تفعل رحلنا معا باليدو تشكا ، إن المرء يستطيع أن  
يعيش حياً اتفق أليس كذلك ؟ »

فتهدت ليديا وحاولت أن تغلب ترددها وتمتت :

« ربما . . . صلحت الأمور . . . نوفيكوف . . . طيب رقيق القلب . . .  
وجميل أيضا أليس كذلك ؟ نعم . . . لا . . . لا أدري ماذا أقول . . . »

فقال سانين « ولو كنت أغرقت نفسك .. ماذا إذن ؟ ان قوى الخير والنشر  
ما كانت لتكسب أو تخسر بذلك وكل ما كان يحدث هو إن جثتك المشوهة  
الممسوخة الملطخة بالأوحال كانت تطفو وتجر الى الارض وتدفن . هذا كل  
ما كان يحدث . »

فتصورت ليديا الماء المربرد والأوحال والأعشاب والفقايق ساجحة حولها  
وقالت واصفرت : كلا . كلا . ابدأ . اهون من ذلك ان احتمل كل عار . .  
ونوفيكوف . . كل شيء .. « أى شيء سوى هذا » .  
فقال سانين ضاحكا : « انظري كيف تفرعين » .  
فابتسمت ليديا بين دموعها وعزتها ابتسامتها وقالت بقوة :  
« مهما يكن ما يحدث فإنى مصممة على الحياة » .

فصاح سانين ووثب :

« حسن إنه ليس أفضح من فكرة الموت وما دام المرء يستطيع أن يحتمل  
العبء وأن لا يفقد إحساسه بمناظر الحياة واصواتها فليحيى . أأست على صواب؟  
والان ناوليني يدك . » .

فمدت إليه ليديا يدها شاكرة

وقال سانين : « هذا حسن . . . ما أحلى يدك وأجملها » .

فابتسمت ليديا ولم تقل شيئا .

ولم يذهب كلام سانين سدى فقد كانت ايديا قوية الحيوية زخارته وكانت



الأزمة التي مرت بها قد وترت أعصابها إلى أقصى حد فاو زاد الضغط لتمزقت  
ولكن الضغط لم يزد وعاد كيائها يتجاوب بالرغبة في الحياة زاخرة قوية .  
فظرت فوقها وحولها وهي ثملة وأحست السرور تندبض به كل جارحة وكل  
شئء أحسته في ضوء الشمس وفي المروج الخضراء وفي النهر الماؤتلق وفي وجه  
أخيها الساكن المبتسم وفي نفسها فكأنما كانت ترى ذلك وتسمعه لأول مرة  
وصاح بها صوت طروب من أعماق صدرها « الحياة . الحياة » .

وقال سائين : « حسن سأكون عونك في متاعبك وظهريك وساعدك  
في معاركك . والآن لما كنت فتانة الجدال فهاتي قباة » .

فابتسمت ليبدأ ابتسامه عرائس الغاب ولف سائين ذراعيه حول خصرها  
وضمها فاهتز بجسمها الحار اللين للمسته وهصرها وعانقها عناقا حاراً وشاع في  
نفسها السرور وحننت إلى الحياة الرحيبة الفوية ولم تك أكثرث لما تصنع فطوقت  
عنق أخيها بكاءاً ذراعها في بطء وزمت شفثيها لتتأق قبائنه وعيناها مفتوحتان  
كتمضتين .

وأحست سعادة لاتدانيها سعادة بين ذراعي سائين ونسيت في هذه اللحظة  
من يقبها أهوأخوها أوأجنبي منها مثل ازهرة تلدثها الشمس ولا تسأل من  
أين كل هذه الحرارة .

ثم قالت معتبطة : « ماذا جرى آه ! نعم ! لقد أردت أن اغرق نفسي ..  
ما أحقنى ! ولماذا ؟ آوه إن هذا جميل ! هات أخرى وأخرى . والآن سأقبلك  
أنا : ما أحلى هذا ! ولن أكثرث لما يحدث مادته أحياء » .

فقال سائين وأطلقها : « هذا أنت فانظري إن كل شئء حسن في الدنيا  
حسن ولا ينبغي لنا أن نحياه قبيحاً ونمسخه » .

فابتسمت ليبدأ ابتسامه المفكروررتبت شعرها وسوته وناولها سائين المغناة  
والقفاز فأدهشها في أول الأمر أن قفازها الثاني لاوجود له ولكنها لم تابت  
أن ذكرت السبب وأضحكها اهتمامها العظيم بذلك الحادث لما وقع وقالت :  
« حسن حسن لقد مضى هذا وانتفضى » .

وسارت مع أخيها على شاطئ النهر وأرسلت الشمس أشعتها القوية على صدرها الناضج المكتنز .

٢٠

لما فتح نوفيكونوف الباب بيده لسانين لم تكن لمحتمه تدل على الارتياح إلى هذه الزيارة لأن كل ما يذكره ليسدا وحامه المشتسخ كان يحرك آلامه .  
ولاحظ سانين هذا ودخل الغرفة يبتسم وكان كل ما فيها مبعثر على غير نظام كأنما ثارت به زوبعة وكانت الأرض مغطاة بالأوراق والقش وغير ذلك . والسريير والكراسي عابها الكتب والثياب وأدوات الجراحة وحقيبة .  
فسأله سانين مستغربا : « أمسافر أنت ؟ وإلى أين ؟ » .  
فتحاشى نوفيكونوف نظرة سانين ومضى في جمع أشياءه وهو مرتبك مغبط لارتياكه ثم قال أخيراً :

« نعم . لا بدلي من مغادرة هذا المكان . فقد أمرت بذلك رسمياً » .  
فنظر إليه سانين ثم إلى الحقيبة . وبعد نظرة أخرى انبسطت أسارير وجهه عن ابتسامة وكان نوفيكونوف صامتا يجثم على صدره إحساسه بالوحدة وحزنه العميق وشرع - وهو غارق في خواطره - يلف حذاءين مع بعض الأنابيب الزجاجية . فقال سانين : « إذا كنت تحزم أمتعتك على هذه الطريقة فستصل إلى حيث تقصد بدون الأنابيب أو بدون الحذاءين » .  
فأرسلت عين نوفيكونوف المغرقة ردها وقالت : « آه ! دعني . أما ترى كيف حزني وألمى ؟ » .

ففهم سانين هذا الرد الصامت وسكت :

وكان الأصيل قد جاء وصارت السماء صافية كالبلور ثم قال سانين :  
« أظن أن الأرشد لك والأولى بك بدلاً أن تذهب إلى حيث لا يدري إلا الشيطان - أن تتزوج ليسدا » .

فاستدار نوفيكونوف وهو يرجف وقال : « لا يسعني إلا أن أطلب إليك أن تكف عن هذا المزاح السخيف » :

قال ذلك بصوت عال شديد فرن صدها وتجاوبت به الحديقة الحاملة  
فسأله سانين : « لماذا هذا الغضب ؟ » .

فأجاب نوفيكوف بصوت مخنوق : « اسمع ؟ » .  
وكان في عينه وعلى وجهه من الغضب ما جعل سانين ينكره ولا يعرفه  
على أنه مع ذلك سأله ضاحكا :  
« أتريد أن تقول إنه لا يكون من حسن حظك أن تتزوج ليلدا ؟ » .  
فصاح به نوفيكوف « احرص : » .

وتطرح إليه وفي يده حذاء قديم يلوح به فوق رأس سانين . فقال  
سانين بعنف وهو يتراجع : « تمهل ! لا تغضب أجنون أنت ؟ » .  
فرمى نوفيكوف الحذاء ساخطاً وأسرعت أنفاسه وعاد سانين يتكلم فقال :  
« لقد هممت فعلا بهذا الحذاء أن .. »

وأمسك وهز رأسه ورثى لصديقتي وإن كان قد استخف سلوكه هذا  
فقال نوفيكوف وهو مرتباك : « إن هذا خطأك »  
ثم شاعت في نفسه الثقة بسانين والاطمئنان إلى قوته وسكونه وكان هو  
كالتلميذ الصغير يود أوقال بشجوه لخل ووافق وجمال الدمع في عينيه وقال  
وهو يغالب عواطفه : « لو أنك عرفت كيف يتفطر قلبي ؟ ... » . فقال سانين  
بعطف :

« يا صديقتي العزيز إنى اعرف كل شيء » فأجابه نوفيكوف وجلس إلى  
جانبيه « كلا : إنك لا تستطيع أن تعرف كل شيء » .

وأحس أنه ما من أحد به مثل حزنه وكده فقال سانين :  
« نعم نعم أعرف . واقسم على ذلك . وإذا وعدت أن لا تحمل على مرة  
أخرى بجذائك التديم هذا أثبت لك ما أقول . فهل تعدنى ؟ » . أجاب « نعم  
سأحبنى يا فولودكا ! »

وسمى سانين أول أسمائه وهو ما لم يفعله من قبل فتأثر سانين وزادت  
رغبته مساعدة صديقه فقال ووضع يده على ركة نوفيكوف :

« إذن فاسمع ولنكن صريحين . إنك مسافر لأن ليدا رفضت أن تزوجك ولأنك لما كنا عند سارودين طننت أمها هي التي جاءت إليه سرآ » .  
فأطرق نوفيكوف ولم يسمعه الكلام لفرط حزنه وكأنا نكأ سانين بجرحا  
وجيماً ولاحظ سانين اضطراب صاحبه فقال لنفسه « يالك من أبله طيب  
القلب : » ثم استأنف الكلام :

« أما من حيث العلاقات بين ليدا وسارودين فلا أستطيع أن أجزم بشيء  
لأنى لا أعرف شيئاً ولكنى لا أعتقد .. » .

ولم يتم الجملة لما رآه من اسوداد وجه صاحبه ثم عاد فقال :  
« إن علاقتهما من حداثة العهد بحيث لا يمكن أن يكون قد حدث شيء  
خطير لاسيما إذا اعتبرنا أخلاق ليدا . وأنت بالضرورة تعرف كيف  
أخلاق ليدا » .

فثلت لعين نوفيكوف صورة ليدا كما عرفها وأحبها - ليدا المزهوة  
العالية الروح المؤتلفة العين وعليها من الجمال الناضج أكليل وضياء فأغمض  
عينيه واستراح إلى كلام سانين الذى عاد فقال :

« وهبهما تعابثاً قليلاً فقد مضى هذا وانقضى الآن . وعلى أنه ماذا يهملك  
إذا كانت فتاة شابة مجنحة الخيال مثل ليدا قد تسلت قليلاً ؟ أحسبك بلا جهد  
كبير تستطيع أن تذكر على الأقل اثنتى عشرة حادثة خلعت فيها العذار  
وفعلت ما هو أخطر من هذا » .

فنظر نوفيكوف إلى سانين نظرة الواثق وخاف أن يتكلم لئلا تجبو بارقة  
الأمل الوائية الباقية ثم تتم :

« إنك تعرف أى إذا .. » : ووقف وخانته الألفاظ وخنقته العبرات  
فسأله سانين بصوت عال والتعت عينه :

« إذاً ماذا ؟ إنى أستطيع أن أقول لك هذا . وهو أنه ليس بين ليدا  
وسارودين ولم يكن بينهما شيء » .

فنظر نوفيكيوف إليه مذهولاً وشرع يتكلم : « أنا . لقد ظننت ... » .  
وأحس أنه لا يسعه أن يصدق سائين . فقال سائين بحدة « لقد ظننت  
سخافات كثيرة ! وكان ينبغي أن تكون أعرف بليدا . أي حب هذا مع  
كل ذلك التردد ؟ » .

فطار نوفيكيوف فرحاً ودفع يده إلى سائين . ولكن وجه سائين تصلب  
وهو يرصد تأثير كلماته في نفس صديقه .

وبدا على نوفيكيوف السرور الواضح والارتياح البين إلى كون المرأة  
التي يشتهيها نقيه طاهرة ونطقت عيناه الحزيبتان الصريحتان بالغيرة الحيوانية .  
فنهض سائين وقال بصوت مهدد :

« أو هو . إذن فأني أقول لك : إن ليدا لم تجيب سارودين فقط بل كانت  
لها به علاقات غير شرعية وهي الآن حبلى » .

فسكنت الغرفة سكون الموت وابتسم نوفيكيوف ابتسامة مريضة غريبة  
وفرك كفيه وخرجت من شفثيه المرتجفتين صرخة ضعيفة . ودل تقبض  
ركني فنه على الغضب المكتوم فسأله سائين :  
« لماذا لا تتكلم ؟ » .

فرجع نوفيكيوف يمينه ولكنه جانب عين صاحبه وكان وجهه لا يزال  
تشوهه هذه الابتسامة . فقال سائين بصوت منخفض كمن يحدث نفسه :  
« لقد عانت ليدا تجربة هائلة . ولولا أنني أدركتها مصادفة لما كانت

الساعة حية . ولعادت الفتاة الجميلة القوية جثة ممسوخة غارقة بين أوحال  
النهر تأكل منها الحشرات . وليس المهم مسأله موتها فإننا جميعاً سمنوت يوماً ما  
ولكن ما أوجع أن يفكر المرء في أن الغبطة والوضاء التي تمنحهما شخصيتها  
للغير يذهبان بدهابها . نعم إن ليدا ليست منقطعة النظر في الدنيا ولكن ونحن .  
لو خلت الدنيا من مثل هذا الجمال لعادات مظلمة كالتقبر . أما أنا فأني مستعد  
أن أرتكب جريمة القتل إذا رأيت فتاة مسكينة تنقوض حياتها بهذه الطريقة  
السخيفة . وليس يعينني على الإطلاق أن تتزوج ليدا أو أن تذهب إلى  
( ١٢ م - ابن الطبيعة )

الشیطان ولكنه لا یسعی إلا أن أقول لك أنك مغفل أبله ! ولو انه كانت فی رأسك فكرة صحیحة واحدة أكنت تعنی نفسك وسواك من أجل أن امرأة حرة فی الاختیار قد أحببت رجلاً لیس بأهل لها وأطاعت غریزتها الجنسیة واستوفت تمام نضوجها ؟ ولست فاعلم بالأبلة الوحید . فإن فی الدنیا ملایین مثلك یحیلون الحیاة سجنًا مزویا عن ضوء الشمس وحرارتها ! وكم من مرة أطاقت فیها العنان لشهوتك برنقة موسم تشاطرك نسوئك ؟ وأما لیذا فما دفعها إلا لعاطفة وإلا شعر الشباب والقوة والجمال . فبأی حق تنفر منها أنت یامن تدعو نفسك رجلاً رشیداً ذكياً ؟ ماشأنتك بماضیها ؟ أهی أقل جمالا ؟ أم أقل صلاحاً لأن تحب وأن تحب ؟ أم المسألة أنك كنت ترید أن تكون أول من ینالها ؟ تكلم ! » .

فقال نوفیکوف وشفته تریحان :

« إنك تعلم حق العالم أن هذا لیس كذلك . » .

فصاح سانین : « نعم هو كذلك . وإلا فما السبب من فضلك ؟ » .  
فصممت نوفیکوف واسود كل شیء فی نفسه ولكن خاطر العفو والتضحیة طاف برأسه كما یومض شعاع النور فی الظلمة .  
وكان سانین یرقبه وكأنا قرأ ما یدور فی ذهنه فقال بصوت مضبوط متزن : « أراك تفكر فی التضحیة بنفسك من أجلها . وكأنی أسمعك تقول لنفسك « سأهبط إلى دركها وأحميها من الرعاع » هذا ماتقوله الآن لنفسك الفاضلة فیضحخ شأنك فی عینیك كما تضحخ الدودة تغتذى بالجنّة . ولكن هذا كله زور . ولیس هو إلا أكذوبة ؟ إنك لست مطیفاً لتضحیة الذات . ولو أن لیذا متلاً شوها الجدری لكان من المحتمل أن تستطیع أن ترفع نفسك إلى مستوى هذه البطولة ولكنك كنت خایقاً بعد یومین اثنين أن تستمى حیاتها العلقم وأن تذبذبا أو تهملها أو تمطرها التأنیب كل ساعة . أما الآن فإنك تقف من نفسك موقف العبادة . نعم لقد استحال وجهك وصار من یراك خلیقاً أن یقول « انظروا ! هذا قدیس ! » ولكنك لم تفقد شیئاً كنت

تبعيه . إن أعضاء ليلدا ما زالت كما كانت ولم تر أيلها قوة العاطفة ولا أصابها جزر في حيويتها البديعة . ولكن من المرغوب فيه جدا أن يروح المرء يستمتع ويقطف أزاهير اللذات وهو يوهم نفسه أنه إنما يأتي عملا شريفا ! ! » .

فلما سمع نوفيكوف هذا الكلام فارقه عطفه على نفسه واستولى على روحه شعور أنبل وأشرف فقال معاتها :

« إنك تجعلني أسوأ مما أنا في الواقع ، ليس ينقصني الشعور كما تظن . وما أنكر أن لي آراء معينة وأن بي بعض التحرج ولكني أحب ليدا وبرفنا ولو أني على يقين من أنها تحبني أكنت تظن أن يطول بي التردد من أجل أن ... » .

وخانه صوته . وهذا سائين فجأة واجتاز الغرفة ووقف أمام النافذة المفتوحة غارقاً في بحر من الفكر وقال :

« إنها في هذه الساعة حزينة جداً لا يسعها أن تفكر في الحب . وكيف أعرف هل تحبك أم لا تحبك ؟ ولكن يخيل لي أنك إذا ذهبت إليها وكنت بذهابك ثاني رجل لم يضطهدها من أجل حبها القصير . . . على كل حال لا أستطيع أن أعلم ماذا عسى أن تقول ! » .

وكان نوفيكوف حزناً كأنه يحلم وأشعره الحزن والسرور نوعاً من السعادة لطيفاً كالضوء في السماء مساء .

وقال سائين : « لنذهب . إليها . ومهما يكن ما يحدث فإنه سيرها أن ترى وجه إنسان وسط هذه الوحوش المسيخة المنتقبة . إن بك يا صديقي بعض الغباء ولكن في غبائك شيئاً ينقص سواك . تالله ما أغرب أن الدنيا كانت وما تزال تبني آمالها وسعادتها على مثل هذا الغباء ! تعال نذهب . » .

فابتسم نوفيكوف وقال : « إني على أتم استعداد للذهاب إليها ، ولكن أتم بأن تراني ؟ » .

فقال سائين ووضع يده على كتفي نوفيكوف :

« لا تفكر في هذا . إذا كنت تريد أن تفعل خيراً أو صواباً فافعله ودع المستقبل يعني بنفسه » .

فقال نوفيكوف بلهجة البت : « حسن فلنذهب » .

ولما صاروا في حرم الباب وقف وقال بلهجة التأكيد وعينه محمقة في وجه سائين : « اسمع سأبذل أقصى وسعى لإسعادها . وقد يبدو لك هذا الكلام مبتذلاً ولكني لأعرف كيف أعرب عما في نفسي بما هو خير من هذا » .  
فأجابه سائين بلهجة الودود : « لايكربك هذا يا صديقي . فإني فاهم ما تريد » .

( ٢١ )

كان الصيف وهاجا . والليل يسجوا إذا طلع القمر المنير ويعود الجو مثقلاً بشدى الرياض والحقول فتأنس النفوس وتجد الروح والغبطة :

وكان الناس يكدحون نهارهم أو يشتغلون بالسياسة أو بالفنون وبالأكمل والشراب والاستحمام والحديث حتى إذا فتر الحر وخفت وقدهت وسكنت الضوضاء وأخذ قرص القمر يطلع في الأفق ويطل على المروج والحقول ويريق على سطوح المنازل والحدائق ضوءه البارد خلصت أنفاس الناس واستأنفوا الحياة كأنما نقضوا عنهم ثوباً ثقيلاً وصارت الحياة في حيث تكون للشباب الغلبة أوسع وأكثر حرية فتتجاوب الحدائق بأصوات البلايل وتعمق الظلال وتعود العيون أشد تلماعاً والأصوات أعذب رقة ويبعث الجو مشرباً أنفاس الحب وطيبه .

وكان يورى وشافروف عظيمى الاهتمام بالسياسة وكانت قد تألفت جماعة التهذيب فطالع يورى كل الكتب الحديثة وراح يعتقد أنه وفق إلى العمل الصالح له . واهتدى إلى وسيلة يمحو بها كل شكوكه . ولكنه لم يكن يجد الحياة إلا عقيمة جافة لافتنة فيها على كثرة ما كان يقرأ وعلى الرغم من مشاغله جميعها ولم تكن الحياة تعود مشتهاة إلا حين كانت الصحة والعافية يضافان عليه، وإلا حين ينبه حواسه الحب . وكانت كل الفتيات سواء في



نظرة من قبل فانتقى واحدة ممن رآها جمعت مفاتن اترابها واستبدت دونهن بحسبها وروبقها .

وكانت طويلة القامة بارعة التكوين يعتدل رأسها الجميل على كتفها المصقولتين الناصعتين حديثها تغريد وغناؤها سحر . ولها في الشعر والموسيقى باع تستطيلها وتزهى بها ولكن حيويتها الدافقة لم يكن لها مظهر أقوى ولا صورة أتم من جهدها الجثماني فكان يلجج بها الحنين إلى شيء تضمه إلى صدرها وإلى أن تضرب الأرض بقدمها وأن تضحك وتغنى وأن تتأمل ذوى الوجوه الصبيحة من الشبان وكانت ربما اشتاقت - في وقعة الظهيرة أو في الليلة القمراء - أن تخلع كل ما عليها من ثياب وأن تعدو على الحشائش وتقذف بنفسها في النهر بحثاً عن تمن إلى اجتذابه واستهوائه إليها بأعذب نعمة وكان محضها يحرك نفس يورى فيعود أفصح لساناً وأسرع نبضاً وأحضر خاطرأ . وكان نهاره يفكر فيها ويحلم بها حتى إذا جاء الليل راح يبغيها وإن أبى أن يقر بذلك لنفسه . ولا ينفك يحلل إحساساته فتدوى على التعاقب كالنورة في الصقيع . وكلما سأل نفسه ماذا يجذبه إلى سينا كرسافينا أجب « إنها الغريزة الجنسية لاشيء سواها » فيشير هذا التعليل أعمق الاحتقار لنفسه . على أنه كان بينهما تفاهم ضمنى فكأنهما مرآتان تنعكس في صقال كل منهما عواطف الآخر .

ولم تكن سينا تعنى بأن تحلل خوالجها بل كانت تستلذها وإن أفلقتها وكانت تكتمها ولا يبيحها أحداً وكرهها أنها لم تستطع أن تعلم ما ينطوى عليه لها صاحبها وكانت ربما خيل إليها أنه ليس بينهما شيء فتأسى لذلك كأنما افتقدت ثميناً على أنها لم تكن تكره أن نكون موضع احتفال غيره من الرجال وأكسبها اعتقادها أن يورى يحبها دالة جعلتها أفتن لسواه من المعجبين بها . وكان يسحرها وجود سانين كل السحر ويسببها منه كتفاه العريضتان وعيناه الساكنتان وشماله الهادئة المستقرة . ولما تنهت إلى عمق ما يتركه سانين من الوقع في نفسها أهتمت بضعف الإرادة إن لم يكن بالحفة

وقلة الحشمة . ولكنها على هذا ظلت تمنحه أعظم الالتفات والرعاية .  
 وفي نفس الليلة التي كانت فيها ليذا تجوز ذلك الامتحان القاسي التمت  
 سينا ويورى فى المكتبة فاقترصا على تبادل التحية وانصرف كل منهما إلى  
 شأنه ومضت هى تنتقى الكتب واشتغل هو بمطالعة الصحف الواردة مع البريد  
 الأخير من بطرسبرج . على أنه اتفق أن زايلا المكان فى وقت واحد فترافقا  
 فى الطريق واجتازا معاً الشوارع الموحشة فى ضوء القمر وكان كل شىء  
 سا كما سكون القبر ولم يكن السارى يسمع إلا صوت الحراس من حين  
 إلى حين وإلا نباح الكلاب عن بعد .

ولما بلغا الميدان رأيا نفرأ جلوسا يضحكون تحت الأشجار واستطاعا  
 فى ضوء سيجارة تشعل أن يلمحا شاربا جميلا وورد على سمعهما صوت  
 يغنى « إن قلب الحسنة قلب كالريح » ولما اقتربا من بيت سينا جلسا على  
 مقعد وكان الظلام طاخيا وأمامهما الشارع العريض يضيئه القمر والكنيسة  
 على قمتها صليب ملتصع كالنجم باديا من فوق قمم الصفصاف .  
 فقالت سينا وأشارت إلى الكنيسة : « أنظر ! ما أجمل هذا ! » .

فنظر يورى إلى كتفها البيضاء الحاضرة نظرة الإعجاب واشتاق أن  
 يضمها بين ذراعيه وأن يقبل شفيتها الحمراء والناضجتين وكأنما لم يكن  
 له بد من ذلك وكأنما كانت هى تتوقع ذلك وتشتميه ولكنه ترك الفرصة  
 السانحة تمر وجعل يضحك من نفسه ساخرأ فى رفق فسألته ، « لماذا  
 تضحك ؟ »

فقال يورى وهو مضطرب وحاول أن ينجى انفعاله :  
 « لست أدرى ! لاشىء » .

وصمت كلاهما وأنصتا إلى أصوات ضعيفة يحملها النسيم إليهما فى الطلام  
 ثم باعته سينا بهذا السؤال : « ألم تحب قط ؟ » .

فأجابها يورى ببطاء : « نعم » .

وقال لنفسه : « وهينى صارحتها فإذا يكون ؟ » .

ثم قال لها : « إني الآن أحب » . فسألته : « وتحب من ! » .  
وأشفقت أن تسمع الجواب وإن كانت على يقين منه .  
فأجابها يورى « أحبك أنت » .

وحاول عبثا أن يقول ذلك بلهجة المازح وهو مائل إليها يحدق في عينيها  
المؤتلمتين وكانتا ناطقتين بالدهشة والانتظار واشتاق يورى أن يعانقها ولكن  
شجاعته خائنه مرة أخرى فمظاهر بأنه يعالج بأن يكتم الوباء .

فحدثت سيمبا نفسها « انه إنما يمزح » ونحمت في نفسها الحرارة ه  
وآلمها هذا التردد من يورى وأرادت أن ترد الدموع فقرضت أسنانها  
ثم قالت بلهجة غريبة : « هذا كلام فارغ » .

ونهضت فقال يورى بجد غير طبيعي :

« إني مجاد جداً . فصدقيني فإني أحبك حبا طاغيا » .

فتناولت كتبها ولم تنبث وسألت نفسها : « لماذا يتكلم على هذا النحو ؟  
لقد أريته أنى أعنى به فلما بدا له هذا أخذ يحتقرنى » .

فانحنى يورى ليلتقط كتابا سقطت وقالت له هى ببرود :

« لقد آن أن أذهب إلى البيت » .

فأحزن يورى أنها تريد العود إلى بيتها فى هذه اللحظة ولكن رأى أنه قام  
بدوره على أحسن وجه وأنجحجه وأنه لم يصنع شيئا مبتدلا ثم قال بصوت  
مؤثر : « إلى الملتقى » .

فدلت إليه يدها فأسرع فانحنى ولثمها ففرغت سينا وانفجرت شفتاها عن  
صبيحة خافتة وقالت : « ماذا تصنع ؟ » .

ولم تكده شفتاه تلمسان يدها الرخصة الصغيرة ولكن صدره جاش  
مع ذلك حتى لم يسهه أكثر من الابتسام الخفيف وهى تسرع نائبة عنه  
ثم ما لبث أن سمع صوت بابها ولم تفارقه هذه الابتسامة السخيفة وهو  
ماض إلى بيته وراح يحس القوة فى جسمه والغبطة فى قلبه .

( ٢٢ )

لما بلغ يورى غرفته الضيقة كالسجن وجد الحياة أبعث ما تكون على  
السامة وخيل إليه أن حادثته الغرامية التي وقعت له مبتدلة أتم الابتدال .

« لقد سرقت منها قبالة ! فأى نعمة ! وما أعظم بطولتى ! إن البطل  
يستهوى فى ضوء القمر فتاته الحسانة بالألفاظ الملتهبة والقبل النارية ! رباه !  
أى سخافة ! إن المرء ليجود مغفلا فارغا جدا فى هذا الحجر الصغير اللعين ! » .

وكان يورى وهو فى المدن يتصور أن انريف هو المكان الصالح له  
حيث يستطيع أن يعايش القرويين ويشاطرهم كدهم تحت الشمس المحرقة .  
فلما أتيت له الفرصة بدا له أن حياة القرى لا تطاق وأحس الحاجة إلى  
منشط من المدن التي لا يتسع سواها لتواه ومواهبه وكان لا يفتأ يقول « ما أحلى  
جلبة المدن وضوضاءها ! وهزة الفصاحة المنبعثة عن قوة العاطفة ! » بيد  
أنه لم يابث ان كبح هذه الحماسة الصمبية .

« وبعد فما معنى هذا ؟ أى شىء هذه السياسة والعلم ؟ أنها لكبيرة  
ما بقيت مثلاً عالياً نائية ولكنها فى حياة كل فرد ليست إلا تجارة ككل شىء  
سواها ! النضال ؟ جهود تبتان ؟ إن ظروف الحياة الحديثة تجعل هذا  
مستحيلاً . إني أعانى وأجاهد وأتخطى رقاب الموانع ! حسن وماذا إذا ؟  
أين المنتهى ؟ إنه ليس فى حياتى على كل حال ! لقد أراد برومسيوس أن  
يهدى النار إلى الناس وأن يعلمهم قدحها ولقد فعل . ولك أن تعد هذا نصراً  
كبيراً وفتحاً مبيناً إذا شئت . ولكن ما الرأى فىنا نحن ؟ إن أقصى ما يسعنا  
هو أن نضيف عيدانا موقوفة إلى نار لم نوقدها ولن نكون نحن المحمديها ؟ » .

وخطر له أنه إذا كانت الأمور على غير ما ينبغى فذلك لأنه ليس من  
طراز برومسيوس ! وهو خاطر محزن فى ذاته كل ما أفاده هو أن أتاح له  
فرصة جديدة لتعذيب نفسه .

« أى برومسيوس أنا يا تربي ؟ إني لأزال أنظر إلى الأشياء من وجهة

شخصية أنانية . « أنا » دائماً « وأنا » في كل شيء . ألا أنى لضعيف مهين كغيرى من الناس الذين أحترقهم من أعماق قباي .

وساعته هذه المقارنة حتى اختلطت خواطره فجلس برهة يفكر في الموضوع ويعالج أن يلتمس مبرراً ما . فتألم وارتاح قليلاً إلى هذا الخاطر : « كلا لست مثل سواي لأنى على الأقل أفكر في هذه الأمور وهو ما يحلم بأن يفعله أمثال ريبازانتزيف ونوفيكوف وسائين . إنهم لا يجرى ببالهم قط أن ينقادوا أنفسهم إذ كانوا أتم ما يكونون سعادة ورضى عن نفوسهم كخنزير « زردشتر » . إن الحياة كلها تتلخص في ذاتيتهم الذرية وتالله لقد اعدوني بهذه السطحية ! آه نعم ! إذ كان المرء بين الذئب فليهو مثلها . إن هذا طبيعي » .

وجعل يورى يتطعم الغرفة جيئة وذهوباً فحدث - وذلك مألوف - أن تغير اتجاه خواطره بتغير المكان .

« حسن جداً . هذا كذلك . وعلى كل حال فالواجب النظر في أمور كثيرة . مثال ذلك ما هو موقفى حيال سيننا كرسافينا ؟ وليس المهم هل أحبها حباً جما أم قليلاً ، بل المسألة متعلقة بالنتيجة . ولنفرض أنى تزوجتها أو اتصلت بها اتصالاً وثيقاً . فهل ترانى أعود بذلك سعيداً ؟ إن الغدر بها جريمة وأنا أحبها . . . حسن إذاً فإنى أستطيع . . . الأرجح فى الاحتمال أن ترزق منى أبناء . . . » وأخجله هذا الخاطر « وليس فى هذا عيب سوى أنه قيد يفندنى حريتى . فأعود رب أسرة . تقول النعيم المنزلى ؟ كلا ليس هذا بسببلى » .

« واحد . أثنان . ثلاثة . » - هكذا كان يعد وهو يحاول أن يتخطى مربعين ويضع قدمه على الثالث .

« لو استطعت أن أكون على يقين من أن لا تحمل أو من أن أحب أبناءنا إذا رزقناهم وأقف حيسانى لهم ! كلا ! ما اردل هذا وأصغره !

وربما انتزيف سيكون له أبناء يحبهم فأى فرق يكون بيننا ؟ حياة تضحية بالذات ؟ ويزعم الزاعم أن هذه هي الحياة الحقيقية ؟ نعم هي كذلك ولكن تضحية لمن ؟ وبأية طريقة ؟ ودع عنك الطريق الذى اختاره والغاية التى أرمى إليها وأرنى المثل الأعلى الذى يستحق أن أموت فى سبيله . كلا ! إن السبب ليس راجعاً إلى ضعفى بل مرده إلى أن الحياة نفسها ليست بأهل للتضحية أو الحماسة . وعلى هذا فلا معنى البتة لأن يعيش المرء » .

ولم يتفق له من قبل أن اقتنع بصحة هذه النتيجة مثل هذا الاقتناع وكان على منضدته مسدس كلما مر به وهو سائر أخذت عينه حديده المصقول .

فتناوله وفحصه بعناية وكان محشواً وصوب فوهته إلى صدغه وقال لنفسه : « هكذا ! بانج - ثم ينقضى الأمر ! فهل من الحكمة أو الغباء أن يقتل المرء نفسه ؟ هل الانتحار جبن ؟ إذأ فاحسبني جباناً ! .

وأحس للمس الحديد البارد لجبينه المتهب لدة وفزعاً وسأل نفسه : « وماذا عن سيننا ! دعنى من هذا فلن أفوز بها ولهذا فإنى أدع لغيرى هذه المتعة » .

وأيقظ خاطر سيننا ذكريات سارة حاول أن ينفها لأنها حمق وضعف وقال « لماذا لا أفعل ؟ » .

فكأنما كف قلبه عن الحققان . ثم سد المسدس إلى جبينه فى احتفال وإصرار ورفع الزناد فجمدت دماؤه فى عروقه وطن فى أذنه شئ عومادت به الغرفة .

ولكن الرصاصة لم تنطق فلم يسمع سوى صوت الزناد فهوت يده إلى جانبه وهو يكاد يغشى عليه وكانت كل شعرة ترتجف ورأسه يدور وشفته معصوبتان ويده من الاضطراب بحيث سقط المسدس على المنضدة . فقال وعادت إليه نفسه :

« ما أغرب شأنى » .

ومضى إلى المرأة ليرى فيها وجهه وقال :

« أجبان أنا إذن ؟ كلا ! لست به . لقد فعلتها كما ينبغي وماذا أصنع  
إذا كانت الرصاصة لم تشأ أن تنطلق ؟ » .

ورامقه خياله في المرأة وكان فيما يرى بادى الجلد . ثم أخذ يقنع نفسه بأنه  
لا يعلق أية أهمية بما حدث ولأجل هذا أخرج لسانه لخياله ! ونأى عن  
المرأة وقال بصوت عال : « إن القدر لم يشأ أن يتم ما أردت » .  
و كأنما أنعشه صوته . ثم سأل نفسه « ترى هل أبصرنى أحد » وتلفت  
مذعورا ولكن كل شيء كان ساكنا ولم يسمع حركة وراء الباب . فكأنما  
لا موجود سواه ولا معذب في هذه الوحدة غيره . وأطفأ المصباح فأذهله  
أن رأى أولا أشعة الفجر الحمراء ثم استلقى لينام وأحس في نومه شيئا هائلا  
ينحني فوقه ويخرج أنفاساً من النار .

( ٢٣ )

زحف الأصيل في رفق ولين وقد ترفق في حواشيه أرج الأزهار . وكان  
سانين جالساً إلى منضدة قريباً من النافذة يطالع - أو يحاول أن يطالع - في  
الضوء الكابي قصة يجربها وهي وصف لمصرع أسقف هرم قضى نحبه وهو لا بس  
ثيابه اللاهوتية وفي يده صليب مرصع والبخور يعقد في الجو سحابات .  
وكان الجو في الغرفة بارداً مثله خارجها ونسيم المساء العليل يمسح جسم  
سانين القوي ويملاً رثيه ويعبث بشعره فضى في قراءة القصة وكانت شفتاه  
تتحركان من حين إلى حين فلو رأته لحسبته صبيهاً كبيراً يأتهم بحكاية من  
حكايات المخاطرة بين الهنود على أنه كان كلما أوغل في الكتاب تسود خواطره  
ويعجب للندى كيف حشيت كل هذه السخافة وللناس وكثافتهم ووحشيتهم !  
ولنفسه كيف بندهم وسبقهم !

وفتح الباب ودخل منه زائر فرفع سانين طرفه وقال وهو يطوى الكتاب :  
« آها . هاعندك من الأخرار » .

فافتقر ثغر نوفيكوف عن ابتسامه حزينة وصافح سانين وقال وهو يدنو

من النافذة : « لاشيء ! إن كل شيء كما كان »  
 ولم يكن سانين يستطيع أن يرى من نوفيكوف إلا شخصه الطويل .  
 فظل برهة طويلة ينظر إليه ولا يتكلم  
 وكان سانين قد مضى قبل ذلك بصديقه إلى ليذا التي تغيرت وزايلها الزهو  
 والشموخ فلم يثبتا بحرف عما هو أدنى إلى قلبيهما وأعلق بهما وكان سانين يعلم  
 انهما سيشتميان بعد أن يتصارحا وإنهما خايفان أن يكونا أشقي وأتعس اذا  
 ظلا صامتين وأن ما يستسهله هو لا يسعهما الا بجهاد جاهد فقال لنفسه « ليكن  
 الأمر كذلك فإن الألم ينق الروح ويرفعها فأما الآن فقد سنحت الفرصة  
 الملائمة لهما

وكان نوفيكوف واقفا قبل النافذة ينظر في صحت إلى مغرب الشمس وكان  
 ينازعه الأسى على ما فقد والشوق إلى اللذة المنتظرة فصور لنفسه ليذا حزينه  
 مطوقة بالعار فلو آتته الشجاعة لركع أمامها الساعة ونفث بلماته الحرارة في يديها  
 الباردتين ويحبه الضخم الغفور حياة جديدة في عروقها ولكن أنى له بالقوة  
 والقدرة على المضى إليها ؟

وكان سانين يدرك ذلك فنهض في بطاء وقال ، « إن ليذا في الحديقة  
 فهل نذهب إليها ؟ »

فأسرعت دقات قلب نوفيكوف وامتزج في نفسه الفرح والحزن أغرب  
 امتزاج وتغير وجهه قليلا وجعلت إصابعه تعبث بشاربيه . فأعاد . سانين  
 سؤاله في هدوء كأنما آلى أن ينهض بأمر خطير ما قولك في ؟ هنا أنذهب ؟ »  
 فأحس نوفيكوف إن سانين يعرف كل ما في نفسه فاستجبا كالصبي وإن  
 كان قد أراحه هذا الإحساس قليلا . فقال سانين في رفق « هيا بنا ! »

وأمسك بكتف نوفيكوف ودفعه إلى الباب فتمتم « نعم . . أنا . . »  
 وكاد يعانق سانين ولكنه لم يجترأ ولم يسعه إلا أن يرهقه بعين عبرى  
 وكانت الحديقة الدافئة العطرة مظلمة وأغصان الأشجار فوق جذوعها تكون  
 فيما بينها أقبية تحت السماء الخضراء وعلى سطح الأرض الظلمة ضباب



خفيف خائف فكأنما هناك شبح غيد مرئى يجوب مسالك الحديقة الصامتة ويسرى بين الأشجار الجامدة فترجف لطيفة الأوراق والأزهار الناعسة وكان الشفق لايزال وهاجا فيما وراء النهر المنحدر بين المروج الخالكة وعلى حرفه تجلس ليذا مكبة عايمه مائلة إليه كأنه روح حزين ظفره الطفل فاما سمعت صوت أخيها ملأها يقينا لم يلبث أن ولى أسرع مما جاء واستحوذ عليها الخوف والحجل وأحست كأنما لاحق لها في السعادة لا ولا في الحياة وكانت لذلك تقضى النهار كله في الحديقة وفي يدها كتاب إذ كانت عينها لا تقوى على النظر إلى أمها . وتحدث نفسها مرة بعد أخرى ان ألم أمها لا يكون شيئاً مذكورا بالقياس إلى ماتعانيه هي الآن ولكنها على هذا ما اقربت من أمها الا تلعم لسانها وارتمت في عينها نظرة المذنب فأثارت خجلاتها واضطرابها العجيب ظنون أمها وحركت شكوكها ولحمت ذلك ليذا فصارت تلوذ بالحديقة فراراً من نظراتها الفاحصة وأسئلتها القلقة . وهكذا كانت الليلة جالسة على حافة النهر تنظر إلى المغرب وتفكر في مصابها وكانت الحياة لاتزال في نظرها مستعجمة وكانما يحول بينها وبين استجلائها شبح بشع . فاستعان بضعة كتب وسعت أفق فكرها وحررته فجذعت إلى الاعتقاد بأن سلوكها طبعى بل حقيقى بالثناء ذلك إنها لم تسىء إلى أحد وما فعلت شيئاً سوى أن أمكنت نفسها وشخصا آخر مثلها من اللذة الجسمية التى لاشباب بغيرها والتي تعقم الحياة بدونها وتفقر وتعود كالشجرة العارية في الخريف .

واستسخرت أن علاقتها بذلك الرجل علاقة لم تمنحها الكنيسة موافقتها بعد . ذلك أن حرية الفكر قد نقصت هذه الضرورات من زمن بعيد وانها لحقيقة أن تغتبط بهذه الحياة الجديدة أغتباط الزهرة استيةظت صباها على مس اللقاح يحماه إليها النسيم ولكنها مع هذا أحست أنها صارت أحط وأسفل من كل منحط وسافل .

وذابت كالشمع كل هذه الآراء النبيلة الخلية والحقائق الأبدية لاقترب

يوم الفضيحة وصارت تفكر في أن تدوس بقدمها من تمهنونها بل همها الوحيد وشغلها الشاغل هو كيف تجانبهم أو تخدعهم .

على أنها مع رغبته في إخفاء حزنها عن غيرها أحست جاذبا الى نوفيكوف كما تجذب الشمس الزهرة . وخيل اليها ان من الحقارة بل من الاجرام أن يراد منه انقاذها . وحز في ضلوعها أن يتوقف أمرها على حبه وصفحه ولكن الرغبة في الحياة كانت أقوى من الكبر

وكان خوفها من غباء أعظم من احتقارها له فلم تكن تستطيع أن تنظر الى نوفيكوف بل كانت ترجف في حضرته كالعبد أدام ملك رقه فما أشبهها بالطائر المهيف الجناح الذي لايسعه أن يطير مرة أخرى

وكانت اذا جاوز الألم طاقتها ربما فكرت في أخيها بشيء من الدهشة . وكان لا يخفى عنهما انه لا يقدر شيئا وانه ينظر اليها وهي أخته نظر الذكر الى الأنثى وانه أناني لا يكثر ث للعرف والعادة ولكنه الرجل الوحيد الذي كانت تحس الحرية المطلقة في محضره والذي تستطيع أن تصارحه بأخفى أسرار حياتها : لقد خطت ... حسن . وماذا في هذا ؟ ولقد أمكنت رجلا من نفسها .. حسن جدا وهل كان هذا الابعشيتهما ؟ وسيحتقرها الناس ويمتهنونها قذايهم ان أمامها الحياة وصوء الشمس والدنيا الطويلة العريضة وأنا من حيث الرجال فهم كثر وستأسى أمها وتحزن . حسن . ان هذا شأنها هي اذا شئت ذلك . وان ليلا لتجهل شباب أدها ولا تعرف عنه لافليلا ولا كثيرا ومتى ماتت قان يبقى مجال للبحث والتنقيب ، ولقد التقيا بمصادفة في طريق الحياة ورافقها مسافة فهل هذا سبب يدعوهما الى تبادل المقاومة والمعارضة ؟

وتبينت ليلا أنها لن ترزق حرية أخيها وإنما خطرت لها هذه الآراء بتأثير هذا الرجل القوى الساكن الذي تعجب به وتحميه فطافت برأسها خواطر غريبة .. خواطر ليست مشروعة الصبغة وحدثت نفسها أن « آه لو كان غريبا ولم يكن أخي ! » .

وبادرت فعاجلت أن تخفق هذا الخاطر الفاضح المغرى .

ثم ذكرت نوفيكيوف فاشتاقت كالرفيق العزيز أن يمنحها عفوه ورضاه  
وسمعت وقع أقدام فتلنمت وجاء إليها سانين ونوفيكيوف في سكون ولم نستطع  
أن ننبين وجهيهما في الظلام ولكنها أحست أن اللحظة المرهوبة قد دنت  
أصفر وجهها وكأنما أوشكت الحياة أن تنتهى .

وقال سانين : « هذا أنت ؟ لقد جئت إليك بنوفيكيوف وسيقول لك  
كل ما عنده فأمكثا هنا ريثما أذهب وأعود بشيء من الشاى » .

وإنقلب عنهما مسرعا فظلا هنيئة يرقبان قيصه الأبيض يغيب في ظلمة  
الليل وكان السكون من العمق بحيث ظناه لم يجاوز ظلال الأشجار  
المحيطة بهما .

وقال نوفيكيوف بصوت رقيق متهدج وقع من قلبها أعمق وقع : « ليذا  
بتروفنا ؟ » .

فقالت لنفسها مسكين ! ما أطيبه ! » .

ومضى هو فقال : « انى أعرف كل شيء يا ليذا بتروفنا . ولكن حبي  
لك باق على عهد . وربما أحببتى يوما ما فقولى لى هل نقبلينى  
زوجا ؟ » .

وقال لنفسه « خير لى أن لا أكثر من الكلام فى هذا إذ لا ينبغى أن  
نعرف أى توضحية أبلغها من أجلها » .

فصمت ليذا فكان المرء يسمع خرير الماء فى هذا السكون وعاد نوفيكيوف  
إلى الكلام فقال : « إننا شقيان يا ليذا . ولعل الحياة نعود أخف محملا إذا كنا  
معا » وكانت هذه الكلمات خارجة من أعماق قلبه ففاضت عينا ليذا بدموع  
الشكروهى تميل إليه وتقول « لعل وعسى » .

على أن عينها قالت له : « ويعلم الله أنى سأكون زوجة صالحة وأنى  
سأحبك وأحترمك » .

فنهض نوفيكيوف ما قالت العيان فهوى إلى ركبتيه وتناول يدها وأمطرها

قبيلات حارة فأجاشت هذه العاطفة نفس ليدا فنسيت عارها وحدثت نفسها  
« أن قد انقضى ومضى ذلك الأمر وسأسعد مرة أخرى . فيالك من رجل  
طيب ! »

وأبكاها الفرح فآتته كلتا يديها وانحنت على رأسه ولثت شعره الناعم  
الحريري الذي كانت تعجب به ومثلت لعينها صورة سارودين ولكنها لم  
تظهر حتى غابت .

ولما عاد سانين بعد أن أفسح لها الوقت للتفاهم ألفاهما جالسين وأيديهما  
مشتبكة وهما يتحدثان بصوت خافت هادىء

فقال سانين بهيئة الجاد : « آها ! اشكرا الله واسعدا »

وكان يهيم أن يقول شيئاً آخر ولكنه عطس بدل أن يتكلم ثم قال ومسح

عينيه : « إن الجو هنا رطب فاحذر البرد »

فضحكت ليدا وتجاوب ما وراء النهر بصدى صوتها الفاتن ثم قال سانين

بعد فترة : « سأذهب عنكما »

فسأله نوفيكوف « إلى أين تذهب ؟ »

قال « إن سفاروجتش وذلك الضابط الذى يعجب بتولستوى

— ما اسمه ؟ — قد دعوانى »

فقلت ليدا ضاحكة : « اتعنى فون دابتر ؟ »

— « هو بعينه . ولقد أرادا أن نكون جميعاً هناك ولكنى قلت لهما أنك

لست فى البيت »

فسأله ليدا ضاحكة أيضاً : « لماذا قلت له ذلك ؟ ربما كنت أذهب »

فقال سانين : كلا . ابقيا هنا . ولو كان معى رفيق لبقيت

مثلكما »

ثم تركهما

وزحف الليل وارتمت على الأرض غيابات الطفل وبدا أول نجم يرتعش

فى مرآة النهر المتدفق .

كانت الليلة داجية والسحب يطارد بعضها بعضاً فوق الأشجار وكانت تمضى مسرعة كأنها مرسلتة إلى غاية خفية والنجوم تتلامح لحظة وتختفى أخرى وكل شئ في السماء كأنه في هرج ورج على حين كانت الأرض كمن ينتظر شيئاً وهو معلق الأنفاس فكانت الأصوات الآدمية المتنازعة وسط هذا السكون مستثقلة عالية .

قال فون دايتز وهو يتعثر تعثراً شديداً : « مهما يكن من الأمر فإن المسيحية نعمه باقية وبركة خالدة على الإنسانية إذ كانت هي النظام الوحيد التام المفهوم للأخلاق » .

فقال يورى وكان سائراً خلفه ورمى برأسه يمينه على سبيل التحدى وعينه إلى ظهر الضابط : « هذا صحيح . ولكن المسيحية في صراعها مع الغرائز الحيوانية في الإنسان ظهر أنها عاجزة كغيرها من الأديان »  
فصاح فون دايتز مغضباً « ماذا تعنى بقولك ظهر أنها كذلك ؟ إن للمسيحية المستقبل وفي الإشارة إلا أنها عتيقة . . . »

فقاطعه يورى بجدة : « ليس للمسيحية مستقبل . وإذا كانت لم تنتصر وهي في أوج نشوئها بل صارت آلة في أيدي عصابة من الدجالين فمن السخافة المطبقة أن نتوقع منها معجزة في هذه الأيام التي عاد حتى اسم المسيحية فيها مضحكاً . إن التاريخ لا يرحم وكل ما يخرج من الميدان لا يسمع أن يكر إليه » .

فصرخ فيه فون دايتز : « هل تريد أن تقول أن المسيحية خرجت من الميدان ؟ »

فمضى يورى في كلامه معانداً : « أعنى ذلك على التحقيق . وأراك تعجب لذلك كأن مثل هذه المفكرة مستحيلة . كما أن شريعة موسى قد بادت وكما أن بوذا وآله الاغريق قد غبروا كذلك ذهب المسيح . هذا قانون النسوء فماذا يدعشك ؟ أتؤمن بألوهيته ؟ »

فقال فون دايتز وقد ساءت لهجة يورى أكثر مما ساءه السؤال :  
« كلا لا أو من بألوهيته »

فسأله يورى : « إذآ فكيف تقول أن إنساناً يستطيع أن يخلق سنناً  
أبدية ؟ »

وحدث نفسه إن فون دايتز « فدم غيى » وارتاح إلى الاقتناع بأنه دونه  
ذكاء بمراحل وأنه يعجز عن فهم ما هو واضح وضوح الشمس .  
فقال فون دايتز وقد تحمس بدوره : « لنفرض أن هذا كذلك . فإن  
المستقبل على الرغم من هذا النرض ستكون قاعدته المسيحية . ذلك لأنهم  
تفن . ولكنها كالبذرة فى التربة ... »

فقاطعه يورى وبه بعض الارتباك والغضب لارتياكه :  
« لم أكن أتكلم عن هذا . وإنما أردت أن أقول ... »  
فقال : « عفوا فإن هذا هو ما قلته »

فقاطعه يورى مرة ثانية وقد هاجه أن هذا الغيى يظن نفسه أذكى الاثنى  
« إذا كنت قد قلت كلا فىنى أعنى ما أقول . ما أسخفك ! أريد أن  
أقول ... »

فقال « قد يكون هذا كذلك . وأنا آسف إذآ كنت فد أسأت الفهم »  
وهز فون دايتز كتفيه الضيقتين هزة المتنازل إلى التسامح وكأنه يقول إنه  
فاز على مناظره .

ولم يفت يورى هذا المعنى فكاد يخنقه الغضب وقال :  
« لست أنكر أن المسيحية قامت بدور عظيم ... »

فصاح فون دايتز : « آه ! إنك الآن تناقض نفسك » والتز هذا النصر  
وسره جداً أنه يفوفى يورى ذكاء وفطنة .

فقال يورى بجرارة : « ربما خيل إلى مثلك أنى أناقض نفسى ولكن  
الواقع أن فكرتى منطقية وليس دنى إنك لا تريد أن تفهم . ولقد قلت

وأقول الآن أن المسيحية قد غير عهدنا وإن من العبث أن نتطلع إليها لخلاصنا «  
 فسأله فون دايتز قائلاً : « نعم نعم . ولكن هل تريد أن تنكر التأثير  
 الحسن الذي أحدثته المسيحية باعتبارها قاعدة النظام الاجتماعي ؟ »  
 أجاب « كلا ! لا أنكر ذلك »

فقال سانين : « ولكني أنكره » وكان يسير الى الان صامتا وراءهما  
 وكان صوته هادئاً لذيذاً على العكس من المتناظرين ، فصمت يورى وغاظته هذه  
 اللاهجة الساخرة المضبوطة النبرات ولكنه لم يجد الرد حاضرآ ولم يكن يجب أن  
 يناظر سانين لان معجم ألفاظه المؤلف لم يكن يجديه في هذا النزال وكان يخيل  
 له إذا قارعه كأنما هو واقف على الجليد يحاول أن يهدم حائطاً . غير أن فون  
 دايتز صاح مغضباً : « أسمح لي أن أسألك لماذا ؟ »

فقال سانين بلهجة جافية باردة : « لأني أنكر ذلك »  
 أجاب يورى : « لأنك تنكر ذلك ؟ إذا قرر المرء شيئاً فيجب عليه أن  
 يثبتته » .

أجاب : « لماذا يجب أن أثبته . إنه لا حاجة إلى إثبات أى شيء ! هذه  
 عقيدتي وليس لي أقل رغبة في إقناعك . وعلى أن هذا عبث » .  
 فقال يورى بخدر : « إذا سايرناك في أسلوب تفكيرك كان الأولى أن  
 نحرق كل كتب الأدب » .

فأجابه سانين : « لا لا ! لماذا تفعل هذا ؟ إن الأدب شيء جليل جداً  
 وممتع جداً . والأدب الصحيح الذى أعنيه ليس جديلاً وليس صاحبه كذلك  
 الدعى الذى لم يكن يجد ما يصنع ذهب يعالج أن يقنع كل إنسان بأنه آية في الذكاء  
 وتوقد المذعن . إن الأدب يجدد الحياة ويعيد إنشائها ويتغلغل وينفذ حتى إلى  
 دم الإنسانية جيلاً بعد جيل . ففى القضاء عليه سلب لكل لون للحياة وكل  
 طعم وروح لها » .

فوقف فون دايتز وترك يورى يمر به ثم قال لسانين :

« أرجوك أن تزيدنى ! إن ما قلته الآن ممنع لى جداً » .

فاستغرق سنانين فى الضحك ثم قال : « إن ما قلته بسيط جداً وفى وسعى أن أفيض فى البيان إذا شئت . . . وعندى أن المسيحية قامت بدور ضئيل فى حياة الإنسانية . ذلك أنها فى الوقت الذى أحس فيه الناس أن حالهم لا يطاق وصمم فيه المضطهدون والمستعبدون لما ثابت إلههم مداركهم على أن يقبلوا نظام الحياة الجائر وأن يعصفوا بالطفيليات الآدمية — أقول فى هذا الوقت ظهرت المسيحية وديعة متواضعة تعد الجزيل فانحمت على النزاع واستنكرته وألاحت للناس بصورة النعيم المقيم وعلت الإنسانية بأنغامه حتى أنعستها وانطلقت تنشر دين الإذعان والتسليم لسوء المعاملة وقصارى القول أنها جاءت بمثابة « متنفس » للحق المكتوم فعاد بها ذوو الشخصية القوية الذين درجوا ونشأوا وسط روح الثورة وكانوا يحنون لى خلع نير القرون — أقول عادوا وقد فقدوا كل حرارة كانت تحفزهم فساروا كالحوارين لى ميدان الفناء يطلبونه بشجاعة خليقة بغرض أسمى . ولم يكن خصومهم يبعون بالبداهة غير هذا . والآن فسيحتاج الأمر لى قرون ظلم فاضح قبل أن توفد نيران الثورة مرة أخرى . ولقد خلعت المسيحية على الشخصية الآدمية العنيدة التى لا تصبر على الرق ثوباً من التوبة والندم يخفى تحته كل ألوية الحرية . وخذعت الأقوياء الذين كان يسعهم الآن أن يستحذوا على الثروة والسعادة بأن نقلت مركز ثقل الحياة لى المستقبل — لى عالم أحلام لا وجود له — عالم لن يراه أحد منهم . وهكذا اختفت روعة الحياة وفتنتها وماتت الشجاعة والعاطفة والجمال . ولم يبق إلا الواجب وحلم العصر الذهبى فى المستقبل — ذهبى للآتين — نعم لقد كان دور المسيحية صغيراً . واسم المسيح ... »

فقاطعه فون دايترز صارخاً ووقف :

« أبداً ! إن هذا يتجاوز الحد ! »

وجعل يلوح بذراعيه الطريقتين فى الظلام



فسأله يورى مضطرباً « ولكن ألم يخطر لك قط أى عصر فظاحة وإزاقة دماء كان خليقاً أن يكون لولا أن حالت المسيحية دون ذلك؟ » .

فأجابه سانين بإيماءة استخفاف : « ها ! ها ! حدث فى بادىء الأمر أن « الميدان » — تحت ثوب المسيحية — تاطخ بدماء الشهداء ثم حدث بعد ذلك أن الناس كانوا يذبحون أو يلقون فى السجون أو محابس المحامين . والآن يسفك كل يوم من الدم أكثر مما يمكن أن تربقه ثورة عامة . وشر ما فى الأمر أن كل تحسين فى حياة الإنسانية لا يتم إلا بسفك الدماء والفوضى والانتماض وان كان الناس لا يفتأون يدعون أن حب الإنسانية وإيثار الجار هما قاعدة حياتهم وأعمالهم . والأمر كله ينتهى بتأساة سخيفة كاذبة ليست من هذا ولادالك فى شىء . أما أنا فأنى أؤثر أن تنزل بالعالم كارثة عامة وحية تقضى عليه — ذلك خير عندى من وجود نباتى فاتر يمتد على الأرجح إلى عام أخرى » .

فصمت يورى ومن الغريب أن ذهنه لم يكن موجهاً إلى ما يقول سانين بل إلى شخصيته . وساءه من سانين يقينه المطلق ولم يطق أن يحتمل هذا منه ، فقال وهو مدفوع بعامل قوى إلى إبلام سانين : « هل لك أن تتفضل على فتحبرنى لماذا تتكلم دائماً كأنك تعلم أطفالاً صغاراً ؟ »  
فقلق فون دايتز لهذا السؤال وقال شيئاً على سبيل التوفيق .

وسأله سانين بحدّة ، « ماذا تعنى بذلك؟ ولماذا تغضب؟ »

فأحسن يورى أن كلامه جارح وأنه لا ينبغى أن يتماذى ولكن كراته المثوبة دفعته فقال : « أن هذه اللهجة ثقيلة الوقوع جداً »

فأجابه سانين وبه بعض الغيظ إلا أن "به رغبة فى التسرية عن صاحبه « إنها لهجتي المألوفة »

فقال يورى ورفع صوته : إنها ليست موافقة دائماً ولا أدرى ماذا يكسبك مثل هذا اليقين الجازم ! »

فأجابه سانين وقد عاد إلى سكينته : « لعل السبب شعورى أنى أذكى منك »

فوقف يورى وهو يردد من فرعه إلى قدمه وصاح بصوت متهدج : فقال سانين « لاتغضب ! أنى لم أرد أن أسىء اليك وإنما أعربت عن رأيى الصريح . وليس رأيى فيك الا كرايىك فى وكرأى فون دايتز فىنا وهكذا وذلك طبيعى »

وكان سانين يقول ذلك بلهجة ودية صريحة لاندع محلا للغضب فصمت يورى ولكن فون دايتز ظل قلقاً عليه . فتمتم يورى « مهما يكن من الأمر فىنى لا أصارحك برأى وأرميه لك فى وجهك »  
فأجابه سانين « كلا ! إنك لاتفعل هذا وذلك حيث تخطىء ولقد كنت أصغى إليك وأنت تناظر صاحبك الآن فرأيت روح الغضب والإساءة يحفز كل كلمة يجرى بها لسانك . والمسألة مسألة شكل . أنا أقول ما أرتأى وليس فى هذا ذرة من الامتاع . ولو أننا كلنا صرحاء مخلصين لكان هذا أمتع لنا جميعاً »

فضحك فون دايتز وقال « ياله من رأى مبتكر ! »

ولم يجبه يورى وكان غضبه قد سرى عنه بل لقد استشعر شيئاً من السرور وإن كان قد آلمه أنه قد خرج من المعركة مهزوداً وإن لم يتأ أن يعترف بذلك

فقال فون دايتز « إن مثل هذه الحالة تكرر بنا إلى الحياة الساذجة »

. فسأله سانين « وهل ترى الأفضل أن تكون الحياة مبهمة معقدة »

فهز فون دايتز كتفيه واستغرقه التفكير

اجتاز ثلاثتهم الميدان ومن بعده السكك المتفجرة خارج البلدة وهي أضواء من الميدان وأكثر نوراً وكان الإفريز الخشبي واضحاً حيال الأرض السوداء . وفي السماء الصافية الزرقة تلتصع النجوم .

وقال فون دايتز « هانحن هؤلاء قد وصلنا » وفتح باباً قصيراً اختفى فيه ولم يكذ يغيب حتى سمعانباح كلب وصوتا يقول له « أرقد ياسلطان » وأبصر فناء واسعاً فارغاً وفي جانب منه كتلة سوداء هي طاحونة بخارية ذهبت مداخلها الضيقة في الهواء وحولها خصاص ولم تكن ثم أشجار الا في رقعة ضيقة من الأرض أمام البيت الثاني وقد أضاء أوراقها الخضراء نور منبتت من نافذة مفتوحة فقال سانين « ماأظلمه من مكان ! » فسأله يورى « أحسب الطاحون قديمة » فأجابه فون دايتز « قديمة جدا » ولما جاوز النافذة المضيئة أطل منها ثم قال بلهجة المرتاح « لقد حضر خلق كثير » فأطل سانين ويورى مثله ورأيا رؤوسا تتحرك في سحابة من الدخان . فقال إلى النافذة رجل عريض الألواح مجعد الشعر وسأل « من هنا ؟ » فقال يورى « أصدقاء ! » .

ولما صعدوا السلم اصطدوا برجل صافحهم مصافحة الاوداء وقال بنرة يهودية بارزة « لقد خشيت أن لاتحضروا » وقام فون دايتز بواجب التعريف قائلاً « سولوفتشك - سانين » فضحك سولوفتشك ضحكة المضطرب وقال « يسرنى أن ألقاك لقد سمعت عنك كثيراً وأنت تعرف . . . » وتطرح الى الورا دون أن يخفى كف سانين فاصطدم بيورى وداس على قدم فون دايتز فقال « عفواً ياجاكوف ادولفوفتش (دايتز ) » وأخذ يهز كفه بقوة . وهكذا طال الامر قبل أن يبلغوا الباب وكان في الردهة صفوف من المسامير دفها سولوفتشك لاجتماع الليلة وبها القبعات معلقة وبجانب النافذة زجاجات خضراء ملأى بالجمعة . وسحب الدخان معقودة حتى في حو الردهة .

وبدا سولوفتشك في الضوء يهوديا شابا أسود العينين مجعد الشعر صغير  
القسمات قبيح الاسنان باديها إذ كان لا يزاله الابتسام .

فاستقبلهم القوم بضجة عالية وأبصر يورى سينا جالسة على حافة النافذة  
فعاد كل شيء في عينه وضاحاً ساراً كأن الاجتماع لم يكن في حجرة مردولة  
غاصة بالدخان بل حفلة بين المروج الخضراء في الربيع .

فابتسمت له سينا وهي مرتبكة . وقال سولوفتشك وهو يحاول أن يرفع  
صوته الضعيف الحوار ويلداه تتحركان على نحو زرى : ضحكك :

« أيها السادة : أحسبنا جميعاً قد حضرنا - أرجوك العفو يا يورى ! إني دائماً  
اصطدم بك » وضحك وهو يدفع نفسه إلى الأمام محاولاً أن يتوخى الأدب  
فضغط يورى على ذراعه وقال له « لاشيء ! » .

وصاح طالب حسن الوجه « لسنا جميعاً هنا لعنة الله على الباقين » وكان  
صوته العالي يشعره أنه ألف أن يأمر سواه فوثب سولوفتشك إلى المنضدة  
ودق جرساً صغيراً وابتسم مرتاحاً إلى أنه فكر في استعمال الجرس .

فصاح به الطالب « آوه ! لا تفعل هذا ! إنك مولع بكل أنواع  
السخافات ! ليس بنا أدنى حاجة إلى هذا » .

فتتم سولوفتشك « لقد . . . ظننت . . . أن . . . » وارتبك ووضع الجرس  
في جيبه فقال الطالب :

ينبغي أن تكون المنضدة في وسط الحجرة » .

فأجاب سولوفتشك « نعم نعم سأجرها حالا » وأسرع فأمسك بطرف  
منها فصاحت دييوقا قائلة : « حاذر أن تكسر المصباح » .

وقال الطالب ودق ركبته : « إنها لا تنقل بهذه الطريقة » .

فقال سائين : « دعني أساعدك » .

— « اشكرك » .

فوضع سانين المنضدة في وسط الحجره ، وكانت كل عين تنظر إلى ظهره التوى وعضلات كتفيه التي كان قميصه الرقيق يشف عنها .

وقالت دييوبا : « والآن يا جوشنكو من حيث أنك مقترح هذا الاجتماع فإن عليك أن تلقي الخطاب الافتتاحي » وكان من الصعب أن تعرف من عينها أجادة هي أم ضاحكة بالطالب .  
فقال جوشنكو ورفع صوته :

« أيها السيدات . أيها السادة . إنكم جميعا تعرفون لماذا اجتمعنا الليلة هنا وعلى ذلك نستطيع أن نستغنى عن خطاب تمهيدى » .

فقال سانين : « الواقع أنى لا أعرف لماذا جئت ، ولكن ربما كان السبب أنهم قالوا لى إن هنا جمعة ! » وضحك .  
فنظر إليه الطالب باحتقار ومضى فى كلامه :

« إن جماعتنا مؤلفة لتمهيد النفس بواسطة المطالعة المتبادلة والمحاضرات والمناقشات المستقلة . . » .

فقاطعه دييوبا : « المطالعة المتبادلة ؟؟ لست بفاهمة ! » قالت ذلك بلهجة قد تعد ساخرة . فاحمر وجه الطالب وقال :

« أردت أن أقول مطالعة نشترك فيها جميعا ، فالغرض من جماعتنا هو تربية الرأى الفردى تربية تفضى الى أن يتألف فى هذه البلدة اتحاد يعطف على الحزب الديمقراطى الاشتراكى » .  
فقال إيفانوف : « آها !! » وحك رأسه .

« و لكننا سنتناول هذا الموضوع فيما بعد . أما فى مبتدأ الأمر فلن نتولى حل شىء من هذه المسائل الكبيرة .. » .  
فلقنته دييوبا : « أو الصغيرة » .

فتظاهر جوشنكو بعدم الالتفات إليها وقال : « وسنبداً بوضع برنامج يتضمن بياناً بالكتب التي ننوي أن نطالعها واقترح أن نقصر اجتماع الليلة على هذا العمل » .

فسألت دييوبا : « سولوفتشك ، هل سيحضر عمالك؟ » .

فوثب سولوفتشك كأنما كان لدغ وقال : « نعم سيحضرون ولقد أرسلت في طلبهم » .

فصاح الطالب : « لا ترفع عقيرتك هكذا ! » .

وقال شافروف وكان يصغى إلى خطاب جوشنكو باحترام :  
« ها هم أولاء قد حضروا » .

وصر الباب وسمع نباح الكلب وانطلق سولوفتشك من الغرفة وهو يقول :  
« لقد حضروا » وصاح بالكلب أن « أرقد ياسلطان » وسمعوا وقع أقدام ثقيلة وسعالاً وأصوات رجال ثم دخل طالب هندسة شبيه بجوشنكو لولا أنه أسمر وأقل وسامة ودخل معه الحجرة عاملان مستحييان مرتبكان أكفهم خشنة وعلى كل منهما جاكته قصيرة تحتها قميص أحمر قذر وكان أحدهما طويلاً عريضاً تقرأ في وجهه الخليق النحيل آيات الجوع سنين والكمد الباطن المخامر والبغض والسخط المكتومين . أما الثاني فله هيئة الرياضى وهو عريض الكتفين حسن الوجه مجعد الشعر وكان يتلفت حوله كالفلّاح إذ يرى مدينة لأول مرة . فتقدمهما سولوفتشك وقال بجد ووقار : « أيها السادة هؤلاء . . . » .

فقاطعه جوشنكو كعادته : « كفى كفى ! عموا مساء أيها الرفاق » .

فقال طالب الهندسة مقدماً رقيقه : « بتسوف وكودريانجى » .

فدخل العاملان بجد و صافحا الأيدي الممتدة للترحيب بهما وابتسم بتسوف وهو مرتبك أما زميله فكان يلوى عنقه الطريل كأنما كان الزيق « الياقة » يخنقه . ثم جلسا إلى النافذة قرب سينا .

فسأله جوشنكو: « لماذا لم يحضر نيقو لايف؟ » .  
 فأجاب بتسوف: « لم يستطع الحضور » .  
 وزاد كودر يافجي: « لقد شرب حتى عمى » .  
 فقال جوشنكو وهز رأسه: « آه ! فهمت » .

فأثارت هذه الحركة التي أراد بها جوشنكو أن يعرب عن عطفه حتى يورى ووجد في الطالب خصما شخصياً له .

وعاد الكلب إلى النباح فقالت ديوفا « لقد حضر آخرون » .  
 فقال جوشنكو وتكلف الاستخفاف: « لعالمهم الشرطة » .

فصاحت ديوفا: « إني على يقين من أنك لا تكترث إذا كان الطارقون هم الشرطة ! » .

فنظر سانين إلى عينيها الذكيتين وإلى جدائل شغرها الجميلة المرسلّة على كتفيها وقال لنفسه: « إنها فتاة ذكية الفؤاد » .

ووثب سولوفتشك كأنما يهيم بالخروج وأكثه استعداد صوابه فتظاهر بأنه يتناول سيجارة على المنضدة . ولم تفت جوشنكو هذه الحركة فقال ولم يجب ديوفا: « ما أكثر قلقك وحركاتك ياسولوفتشك » .

فاحمر وجه سولوفتشك وتجهم وخالجه الأسف على حماسته التي لا تستحق أن يكون جزاؤها هذا التعنيف . ثم دخل نوفيكوف وهو باش مبتسم :  
 « هذا أنا » . فقال سانين : « وكذلك نراك » وتصافحا . وهمس نوفيكوف في أذن سانين على سبيل الاعتذار : « إن ليذا تستقبل زوار اليوم » .

وعاد طالب الهندسة إلى موضوعه فسأل : « هل جئنا للتكلم ؟ ألا دعونا نبدأ ! » .

فقال نوفيكوف والسرور باد عليه : « إذا فأنتم لم تبدأوا : بعد ؟ » وصافح العاملين اللذين وثبا إلى اقدامهما وارتبكا لمقابلته هنا مقابلة الند والزميل وهو لا يعاملهما نى المستشفى إلا معاملة من هم دونه .

ثم أخذ جوشنكو يتكلم وبه بعض الغيظ وقال :

« أيتها السيدات ، ويا أيها السادة . إننا كلنا نريد بطبيعة الحال أن نوسع آفاقنا ونعمق نظرنا إلى الحياة ولما كنا نعتقد أن خير وسيلة لتهديب النفس أن نضع طريقة منتظمة للمطالعة وتبادل الآراء في ما نقرأ فقد رأينا أن ننشئ هذا النادي . والمسألة الآن هي : أى كتب نقرأ ؟ ربما استطاع بعضكم هنا أن يقترح شيئاً . »

فوضع شافروف نظارته على عينيه ونهض في بضع وفي إحدى يديه مذكرة صغيرة وقال بصوته الخاف المنفرد : « أرى أن نقسم برناجنا قسمين . ولا بد في تهديب عقولنا وصلها من أمرين دراسة تبدأ بأول أطوارها ودراسة الحياة كما هي في الواقع » .

فقالت دييوبا : « إن شافروف قد بدأ يتفصح » .

واستمر شافروف : « فأما الأول فيتم بقراءة الكتب العلمية والتاريخية القيمة والثاني طريقه كتب الأدب ومنها نواجه الحياة » .

ولم يسع دييوبا إلا أن تقول وفي عينيها لمعة خبيثة : « إذا مضيت في كلامك على هذا النحو فسيأخذنا النوم » .

فقال شافروف بلطف : « إنى أجهد أن يكون كلامي مفهوماً من الجميع » .

فقالت دييوبا وأومأت لإيماءة التسليم بقضاء الله : « حسن جداً قل ما بدلك » .

وضحكت سينا أيضاً من شافروف ودهت رأسها إلى الوراء فبدأ اللعين جيدها الاتلع الناصع وكانت ضحكها موسيقية منعمة .

فقال شافروف وعينه إلى دييوبا : « لقد وضعت برناجاً — ولكنى أحشى أن تملككم قراءته وأرى أن نبدأ بكتاب « أصل الأسرة » مع مؤلفات داروين . أما من حيث الأدب فلنبدأ بتولستوى » .



فصاح فون دايتز وهو راض عن نفسه وفي يده سيجارة يشعلها : « تولستوى بكل تأكيد ! » .

وانتظر شافرون حتى أشعل صاحبه السيجارة ثم قال : « ثم بتشيكوف وابسن وكنوت همسون » .

فصاحت سينا : « ولكننا قرأنا كل هؤلاء ! » .

فاهتز يورى لصوتها وقال : « بالطبع ! إن شافروف ينسب أننا لسنا في مدرسة في وما أعجب هذا الخلط ! تولستوى وكنوت همسون ! » .

فساق شافروف بعض الحجج تعزيراً لرأيه ولكنه بعثها فلم يفهمه أحد فقال يورى وسره أن سينا تنظر إليه : « كلا ! لا أوافقك » وراح يشرح رأيه في الموضوع وأكثر ما يعينية من الكلام أن يفوز بموافقة سينا فحمل على مشروع شافروف حملة شعواء وأنحى حتى على ما يوافق عليه منه وتلاه جوشنكو فأدلى برأيه وكان يعد نفسه أذكاهم وأفصحهم وأعظمهم تهديماً وكان يتوقع أن يفوز بالحل الأول فغاظه ما وفق إليه يورى من النجاح فعارضه في رأيه وتلت ذلك مناقشة طويلة لا آخر لها وشرع نوفيكوف وجوتشكو وإيفانوف يتكلمون جميعاً في وقت واحد واختلطت الأصوات اختلاطاً لم يعد معه مجال للفهم . ولزم سولوفتشك الصمت في هذه الحرب وجلس في زاوية يصغى وكان في أول الأمر عظيم الاهتمام ثم لم يلبث الشك والأسى أن غضنا وجهه ورسمها خطوطاً حول فمه وعينه .

وكان سانين يشرب ويدخن ولا يقول شيئاً وعلى وجهه دلائل الملل ولما علت الضجة ولم تعد محتملة وقف وأطفأ سيجارته وقال : « ألا تشعررون أن هذه حالة لاتطاق ؟ » .

فقات ديوبوفا : « إنها لكذلك حقاً ! » .

وسأله جوتشكو : « كيف ذلك ؟ » .

فلم يلتفت إليه سانين وقال ليورى : « هل تعتقد أنك تستطيع أن

أستخلص فكرة الحياة عن الحياة الكتب ؟ » .

فأجابه يورى بدهشة : « أعتقد ذلك بلاشك » .

فقال ساين : « إذا فأنت مخطيء ! إذا كان هذا صحيحاً فإن المرء يستطيع أن يصب الإنسانية كلها في قلب واحد بأن يجعل الناس يقرأون كتباً تنزع إلى منحني واحد . إن فهم الحياة لا يتأتى إلا من ملابسة الحياة نفسها في جملتها وليس الأدب أو مطاهر العقل الإنساني إلا ذرة ضئيلة فيها . وليس في وسع أى نظرية عن الحياة أن تعينك عن تكوين فكرة عنها . لأن هذا رهن بمزاج كل فرد وخليق أن يختلف ذلك مادام الإنسان حياً . وعلى هذا فن المحال عليك أن تكون فكرة محدودة مضبوطة عن الحياة كما تريد أن ... » .

فصاح يورى مغضباً : « ماذا تعنى بقولك ( من المحال ) ؟ » .

فقال ساين : « محال ولاشك ! لو أن تكوين فكرة عن الحياة نتيجة نظرية محدودة تامة لوقف تقدم الفكر الإنساني . بل لا تقطع . وهذا كلام لا يقبل . إن كل لحظة تنطق بكلمة جديدة وواجبنا أن نصغى إليها وأن نفهمها دون أن نضع لأنفسنا قيوداً وحدوداً سابقة . وعلى أنه ما خير الجدل في هذا « رأيك ماتشاء . إنما أسألك يا من قرأت مئات من الكتب لماذا عجزت إلى الآن عن تكوين فكرة محددة عن الحياة » .

فسأله يورى وبدا الغضب في عينيه : « لماذا تفرض أنى لم أفعل ذلك ؟ ربما كانت فكرتى عن الحياة كلها خطأ ولكن لى فكرة » .

فقال ساين « حسن جداً . إذا كانت لك فكرة فالماذا تبغى غيرها ؟ » .

وقالت سينا لنفسها : « ما أذكاه ! » وأعجبت به أيما إعجاب ، وجعلت تلحظه هو ويورى وأحست شيئاً من الخجل ولكنها كانت على هذا فرحة مسرورة فكأتما كان الاثنان يتجادلان في أيهما يفوز بها .

ومضى سانين في كلامه فقال : « فأنت لاحتاجة بك إلى ما تطلبه عبثاً . وأرى كل امرئ هنا يحاول أن يكره غيره على الاقتناع برأيه ويخشى أن يقنعه الآخرون بأرائهم . الحقيقة بصراحة أن هذا ممل جداً » .

فقال جوتشنيكو : « لحظة واحدة ! اسمح لي ! » .

فأجابه سانين بضجر : « كفى كفى ! لا بد أن لك فكرة رائعة عن الحياة وأن تكون قد قرأت أكواما من الكتب ! هذا واضح لا خفاء به ! ومع ذلك فإنك تغضب لأن غيرك لا يوافقك على رأى لك ! وشر من ذلك أنك تسيء معاملة سولوفتشك وهو لم يسيء إليك في حياتك ! » .

وهل جوتشنيكو ولزم الصمت . وقال سانين : « يا يورى لا يغضبك أنى صارحتك الآن . إنه لا يخفى عنى أن فى صدرك عراكا ! » .

فصاح يورى : « عراك ؟ » واحمر وجهه ولم يدر أيغضب أم يحتمل هذا القول ووقع فى نفسه صوت سانين الساكن وقعاً عميقاً كما حدث وهما آتيان إلى هذا الاجتماع .

فأجابه سانين : « إنك تعلم أن الأمر كذلك . ولكنه لا ينفع المرء أن يعنى بهذا الهذر الصبياني . الحياة أقصر من ذلك » .

فصاح به جوتشنيكو مغضباً : « اسمع . انك تدعى لنفسك أكثر مما يجب ! » .

فقال سانين : « ليس أكثر مما تدعى أنت » .

أجاب « كيف ذلك ؟ »

فقال سانين « فكر فى الأمر وحدك . إن ما تقوله وتفعله أخشن وأسوأ أدبا من كل ما أقول ! » .

أجاب : « لست بفاهم » .

فقال سانين : « ليس هذا بدنى » .

أجاب : « ماذا » .

فلم يجبه سانين وتناول قبعته وقال : « سأخرج فقد ضجرت » .

فقال إيفانوف : « هذا حق . وقد فرغت الجعة » .

فقال ديبوفا : « لن نتقدم خطوة إذا سرنا على هذا النحو ، هذا واضح » .

وقالت سينا : « رافقنى فى الطريق يا يورى » ، ثم التفتت إلى سانين وقالت : « إلى الملتقى » .

والتقت عيناها وعيناه فسمرت فى جسمها هزة سرور وقالت ديبوفا فى الطريق : « وأسفاه ! لقد تداعى نادينا قبل أن يقوم » .

فقال صوت حزين : « ولكن لمبأذا ؟ » وكان صاحبه سولوفتشك يتطرح ويصطدم بكل واحد وكانوا قد نسوا وجوده فراعهم كآبته . فقال سانين وكأنه يفكر : « اسمع يا سولوفتشك سأزورك يوماً لتتحدث » . فانحنى سولوفتشك وقال : « بكل تأكيد . أرجوك أن تتفضل » .

ولما خرجوا من الحجرة المضاءة كان الظلام على أشده فكانوا يتعارفون بالأصوات دون الشخصوس وسار العاملان على مسافة من الباقين ولما ابتعدا قال أحدهما : « هده حالهم أبدا . يجتمعون ويتحدثون عن عجائب ومعجزات ينوون إتيانها ثم يأبى كل منهم إلا أن يكون الأمر على هواه ومشيتته . إلا أنه لم يعجبني غير هذا الرجل الضخم ( سانين ) » . فقال صاحبه « ما أكثر ما نفهم حين يتجادل أمثالهم ! » ولوى عنقه كأنما يخنقه شيء فصففر رفيقه ساخرأ بدل أن يجيبه .

- ٢٦ -

وقف سولوفتشك عند الباب برهة ينظر إلى السماء الغائمة ويفرك أصابعه النجيلية . وكانت الريح ترمم حول الأبنية الخسبية وتحنى رعوس الأشجار المتقاربة كأنها جند من الأشباح . وكانت السحب فى سباق دائم كأنما تدفعها قوة قاهرة إلى الأمام . أو كأنما تنتظرها جيوش يخطئها الحصر رفعت رايتها السوداء وخرجت فى كل قوتها الرائعة إلى ميدان تتصارع فيه العناصر . وكانت الريح كأنما تحمل من حين إلى حين ضجة المعركة النائية .

وقف سولوفتشك ينظر إلى السماء وقد ملأت روعة المنظر نفسه .  
 فليح به الإحساس بضآلته وأنه لا شيء لإزاء هذه الهيولى الهائلة . فتهد  
 وقال : « يا آلهى ! يا آلهى ! » . وكان إذا أضواء الليل يعود شخصاً آخر  
 غير الذى يعرفه الناس . وكذلك زائله القلق والارتباك الآن . واختفت  
 أسنانه الدميمة وراء شفثيه الحساستين وارتسمت فى عينييه السوداوين نظرة  
 الجدد والشجن .

ودخل البيت فى بطاء وأطفأ مصباحا لا ضرورة إليه ورد المنضدة  
 والكراسى إلى مواضعها وكانت الغرفة لا تزال ملاءى بدخان الطباق والأرض  
 مبعثرة عليها أعقاب السجائر والكبريت . فتناول مكنسة وشرع ينظف  
 الغرف وكان يجب أن يرى مأواه نظيفا مرتبا . تم جاء بدلوه ووضع فى  
 مائه كسراً من الحبز وحمل هذا فى يمينه ومد يسراه ليحفظ توازنه واجتاز  
 الفناء بخطى قصيرة وكان قد وضع مصباحا صغيرا قرب النافذة لتضيء  
 له طريقه ولكن الظلام مع ذلك كان طاغيا فلما وصل إلى مبيت الكلب  
 تنفس الصعداء وتقدم كلبه « سلطان » ليقابله .

« آه . ساطان ! كوش كوتس ! » أخرج هذه الأصوات ليتشجع  
 ودفع الكلب أنفه البارد البليل فى كف سيده فوضع له الدلو وقال له : « هنا  
 أنت » فشم الكلب الدلو ثم أنطلق يأكل بنهم وسيده واقف بجانبه يتأمل  
 الظلام الخيط ويقول لنفسه :

« ماذا أصنع ؟ كيف أستطيع أن أحمل الناس على تغيير آرائهم ؟  
 لقد كنت أنا نفسى أتوقع أن يعلمنى الناس كيف أعيش وكيف أفكر .  
 ولقد ضمن على الله بصوت النبى فكيف أساعد الخلق ؟ » .  
 وزام الكلب راضياً . فقال سيده : « كل واشبع . لقد كنت أود أن  
 أطلقك لتعدو قليلا ولكن المفتاح ليس معى وأنا متعب مجهود . . . إيه  
 مأذكى من كانوا هنا الليلة وأعلمهم وأمهرهم ! لأنهم يعرفون شيئاً كثيراً . . .  
 ( ١٤٢ - ابن الطيعة )

نصارى طبيون على الأرجح ! وهذا أنا ... من يدري ؟ لعل هذا خطأى وحدى . لقد كنت أحب أن أقول لهم كلمة . ولكنى حرت كيف أقولها . وحملت الريح من وراء المدينة صغيرا طويلا هاغيا فرفع الكلاب رأسه وأصغى وسقطت قطرات كبيرة من كمامته فى الدلو . فقال صاحبه : « كل واشبع إن هذا صوت المطر » .

فتهد الكلب وقال سيده : « ترى هل يعيش الناس أبدا على هذا النحو؟ ربما أعياهم ذلك » وهز كتفيه يائساً . وبدأت له فى الظلام صورة حشد هائل من الخلق لا آخر له كالأبد يغيب ويختفى فى الظلام - سلسلة قرون لا مبدأ لها ولا منتهى - سلسلة متصلة الحلقات من آلام وأوجاع لا دواء لها ولا شفاء منها وفوقها حيث عرش الله سكون أبدي !

واصطدم الكاب بالدلو فقلبه وأخذ يبصص بذنبه وسمع صوت سلسلته فسح سولوفتشك ظهره وربته وأحس هزة السرور تسرى فى كيان الكلب ثم انقلب إلى البيت وكان يسمع منه صوت سلسلته وبدأ الفناء أقل ظلمة والطاحون أشد جهامة بمدخنتها الطويلة والتمع فى السماء خط عريض من النور أضاء المدينة هنيهة فبدأت للعين أزهارها الصغيرة الضعيفة مطرقة تحت السماء الثائرة وأعلامها السوداء المننرة التى نشرها الليل .

وغلب الحزن سولوفتشك وراخى أعصابه الشعور بالوحدة وبخسارة لا عوض عنها فدخل غرفته وجلس إلى المنضدة وبكى .

- ٢٧ -

كتب سارودين رسالة إلى ليدا وقعت فى يد أمها ماريا إيفانوفنا، وفيها يطلب إليها أن تأذن له فى الحضور ليراها ، ويشير إلى أن هناك أموراً يمكن أن تسوى على نحو مرضى ، فرأت ماريا إيفانوفنا أن هذه الصفحات تلقى ظلاً مخجلاً على ابنتها الطاهرة ، فارتبكت وذكرت معاشقتها فى صدر أيامها وما كان فيها من خدع ، وزواجها وما تخلله من آلام ، وكانت حياتها سلسلة

طويلة من الأوجاع صاغتها قوانين الأخلاق الحرجة ومدتها إلى حدود الشيخوخة .

وهاجت لما خطر لها أن ابنتها كسرت الحائط الذى يدور بهذه الحياة القذرة وانغمست فى الدوامة التى تختلط فيها اللذات والاحزان والموت ، وقالت لنفسها : « يا لها من فتاة خسيصة خبيثة ! » وهوى ذراعها إلى جانبها . ثم خطر لها فجأة أن الأمور ربما كانت لم تبلغ هذا المدى فعزاها ذلك وتلت الرسالة ثم تلتها غير أنها لم تستخلص شيئاً من أسلوبها الجاف المتكلف ولما أعياها الأمر بكت بكاء مرا ثم سوت قبعها وسألت الخادمة : « دونيكا ! هل فلاديمير سانين هنا ؟ » فصاحت دونيكا : « ماذا ؟ » أجابت :

« أيتها الحمقاء إني أسألك هل فلاديمير سانين هنا ؟ » .

قالت : « لقد ذهب إلى المكتبة ! وهو يكتب رسالة ! » .

وانبسطت أسارير الخادمة كأنما كانت كتابة الرسالة مبعث سرور غير عادى فحملت مارييا فى الفتاة والتمتع فى عينيها اللذابتين نور الشر وقالت : « أيتها الورهاء ! لئن أجزرت أن تحملى رسائل مرة أخرى لألقننك درساً لن تنسينه عمرك ! » .

وكان سانين جالساً إلى مكتب ولم تألف أمه أن تراه يكتب فارتاحت إلى هذا المنظر على الرغم من حزنها وسألته : « ماذا تكتب ؟ » . فقال سانين ورفع رأسه إليها باسمها : « رسالة » .

قالت : « لمن الرسالة ؟ » .

أجاب : « لصحفى أعرفه . فإني أفكر فى الالتحاق بجريدته » .

قالت : « وهل تكتب مقالات للصحف ؟ » .

فابتسم سانين وقال : « إني أصنع كل شيء » .

فقالت أمه : « ولكن لماذا تريد أن تذهب إلى هناك ؟ » .

فقال سانين بصراحة : « لقد مللت العيش معك يا أماه » .

فتأملت أمه لذلك وقالت : « أشكرك » فرامقها سانين ونازعته نفسه أن يقول لها لا ينبغي لك أن يبلغ من حمتك أن تتصورى أن رجلا ليس له عمل يمكن أن يرتاح إلى البقاء أبداً في مكان واحد ولكنه لم يكن يحب أن يقول شيئاً من هذا فسكت .

وأخرجت أمه مندليها وفركته بين أصابعها ولولا رساله سارودين وحزنها وقلقها من جرائها لساعتها خشونة ابنها ولكنها لم تزد على أن قالت : « نعم ! واحد يتسلل من البيت كالذئب والأخرى » .

وأتمت الحملة بإماعة التسليم بالقضاء .

فرفع سانين رأسه إليها بسرعة وألقى القلم وسألها : « ماذا تعرفين عن هذا » . فخرجت ماريًا إيفانوفنا من أنها قرأت رسالة ليذا واحمر وجهها وأجابته بصوت المتردد يشوبه شيء من الغيظ :

« الحمد لله . لست بالعمياء ! وإني لأستطيع أن أرى » .

فقال سانين بعد أن فكر هنيهة : « ترين ! إنك لا تسطيعين أن ترى شيئاً . ولكي أثبت لك ذلك دعيني أهنتك بخطبة ابنتك ! وكانت ستخبرك بهذا بنفسها » .

فصاحت ماريًا إيفانوفنا واعتدلت قامتها : « ماذا ؟ ليذا ستتزوج ؟ تتزوج من ؟ » أجاب : « نوفيكوف بالبداهة » .

قالت : « نعم ولكن ما القول في سارودين ؟ » .

فقال سانين بغضب : « آوه ! إنه يستطيع أن يذهب إلى الشيطان وما شأنك بهذا ؟ لماذا تتدخلين في شئون غيرك ؟ » .

فقالت أمه وبها بعض الدهشة إلا أنها أحست هزة الفرح :

« نعم ولكي لم أفهم تماماً يا فولودجا . أن ليذا ستتزوج ؟ » .

فهب سانين كتفيه وقال : « ما هذا الذي لا تفهمينه ؟ لقد كانت تحب رجلا وهي الآن تحب غيره ، وغداً تحب ثالثاً . حسن . بارك الله في معاشقها ! » .



فصاحت ماريًا إيفانوفنا مغضبة: « ما هذا الذى تقوله ؟ » .

فقال سانين إلى المكتتب وطوى ذراعيه وسألها بغضب :

« هل لم تحى فى حياتك إلا رجلا واحدا ؟ » .

فنهضت ماريًا إيفانوفنا وارتسمت على وجهها المغضن أمارات الشموخ

والتعالى وقالت حدة :

« لا ينبغى للمرء أن يخاطب أمه بهذا اللسان » .

فسألها : « لا ينبغى لمن ؟ » فقالت « ماذا تعنى بمن ؟ » .

فقال وصعد نظره فيها وصوبه : « من الذى لا ينبغى أن يتكلم ولحظ لأول

مرة فراغ نظره عينها وسخافة هيئة القبعة على رأسها ، فقالت بصوت مخنوق :

« لا ينبغى لأحد أن يوجه لى مثل هذا الكلام » .

فقال سانين واستعاد سكينته وأمسك القلم : « مهما يكن من ذلك فقد فعلته

وانقضى الأمر . لقد فزت بنصيبك من الحياة ولا حق لك فى منع ليذا من

طلب نصيبها » .

فلم تجبه بتىء وراحت تحملجه بنظرات الدهشة وأسرعت فنفت ذكريات

شبابها وكل ما كان فى ليالى حبه الفرحة وعلقت بذهنها هذا السؤال وحده :

« كيف يجرؤ أن يخاطبني بهذا اللسان ؟ » وقبل أن تهتدى إلى جواب ما التفت

إليها سانين وتناول يدها فى رفق وقال : « لا يؤلمك هذا أو يزعجك وإنما

يجب عليك أن تمنى سارودين من دخول البيت لأنه يستطيع أن يلعب معنا

دوراً قديراً » .

فهدأت ماريًا إيفانوفنا وقالت : « بارك الله فيك يا بنى . وإنى لمسرورة

جداً فقد كنت دائماً أحب ساكا نوفيكوف ، نعم لانستطيع أن نستقبل سارودين .

هذا لا يمكن من أجل ساكا » .

فقال سانين وفى عينيه نظرة فكهة .

كلا ! هو كما تقولين ! من أجل ساكا » .

وسألته أمه « وأين ليذا ؟ » أجاب سانين : « فى غرفتها » .

فقال : « وساكا ؟ » ونظقت مختصر اسمه هذا بعطف فقال سانين : « لا

أدرى . لقد ذهب إلى ... » .

وفي هذه اللحظة دخلت دونيكا الخادمة وقالت :

« فيكتور سارودين وسيد آخر معه » .

فقال سانين : « أطرديهما من البيت » .

فابتست دونيكا ابتساماً صديانية وقالت :

« سيدي كيف أستطيع ذلك ؟ » .

فقال سانين : « تستطيعين بالطبع ! ما شأنهما هنا ؟ » .

فأخفت دونيكا وجهها وخرجت . ومدت مارييا إيفانوفنا قامتها حتى صارت في رأى العين أصعب وأصغر لولا أن في عينيها نظرة شر . وكانت قد غيرت وجهة نظرها إلى الموضوع بسرعة مذهشة وسهولة عجيبة فبعد أن كانت تحس اسارودين رقة في قلبها لما كانت ترجو أن يتزوج من ابنتها عادت فأحست له تسائناً لما أدركت أن غيره سيتزوج منها وأن سارودين لم يكن إلا طالب حب .

واستدارت لتخرج ولحظ سانين تحجر وجهها وصلابة نظرتها فقال لنفسه : « ها هنا دجاجة عتيقة لك يا سارودين ! » وطوى الرسالة التي كان يكتب وتبعها ليرى على أى حال ينتهى الأمر .

وبالغ سارودين وفلوتشين في تحيتها ولكن سارودين فقد سلاسة شمائله وقلقى فلوتشين قليلاً إذ كان قد جاء لغرض واحد هو أن يرى ايدا فاضطر أن يكتم غايته .

وبدا الاضطراب على سارودين على رغم تكلفه وأحس أنه لم يكن يجمل به أن يأتي وأشتق من لقاء ايدا ولكنه لم يكن يجب أن يطلع فلوتشين على هذا السر إذ كان يريد أن يظهر أمامه في مظهر الفاتك اللهيج فقال وتصنع الابتسام :

«عزيزتى مارييا إيفانوفنا . أسمحى لى أن أقدم إليك صديقى بول فلوتشين» .

فقال مارييا بأدب جاف : « مسرورة » ولمح سارودين جفوة النظرة التي في عينيها فاضطرب وأدرك أنه لم يكن ينبغى له أن يحضر بعد أن كان قد غفل

عن هذا في حضرة صديقه . وقد تدخل ليذا في أى لحظة - ليذا أم طفله - فإذا يقول لها ! كيف يواجهها ؟ وربما كانت أمها على علم بما وقع بينهما ! فاضطرب في كرسيه وأشعل سيجارة وهز كتفيه وحرك رجليه وتلفت يمينا وشمالا .

فقالت مارييا لصاحبه بصوت بارد متكلف : « هل تطول إقامتك هنا؟ » ، فقال . « كلا ! » وجعل ينظر إلى هذه السيدة الريفية نظرة الارتياح والرضى عن النمس وزج سيجارته في زاوية فيه فكان الدخان يصعد إلى وجهها مباشرة فقالت : « لاشك أن الحياة هنا مملته بعد بطرسبرج » .  
قال : « إنها على العكس لذيذة في هذه البلدة الصغيرة » .  
قالت : « يحسن أن تزور الجهات المجاورة فإنها متنزهات بهيجة وفيها أماكن للسياحة والتجديف » .

فقال فلوتشين وبدأ يسأم : « بالطبع يا سيدتى بالطبع » .  
وتعثر الحديث وصاروا جميعاً كأنما على وجوههم صور مستعارة باسمه تخفى تحتها عيوناً متعادية . ونظر فلوتشين عن عرض إلى سارودين نظرة لا سبيل إلى الخطأ في فهم مدلولها ولم تفت سائين دلالتها وكان يرقب كل شيء من الركن الذى وقف فيه .

ولكن خوف سارودين أن يستصغر أمره صاحبه ولا يرى فيه مازعمه من اللباقة والجرأة والفتك رد إليه شيئاً من عازب ثقته بنفسه وجرأته فسأل مارييا : « وأن ليذا بتروفنا » .

فنظرت إليه مارييا غاضبة مذهولة وقالت له عيناها : « ما أنت وهذا إذا كنت لى تتزوجها » تم فالت بجفاء :  
« لا أدرى ! لعلها فى غرفتها » .

فرمى فلونشين نظرة أخرى إلى زميله معناها : « ألا تستطيع أن تستنزل ليذا بسرعة ؟ إن هذه العجوز مملته » .

ففتح سارودين فمه ولوى شاربيه . وقال فلوتشين باسمها وفرك كفيه ومال إلى ماريا إيفانوفنا .

« لقد سمعت ثناء طيباً على ابنتك فطمعت أن أتشرف بمعرفتها » .

فعجبت ماريا إيفانوفنا لهذا الوقح ماذا سمع عن ابنتها وقام في نفسها أن ابنتها زلت وهوت . فاضطربت ولانت نظرتها . فقال سانين لنفسه : « إذا لم يطرد الآن فسيسببان متاعب لليدا ونوفيكوف » ثم قال فجأة لسارودين وهو ينظر إلى الأرض مفكراً :  
« سمعت أنك مسافر » .

فعجب سارودين كيف لم يخطر له هو هذا العذر واستحسن الفكرة وقال لنفسه : « لقد وجدت تكأة ! إجازة شهرين » قبل أن يجيب بسرعة :  
« نعم لقد كنت أفكر في السفر لأن الإنسان محتاج إلى الانتقال وطول مقام المرء في مكان واحد خليق أن يكسوه طبقة من الصدا » .

فضحك سانين ضحكاً عالياً وسره هذا الحديث الذي ليس فيه كلمة واحدة صادقة معبرة عن حقيقة ما في النفوس—وهذا الخداع الذي لم يندع أحداً .  
ووجد ارتياحاً وحرية فنهض وقال :  
« إذاً فكلما كان ذلك أسرع كان خيراً » .

فتمزق الحجاب في لحظة واحدة وتغير الثلاثة الآخرون واصفرت ماريا إيفانوفنا ونطقت عين فلوتشين بالخوف الحيواني ونهض سارودين في بطاء وتردد وسأل بصوت مبجوح :  
« ماذا تعنى ؟ » .

وتطرح فلوتشين وجعل يتلفت باحثاً عن فبعته .

ولم يجب سانين على سؤال سارودين بل ناول فلوتشين قبعته بحيث وكان هذا مفتوح الفم فخرج منه صوت مخنوق وصاح سارودين مغضباً :  
« ماذا تعنى بهذا ؟ » وقال لنفسه : « فضيحة ! » .

فأجاب سانين: « أعني أن وجودك هنا لا ضرورة له على الإطلاق ،  
وأنه يسرنا أعظم السرور أن لا نراك » .

فتقدم سارودين خطوة وهو مضطرب وأسنانه تلمع مهددة كأسنان  
الوحش وتمتم وأنماسه مسرعة : « آه ! أهذا كذلك ؟ » .

فقال سانين باحتقار: « اخرج » ولكن لهجته بلغ در . ولها أن حملق  
سارودين وتراجع .

وقال فلوتشين بأخفت صوت . « لا يدري إلا الشيطان معنى هذا »  
ورفع كتفيه ومضى إلى الباب .

ولكن ليذا كانت واقفة في حرم الباب وفي ثياب غير المألوفة وكان  
شعرها مضمفراً والضمفرة مدلاة على ظهرها وثوبها واسع مرسل فزادت  
بساطته في جمال شكلها .

وابتسمت فظهر الشبه بينها وبين أخيها وقالت بصوتها الرخيم الغض :  
« هذا أنا . لماذا تسرعان ؟ فيكتور سارودين ضع قبعتك » . فصمت  
سانين ونظر إلى أخته مذهولاً وقال لنفسه : « ماذا ترى تعني ؟ » .

وما كادت تظهر حتى وحدوا لها تأثيراً خفياً رقيقاً لا سبيل إلى  
مقاومته فكأنها وهى واقفة هناك مروضة أمام قفص عاص بالوحوش  
الضارية فهلأ الرجال وأذعنوا .

وتمتم سارودين : « هل تعلمين أننا .. » .

فلما سمعت صوته ارتسم على وجهها الألم فنظرت إليه وخامرها الأسى  
والرقة والأمل ولكن هذه الإحساسات لم تلبث أن عفت عليها الرغبة الوحشية  
في أن ترى سارودين مبلغ خسارته وأنها مازالت جميلة وضاعة على الرغم من  
كل أساها وعارها اللذين كلفها إياهما .

فأجابته بصوت الأمر : « لا أريد أن أعرف شيئاً وأعصمت عينها  
فأحدث وجودها تأثيراً عريباً في نفس فلوتشين فبرز لسانه الصغير الحاد من  
بين شفثيه الجافتين وصغرت عيناه واهتز كيانه . وقالت ليذا لسارودين .  
« لقد نسيت أن تعرف بعضاً ببعض » .

فتمتم : « فلوتشين . . بافل لفوفتش . وقال لنفسه : « وهذه الجميلة كانت عشيقتي » .

والتذ هذا الخاطر وأراد أن يتظاهر أمام فلوتشين بغير الواقع وإن كان قد اضمه الشعور <sup>إيها</sup> بخسارته التي لا تعوض .

فقالت ليد : « إنها في فتور : « إن أناساً يريدون أن يقابلوك » .

فأجابت ماريا إيفانوفنا : « لا أستطيع الذهاب إليهم الآن » .  
فألحت ليدا : « ولكنهم ينتظرون » .

فنهضت ماريا إيفانوفنا بسرعة وراقب سانين أخته وقالت هذه : « ألا تذهبون إلى الحديقة ؟ إن الجو هنا حار لا يطاق » ومضت الحديقة دون أن تتلفت وراءها .

وكأنما سحرتهم فتبعوها وكأنما كانوا مقبدين إليها بخصل شعرها فلو شعاع لجرتهم إلى حيث راقها وكان أسبقهم فلوتشين الذي سباه حسنها ونسى كل ما عداه .

وجلست ليدا على كرسي هزاز تحت شجرة الزيزفون وهدت فدميها الصغيرتين الجميلتين في جوربها الشفافين الأسودين وحاداها القصيرين وكأنما كانت لها طبيعتان إحداهما كلها أدب وخجل ، والثانية كلها إحساس بنفسها وحسن دلالتها . وكانت الأولى تغريها باستفزاز الرجال والحياة ونفسها .

ثم هالت وهي مطرقة : « والآن يا فلوتشين أى أثر كان لبلدتنا الصغيرة الصغيرة النائمة في نفسك ؟ » .

فأجابها فلوتشين وهو يفرك كعبيه : « تأتير الزهرة المونقة تصافح عين الموغل في قلب الغابة المظلمة » .

ثم بدأ حديث فارغ متكلف . كل ما يجري به اللسان منه كاذب راف وكل ما يطرونه هو الصادق . وجلس سانين في صمت يصغي إلى أحاديث النفوس الصامتة المخلصة التي كانت تنطق بها الوجوه والأيدي والأقدام

واضطراب نبرات الصوت . وكانت ليذا شقية وفلوتشين يشناق جملها وسارودين يمتقها ويمقت سانين وفلوتشين والدنيا جميعها وكان يحب أن يفارقهم ولكنه لم يستطع أن يتحرك ونازعته نفسه أن يأتي أمراً فاضحاً غير أنه لم يسمعه إلا أن يدخن سيجارة بعد أخرى وهو أشد ما يكون رغبة أن يعلن إلى الحضور أن ليذا عشيقته .

وعادت ليذا فسألت فلوتشين « وكيف تحب المقام هنا ؟ ألا تأسف لتركك بطرسبرج وراءك » ونفسها تتقطع حسرات وهي تعجب لأمرها لماذا لا تمض وتدعهم .

فقال فلوتشين بالفرنسية ولوح بيده وحلق في ليذا : « على العكس ! » . فقالت ليذا بدلال « اسمع ! اسمع ! دعنا من الخطب الجميلة » وكان جسمها يقول لسارودين « إنك تظنني شقية أليس كذلك ؟ وأنني سحقت ؟ ولكنك يا صاحبي مخطيء ! أنظر إلى ! » .

فقال سارودين : « يا ليذا بروفنا ! كيف تسمين هذا خطبة جميلة » . فسألته ليذا بجھوة : « عفواً ياسيدى ماذا تقول ؟ » كأنما لم تكن سمعته ثم عادت إلى كلام فلوتشين بلهجة أخرى : « حدثنا عن الحياة في بطرسبرج . إننا هنا نعيش كالنبات » .

ورأى سارودين أن فلوتشين يبتسم لنفسه ابتسامة من لا يصدق أن سارودين كانت له بها علاقة متينة فعض شفتيه وتوجع .

فتعلقت عين فلوتشين بجمال ليذا وانطلق يهضب وكأنه القرد الصغير يهذى بما لا يفهم وقال : « حياه بطرسبرج الشهيرة ؟ إنى أؤكد لك بشرفى أن حياتنا مملّة لا لون لها . ولقد كانت هذه الحياة إلى ما قبل اليوم كذلك في بطرسبرج وفي غيرها » .

فقالت ليذا وأطبقت جفونها : « أ كذلك تقول ؟ » .

وأتم فلوتشين كلامه فقال : « إن الذى يجعل للحياة قيمة ... هو المرأة الجميلة . وما ظنك بالنساء فى المدن الكبرى ؟ آه لو ترينهن ! وصدقيني لاني مقتنع بأنه لن يتقد اندنيا ويخلصها - إذا كان شىء من ذلك مقدوراً لها سوى الجمال » ولم يكن يريد أن يقول هذا ولكنه نطق به فجأة لظنه أنه أليق ما يكون وكانت لحظة وجهه ناطقة بالغباء والشره وهو يكر فى حديثه إلى موضوع المرأة الذى لم يكن أشهى منه عنده . وكان سارودين يحمر تارة ويصفر أخرى من الغيرة فلم يطق الجلوس فى مكان واحد فهض وجعل يتمشى وقال فلوتشين :

« إن نساءنا كلهن سواء كل واحدة منهن صورة طبق الأصل من الأخرى . فمن طلب امرأة يستحق جمالها العبادة فليذهب إلى الأقاليم حيث الأرض بكر تخرج آنق الأزهار » .

فحك سائين ففاه ووضع إحدى رجليه فوق الأخرى .

فقالت ليذا : « وما خير ان تنفتح هذه الأزهار هنا إذا لم يكن ثم من هو أهل لقطنهما ؟ » .

فاهتم سائين فجأة وقال لنفسه : « آها ! أهذا ما تقصد إليه » والتذ هذا التلاعب بالألفاظ .

فسألها فلوتشين : « أهذا ممكن ؟ » .

فأجابته ليذا بحرارة : « نعم هو كذلك ! وإني لأعنى ما أقول من الذى يقطف أزهارنا السيئة الحظ ؟ ما هؤلاء الرجال الذين نحسبهم أبطالا ؟ » .

فسألها سارودين : « ألا تظنين أنك قاسية علينا فى هذا الحكم ؟ » .

فقال فلوتشين : « كلا ! إن أيدا بتروفا مصيبة ! » ونظر إلى سارودين

فانقطع تيسار فصاحته . فضحكت ليذا ضحكا عاليا وأتارت نظرها إلى سارودين وقد امتزجت فى نفسها عواطف الحجل والأسى والانتقام وعاد فلوتشين إلى الكلام وجعلت ليذا تقاطعه بالضحك لتخفى دموعها .



فقال سارودين : « أظن أن الوقت قد أزف فلنقم » وأحس أن الموقف لا يمتثل ولم يكن يدرى لماذا . ولكن كل شيء - ضحك ليذا ونظراتها الساخرة واضطراب يديها - كان له وقع اللسك على الأذن وأضناه بغضه المتزايد لها وغيرته من فلوتشين وشعوره بما فقد . فسألته ليذا : « بهذه السرعة ؟ » .

فأقر ثغر فلوتشين ولحس سنفتيه بطرف لسانه وقال بلهجة المهكم وقد زهاه انتصاره : « لاحيلة لنا . إن فيكتور سارودين على ما يظهر متغير » .

وودعوا ولما انحنى سارودين على يد ليذا همس : « إن هذا فراق بيني وبينك » ولم يشعر لليذا بمتل هذا المقت .

ونازعت ليذا نفسها هنيهة أن تودع تلك الساعات الخالية ساعات الحب التي نعما بها ولكنها خنقت هذه الرغبة وقالت بصوت خشن عال : « الوداع سفر سعيد ! لا تنسنا يا بافل لفوفتش ! » .

ولما انصرفا كانت ليذا وأخوها يسمعان فلوتشين وهو يقول :

« ما أفتنها : أنها تسكرني مثل الشمبانيا ! » .

وجالست ليذا على الكرسي الهزاز وتغيرت هيئتها ومالت إلى الأمام وأطرقت وجعلت ترحف ودموعها تنساقط .

فقال سانين وتناول بدها : « تعالى ! تعالى ما الخبر ؟ » .

فقال ليذا : « آه ؟ دعني ! ما أفضع الحياة » وتدل رأسيها وغطت وجهها براحتها وكانت ضميرتها الناعمة المصقولة قد زلت عن كتفها إلى صدرها .

فقال سانين : « ما خير أن تبكى لمثل هذه التوافه ؟ » .

فتمتمت ليذا : « أو ليس في الدنيا إداً من هم خير من هؤلاء الرجال ؟ » .

فابتسم سانين وقال : « كلا ! على التحقيق . إن الإنسان سافل بطبيعته .

فلا تتوقعي منه شيئاً من الخير وإذا وطنت نفسك على هذا لم يحزنك ما يصيبك من شره .

فرفعت ليذا إليه عينها الجميلتين المغربورقتين وسألته :  
 « أولاً تنتظر أنت كذلك شيئاً من الخير من أبناء جنسك؟ » .  
 فأجابها سانين : « كلا ! بالبداية . إني أعيش في هذه الدنيا وحدي » .

— ٢٨ —

في اليوم التالي ذهبت دونيكا تعدو إلى سانين ورأسها عار وكذلك قدمها وكان في الحديقة وصاحت به وفي عينها آيات الفزع :  
 « فلاديمير بتروفتش ! قد جاء الضباط وهم يطلبون أن يحادثوك ! »  
 ورددت هذه الكلمات كأنما كانت درسا حفظته عن ظهر قلب .

فلم يعجب سانين إذ كان يتوقع ذلك من سارودين وسألها بلهجة المغتبط المازح : « هل يشناقون جداً أن يقابلوني؟ » .

ولا بد أن تكون دونيكا توقعت شيئاً مزعجاً ذلك أنها لم تخف وجهها بل طففت تحديق في وجه سانين وترنو إليه رنو العطف والذهول .

فأسند سانين فأسنه إلى شجرة وشد حزامه ومضى إلى البيت في تؤدة على عادته وكان يقول لنفسه : « ما أسخفهم وأشد غباءهم ! » وهو يفكر في سارودين ورسوليه ولم يكن يقصد بهذا إلى الطعن فيهن بل إلى مجرد الإعراب عن رأيه الصريح المخلص في سلوكهم .

ولقي في طريقه ليذا خارجة من غرفتها فوقفت على العتبة ووجهها باهت ممتقع وعيناها قلمتان محزونتان وشفاتها تخرجان دون أن ينبثا وكانت في هذه اللحظة تحس أنها أشقى النساء في العالم وأعظمهن جرماً .

ورأى ماريا إيفانوفنا جالسة على كرسي ذي ذراعين أشد ما تكون فزعا ويأسا وعلى رأسها قبعتها ماثلة إلى أحد خدفيها فألقت إلى سانين نظرة فزعة وخانها الكلام فابتسم لها وهم بأن يقف معها هنيئة ولكنه أثر أن يمضي لشأنه .

وكان تاناروف وفون دايتز جالسين في غرفة الانتظار جلسة صلبة ورأس كل منهما إلى زميله كأنما كانت تضايقهما ثيابهما المشدودة فلما دخل سانين وقفوا في بضع وتردد كأنهما في شك مما يجب عليهما نحوه . فقال سانين بصوت عال : « عما صباحاً » ، ومد إليهما كفه فتردد فون دايتز وانحنى تاناروف وبالغ في الانحناء حتى لا استطاع سانين أن يرى قفاه وعاد سانين فقال :

« أى خدمة أستطيع أن أقدمها لكما ؟ » ولم تفتنه مبالغة تاناروف في التأديب وعجب له كيف وسعه أن يقوم بدوره السخيف بهذا الاطمئنان . فاعتدل فون دايتز وأراد أن يكسب وجهه الممطوط كوجه الحصان هيئة الجدد والوقار إلا أنه لم يفلح في هذا الذي عاجله لفرط اضطرابه . ومن الغريب أن تاناروف — وهو في العادة سخيف حيي — هو الذي خاطب سانين بلهجة حاسمة متزنة فقال :

« إن صديقنا فيكتور سارودين قد أولانا شرفاً بأن طلب إلينا أن نمثله في أمر معين يعينكما » — ألقى هذه الجملة بإحكام الآلة وضبطها . فقال سانين : « أهو ! » بوقار مضحك وفتح فيه على آخره ودهضى تاناروف في كلامه مدعبساً قليلاً :

« نعم ياسيدى . أنه يرى إن سلوكك نحوه لم يكن .. أحسن .. أ.... » . فقاطعه سانين وقد بدأ صبره ينفذ : « نعم نعم . فهمت . لقد كدت أطرده من البيت لكزرا برجلي فقولك لم يكن « أحسن .. » أقل العبارات صلاحاً للمعارة عما حدث » .

فأم يلتفت تاناروف إلى هذا الكلام وقال :

« حسن ياسيدى . إنه يصبر على أن تسحب ألفاظك » .

وأيده فون دايتز بنعم نعم وكان يتقل رجليه كالجواد فابتسم سانين وقال : « أسحب ألفاظي ؟ كيف أستطيع أن أفعل ذلك ؟ إن الكلمة كالأثر خرج من قفصه ! » .

فحار تاناروف وارتيك وحقق في وجه سانين بدل أن يرد عليه وقال  
سانين لنفسه « واسوأنا لعينيه ! » تم استأنف تاناروف الكلام وهو  
مغضب : « إن هذه ليست بالمسألة التي يجوز فيها المزاح فهل أنت مستعد  
لسحب كلامك أم غير مستعد ؟ » .

فصمت سانين برهة وجيزة وقال لنفسه « ما أغباه » وهو يتناول كرسيًا  
ثم جلس وقال بالهجة الجدة : « ربما كنت مستعداً أن أسحب كلامي لأرضي  
سارودين وأسكن نفسه لاسيما وأنا لأعلق أضال أهمية بما قلت له . ولكن  
سارودين أولاً لغبائه أبي أن يفهم الباعث لي على كلامي ثم هو يأبي الآن  
إلا أن يلغظ بالأمر بدل أن يضبط لسانه ثم أنى ثانياً أمقت سارودين كل  
المقت ولست أرى في هذه الظروف أى مبرر لسحب كلامي » .

فقال تاناروف بصوت أشبه بالصفير : « حسن جدا . وإذا ... » .

وحلق فون دايتز مذهولاً واصفر وجهه الطويل .

وعاد تاناروف فقال بصوت عال أراد به الوعيد : « في هذه الحالة » .

فزاد كره سانين لهذا الخلق وهو ينظر إلى جبهته الضيقة وثيابه  
المشدودة وقاطعه تائلاً : « نعم نعم . إنى أعرف كل ذلك . ودعاني أقل  
لكما شيئاً واحداً وهو أنى أنوى أن لا أبارز سارودين » .

فاستدار فون دايتز بجده ومط تاناروف جسمه وسأله بلهجة المحتقر :  
« ولماذا من فضلك ؟ » .

فانفجر سانين ضحكاً وزال كرهه له بأسرع مما جاء وقال :

« حسن . أذكر لك السبب . إنى أولاً لا أريد أن أقتل سارودين وأنا —

تانيا — أقل رغبة في أن يقتلني أحد » .

فقال تاناروف باحتقار : « ولكن ... » .

فقاطعه سانين ووقف : « لن أبارزه والسلام . لماذا ؟ إنى لا أميل إلى

تعليل شيء أو تفسيره لكما ، وإن ما تطلبان لأكثر مما لكما الحق فيه » .

وكان احتقار تاناروف لهذا الرجل الذى يأبى أن يبارز ممتزجاً باعتقاده

أن الضابط وحده هو الذى رزق الشجاعة والإحساس بالشرف اللازمين لهذا العمل . ومن أجل ذلك لم يدهشه أن يرفض سائين بل لعل الرفض سره . فقال بلهجة زارية :

« هذا شأنك ولكنى لأرى بدا من تحذيرك ... »

فضحك سائين وقال : « نعم نعم ولكنى أنصح لسارودين أن لا ... » .

فقاطعه تاناروف وهو يتناول قبعته سائلا : « أن لا يفعل ماذا ؟ »

فقال سائين : « أنصح له أن لا يلمسنى وإلا جلده حتى .. » .

فصاح فون دايتز هايجاً : « اسمع ! إني لأستطيع أن أحتمل هذا . .

إنك .. إنك إنما تضحك منا . ألا تعلم أنك برفضك أن تبارز .... » .

وكان وجهه أحمر وعيناه جاحظتين . والزبد على فمه فنظر سائين إلى فمه

مستغرباً وقال : « وهذا هو الرجل الذى يعدنفسه من تلاميذ تولاستوى ! » .

فقلق فون دايتز وطوح رأسه وتمتم وهو مستحى من أن يخاطب بهذه

اللهجة من كان صديقاً له إلى آخر لحظة : « إني مضطر أن أرجوك أن

لا تذكر هذا . فإنه لا شأن له بموضوعنا » .

فأجاب سائين : « أو ليس لهذا شأن بما أذكرتك ؟ حقيقة ؟ إن له لدخلاً كبيراً » .

فنعق فون دايتز : « ولكنى مضطر أن أرجوك .. » .

وقال تاناروف : « إن هذا كثير حقيقة .. » .

فقال سائين وتراجع مشمئزاً من فون دايتز وكانت شفتاه تنثران ريقه :

« آوه . كفى كفى ! طنا ماشئماً فما يعيننى ظنكما وقولا لسارودين إنه حمار » .

فصاح فون دايتز « ليس لك حق ياسيدى . أقول ليس لك حق » .

وقال تاناروف مقتنعاً : « حسن جدا . دعنا نذهب » .

فصاح فون دايتز ولوح بذراعيه : « كلا ! كيف يجرؤ ؟ ... أى حق ..

إن هذا .. » .

فنظر إليه سائين هنيئة وأوماً محتقراً وخرج من الغرفة . فصاح به

تاناروف : « سنبغ رسالتك إلى زميلنا الضابط » .

فقال سانين : « افعل ماشئت » ولم يلتفت وراءه وكان يسمع تاناروف يعالج أن يهدى روع فون دايتز فقال لنفسه « ان هذا الفتى سخيف فى العادة ولكنّه بصير عاقل إذا كانت المسألة من اختصاصه » .

وصاح فون دايتز وهما خارجان « ان المسألة لا يمكن أن يسمح لها بالانتهاه عند هذا الحد » .

ونادت ليذا أخواها من غرفتها « فولودحا » .

فوقف سانين وسألها : « ماذا ؟ » .

أجابت : « تعال . فىنى أريد أن أحادثك » .

فدخل سانين غرفة ليذا وكان العطر يفعم الأنف فيها فقال سانين : « ما أحلى أن يكون المرء هنا » وكانت ليذا تواجه النافذة والأضواء المعكوسة عن الحديقة تضطرب على خديها وكتفها .

فسألها سانين برفق : « ماذا تريدين منى ؟ » .

فصمتت ليذا وأسرعت أنفاسها .

فسألها ثانية : « ما الخبر ؟ » .

فقالت بصوت أجش ولم تلتفت إليه : « ألا تنوى أن تبارزه ؟ » .

أجابها : « كلا » . فصمتت ليذا وقال سانين : « وماذا إذا ؟ » .

فاضطربت ذقن ليذا والتفتت إليه بسرعة وقالت : « إنى لا أفهم

هذا . : لا أستطيع أن . » .

فقاطعها سانين متجهما وقال : « إذا فإن أسفى عليك عظيم » .

وأحس أن الغباء والشر يحيطان به من كل جانب وغازه أن يجد هذه الصفات فى الأشرار والأخيار والقباح والحسان على السواء فاستلدار وخرج .

وراقبته ليذا وهو يخرج ورأسها بين يديها ثم ألقت بنفسها على السرير

وامتدت ضفيرتها السوداء الطويلة على الغطاء الأبيض فبدت في هذه اللحظة على الرغم من بأسها أصعب وأينع .

وكانت النافذة ترسل النور والحرارة والعطر : ولكن ليذا لم تلتفت إلى شيء من هذا .

كان الوقت أصيلاً بارع الجمال ومساء من تلك المسى التي تفيضها على الأرض في أخريات الصيف قبة السماء اللازوردية وكانت الشمس قد مالت صوب المغرب ولكن الضوء كان وضاحاً والجو صافياً رائقاً والندى كثيراً والتراب الذي ثار في بطء يعقد شفوفاً دون السماء . والأصوات تسبح هنا وههنا كأنما تحملها أجنحة سريعة .

وكان سانين يسير في الطريق المعفر ورأسه عار وعلى جسمه قيصه الأزرق حائل اللون قليلاً عند الكنفين ثم مال إلى درب كثير النجائل ميمما بيت إيفانوف .

وكان إيفانوف جالسا عند النافذة عريض الكتفين يادى الجذ وشعره الطويل مرسل عن جبهته إلى يافوخه وأمامه الطباقي يصنع منه لفائف والحديقة ترسل إليه النسيم رطباً بليلاً وأوراق الأشجار أمامه يومض فيها الطل . ورائحة الطباقي القوية تغريه بالعطاس . فقال سانين ومال على حافة النافذة : « عم مساء اتمد طلب إلى اليوم أن أبارز » .

فأجابه إيفانوف غير محتفل : « أى فكاهة هذه ؟ تبارز من ؟ ولماذا ؟ فقال سانين : « سارودين . فقد طردته من البيت فعد هذا إهانة » . فقال إيفانوف : « إذا فسيكون عليك أن تلاقيه . دعنى أكون شاهدك وطير له أنفه »

فقال سانين وهو يضحك ، « لماذا إن الأنف عضو جميل من وجه الإنسان . . كلا . لن أبارزه » .

فهز إيفانوف رأسه موافقاً وقال : هذا شيء حسن . والمبارزة بعد  
لا ضرورة إليها أبداً .

فقال سانين : ولكن أختي ليذا لا ترى هذا الرأي » .  
فأجابه إيفانوف : ذلك لأنها أوزة ورهاء . ما أكثر السخافات التي  
يؤمن بها الناس . ! » .

وفرغ من آخر لفافة وأشعلها ووضع الباقية في علبة وفتح بقايا الطباق  
عن النافذة ووثب منها وانضم إلى سانين وسأله :

« ماذا نصنع هذا المساء ؟ » فقال سانين مقترحاً :  
« لنذهب إلى سلوفتشك » . فقال إيفانوف : « لا لا ! » .

فقال سانين : « لماذا ! ؟ » . فقال إيفانوف : « لا أحبه : إنه كالودودة » .  
فهز سانين كتفيه وقال : « ليس شراً من غيره . هيا بنا » . فقال إيفانوف  
« حسن . هيا بنا » وكان لا يمتنع عن شيء يقترحه سانين فمضيا معاً . ولكن  
سلوفتشك لم يكن في البيت وكان الباب موصداً والفناء موحشاً وليس به  
إلا « سلطان » يجر سلسلة طوقه فنبحهما فقال إيفانوف :

« ياله من مكان موحش . دعنا نذهب إلى الميدان » .

فعادا ونبحهما الكلب مرتين أو ثلاثاً ثم أقبعى أمام مبيته .

وراح ينظر إلى الفناء المهجور الموحش وإلى الطاحون الصامتة وإلى  
آثار الأقدام على الحشائش المعفرة .

وكانت فرقة الموسيقى تعزف في الميدان على عاداتها والنسيم يهب عليلاً  
والمتمتزون كثير تسير جموعهم إلى الحدائق الظليلة تارة وإلى المدخل الحجري  
الضخم أخرى .

وما كاد سانين وإيفانوف يدخلان وذراعهما مشتبكتان حتى لقيتا  
ساوفتشك وكان يسير وهو مطرق ويداه وراء ظهره فقال سانين : « لقد  
مررنا الساعة بدارك » .



فاحمر وجه ساوفتشك وابتسم وقال مجيباً :

« أسألك العفو . وإني لعظيم الأسف ولكنه لم يخطر لي قط أنك ستزورني اليوم وإلا لزمتم البيت . لقد خرجت طالباً للرياضة قايلاً » والمتعت عيناه .

فقال له سانين بلهجة العطف وأمسك بذراعه : « تعال معنا » وكأنما ابتهج ساوفتشك فأطبق على ذراعه ودفع قبحته إلى قفاه وسار معهم وكأنه ممسك بشيء ثمين لا بذراع سانين وكان يخيل إليك أن فمه يصل من أذن إلى أذن .

وكان رجال الفرقة حمر الوجوه منتفخي الخدود يرسلون أصوات آلاتهم النحاسية المصمتة ويحتشم رئيسهم ملوحاً بعصاه بحماسة . وحول الفرقة طوائف من الكتبة وعمال الحوانيت والصبيان والبئات وعلى أجيادهم مناديل زاهية الألوان . وفي طرقات الحديدية وممراتها طائفة مرحة من الضباط والطلبة والسيدات .

ومالبت أصحابنا الثلاثة أن قابلوا ديبوفا وشافروف ويورى فتبادلوا معهم البسمات . وبعد أن طافوا بأرجاء الحديدية كلها قابلوا سيدنا كرسافينا فانضمت إليهم وسألها ديبوفا :

« لماذا تسيرين وحدك » وقال بعضهم : « تعال معنا » :

واقترح شافروف : « ميلوا بنا إلى ناحية منعزلة فإن الزحام هنا شديد » . فقالوا إلى مكان أهدأ وأكثر ظلاً وهم يضحكون ويتحدثون . ولما بلغوا آخره وهموا أن يعرجوا على سواه التقوا بسارودين وتاناروف وفلوتشين وأدرك سانين أن سارودين لم يكن يتوقع أن يلتقي به هنا وأنه اضطرب اضطراباً شديداً ففقد تجمهه وجهه ومط جسمه . وضحك تاناروف ساخرأ .

وقال إيفانوف لسانين : « إن هذا القرد الصغير لا يزال هنا » ونظر إلى فلوتشين وكان هذا لم يرهم إذ كان في شاغل من سيدنا وكانت سائرة في طليعتهم حتى لقد التفت ورائه لينظر إليها .

فقال سانين : « نعم لا يزال هنا » .  
وظن سارودين أن تاناروف إنما يقصده هو بضحكه فتاوى كأنما كان  
جلد وثارت نائرة غضبه وترك زميليه واندفع إلى سانين .  
فقال سانين « ماذا ؟ » وجد جسده وعينه إلى سوط صغير في يد سارودين  
المرتجفة وقال لنفسه : « ما أحملك ! » . وخامره العطف عليه والغضب  
منه . فقال سارودين بصوت مبجوح :  
« أريد أن أقول لك كلمة . هل تلقيت دعوتي ؟ » .  
فقال سانين وعينه ترصد كل حركة ليد الضابط : « نعم » .  
فسأله سارودين : « وهل استقر رأيك على أن ترفض .. أن تعمل  
ما ينبغي لكل رجل محترم أن يعمله في مثل هذه الظروف ؟ » .  
وكان صوته متهدجا مخنوقاً وإن كان عالياً حتى لأنكره هو نفسه ولم  
تؤاذه الشجاعة على التحول عن الطريق الذي أمامه .  
فسكنت الحديدية فجأذ كأنما لم يعد بها هواء ووقف الباقون من الناحيتين  
سكوتاً مرتبكين منتظرين .  
وحاول إيفانوف أن يتدخل فقال : « آوه ! أى شيطان .. » .  
فقاطعه سانين موجهاً كلامه إلى سارودين وقال بصوت غريب في هدوئه  
واتزانه وهو يحدق في عينه : « أرفض بالطبع » .  
فأسرعت أنفاس سارودين كأنه يرفع ثقلاً جسيماً :  
وسأله مرة أخرى بصوت رنان : « أسألك مرة أخرى — هل ترفض ؟ » .  
فاصفر سلوفتشك وقال لنفسه : وأأسفاه إنه سيضربه »  
ثم تتم وهو يحاول أن يحمى سانين « ماذا ؟ ماذا جرى » ه  
فلم يلتفت إليه سارودين ودفعه عنه بخشونة ولم ير أمامه إلا عين سانين  
الهادئين الباردتين .  
وقال سانين بنفس هذه اللهجة : « لقد قلت لك هذا مرة » .  
فماج كل شيء في نظر سارودين وسمع خلفه أقداناً سريعة الخطى

وصرخة امرأة وأحس من اليأس ما يحسه من يسقط في هاوية فلولح  
في الهواء بسوطه .

وفي هذه اللحظة نفسها جمع سائين كل قوته وإكمه في وجهه بجمع يده  
فصاح إيفانوف ولم يملك نفسه : « حسن ! » .

فتألى رأس سارودين على كتفه وفاض على أنفه وفه شيء حار أحس  
له وخزاً في دماغه وعيذه وتوجع وسقط على يديه وأفلت السوط من كفه  
وزلت قبعته عن رأسه ولم ير شيئاً ولا سمع شيئاً . ولا شعر إلا بالفضيحة  
الشيعة وبالأم الكاوى في عينيه . وصرخت سينا . « يا آلهى ! » وأمسكت  
رأسها بكلتا يديها وأغمضت عينها . واستفزع يورى منظر سارودين وهو  
راقداً على يديه ورجليه . فانذفع إلى سائين ووراءه شافروف . أما فلوتشين  
فزلت نظارته عن أنفه لما تعثر وعدا بأسرع ما يستطيع على النبات البليل  
حتى أسودت سراويله البيضاء الناصعة إلى الركبتين .

وقرض تاناروف أضراسه هائجا وتقدم مثل يورى ولكن إيفانوف أمسك  
بكتفه ورده . فقال سائين باحتقار :

« هذا حسن . دعه يقبل » وكان واقفاً ورجلاه منفرجتان وأنفاسه  
بطيئة والعرق يتصبب عن جبينه .

ونفض سارودين بطيئاً وندت عن شفثيه الوارمتين المرتجفتين ألفاظ  
وعيد خافتة غير مفهومة رآها سائين غاية السخافة والبله :

وكان الجانب الأيسر كله من وجه سارودين قد انتفخ وورم ولم تعد  
عينه ترى والدم يسيل من فمه وأنفه وجسمه كله يردد كأنما ترعشه الحمى .  
ولم يبق شيء من ذلك الضابط الرشيق الوسيم .

فقد سلبته هذه الأكمة الفظيعة كل مظهر إنسانى ولم تدع إلا كتلة مشوهة  
مستبشعة تبعث على العطف والمرثية ولم يحاول أن يمضى أو أن يدفع عن نفسه  
وجعلت أسنانه تصطك وهو يبصق الدم ونفض الرمل عن ركبتيه ثم دار  
رأسه فمال إلى الأمام وستقط على الأرض مرة أخرى .

فصاحت سينا : « ما أفضع هذا ! ما أشنعه ! » وأسرعت فغادرت المكان . وقال سانين لإيفانوف : « هيا بنا » ونظر إلى السماء حتى لا تقع عينه على هذا المنظر البشع .

فقال إيفانوف : « تعالى معنا يا سلوفتشك » .

ولكن سلوفتشك لم يتحرك بل ظل يحديق في سارودين وفي الدم والرمل القدر على ثيابه البيضاء وهويرجف وشفثاه تحتلجان .

فجره إيفانوف بعنف ولكن سلوفتشك دفعه بحدة عجيبة ثم التصق بجذع شجرة كأنما يريد أن يقاوم من يجره بالقوة .

وقال : « لماذا ؟ لماذا فعلت هذه الفعلة ؟ » .

وصاح يورى في وجه سانين « ما أنذل هذا العمل ! »

فأجابه سانين وعلى فيه ابتسامة ساخرة : « نعم نذالة ! هل كان يكون خيراً في رأيك لو تركته يضربني ؟ » ثم أشار بيده وحث خطاه ورمى إيفانوف إلى يورى نظرة ازدراء وأشعل سيجارة وتبع سانين على مهل وقال له ظهره العريض وشعره المصبوق « ما أقل ما أثر فيك هذا المشهد ! » وقال هو لنفسه « ما أقدر الإنسان على أن يصير وحشاً ! » .

ونظر سانين وراه مرة ثم مضى مسرعاً .

وقال يورى وهو يمضى « مثل الوحوش تماماً » .

وتلفت وراه فإذا الحديدية التي كانت جميلة لطيفة قد صارت بعد الذى وقع مكاناً موحشاً جهما معزولا عن سائر العالم .

وتنفس شافروف الصعداء وتلفت من وراء نظارته في كل جهة كأنما يتوقع أن تتكرر هذه الفظيعة في أية لحظة .

( ٣٠ )

تغيرت حياة سارودين كل التغيير في لحظة . كانت رحبة سائلة كلها مرح فعدت الآن مشوهة لا تحتمل وسقط التمتع الضاحك وبدا وجه الوحش الدميم

وكان تاناروف قد حمله إلى مسكنه في مركبة فجعل في الطريق  
يبلغ في التألم والتظاهر بالضعف حتى لا يفتح عينيه وبذلك ظن أن يجتنب  
تعبير آلاف العيون له كلما وقعت عليه وكان يخيل إليه أن ظهر السائق  
والمارة والوحوه المتطلعة من النوافذ وذراع تاناروف حول خصره . كل  
ذلك ليس إلا عبارات صامته عن الاحتقار . ولج به هذا الشعور المؤلم  
حتى كاد يغشى عليه فأحس أن رشده يكاد يعزب وتمنى الموت وأبى أن  
يعترف بالواقع وظل يعالج أن يتصور أن هناك خطأ أو سوء تفاهم وأن  
خطبه ليس من الهول بحيث يتصور . ولكن الحقيقة الواقعة بقيت كما  
كانت فصار يأسه أظلم .

وشعر سارودين بأن أيديا تساعده وأنه يتالم وأن يديه ملوثتان بالدم  
والاقتدار وعجب لنفسه كيف لا يزال يشعر بهذا وكانت المركبة ربما مالت  
إلى طريق آخر عند ركن حاد فيفتح عينيه ويرى ما ألفت من الشوارع  
والمنازل والناس والكنيسة — كل شيء كما كان لم يلحقه تغيير ولكن كل<sup>٤٢</sup>  
شيء كان يبدو له غريبا مناصبا . وكان المارة يقفون ويحملقون فيغمض  
سارودين عينيه نخجلا ويأسا . وكان الطريق لا آخر له ثم تصور وجوه  
خادمه وربة البيت والجيران فود لو يطول الطريق إلى غير نهاية وأن يظل  
ماضيا هكذا إلى غير غاية وعيناه مغمضتان

وكان تاناروف أعظم ما يكون استنضاحا لهذا الموكب . فجعل ينظر  
أمامه وهو مضطرب أحمر الوجه وحاول أن يوقع في روع النظارة أنه لا  
شأن له على الإطلاق بهذه المسألة . وكان في أول الأمر يدعى العطف على  
سارودين ثم لم يلبث أن لزم الصمت وربما استمحت السائق من حين إلى حين  
وأسنانه مطبقة فأدرك سارودين من هذا ومن تراخي ذراعه حوله بل من  
دفعه به أحيانا — ما يحسه تاناروف وجاء إدر اكه هذا أن رجلا كتاناروف  
دونه بمراحل صار يخجل منه مغريا له بالاعتقاد أن كل شيء قد انقضى .  
ولم يستطيع سارودين أن يجتاز فناء الدار بغير معين فيكان علي

تاناروف والخادم المذهول أن يحمله ولم ير سارودين غيرهما ثم وضعاه على الفراش ووقف أمامه مترددين لايعلمان ماذا يصنعان فهاج ذلك سارودين ولما عادت إليه نفسه جاء الخادم بماء ساخن ومنشفة وغسل له وجهه ويديه وكان سارودين يتجنب عينه ولكن وجه الخادم لم يكن فيه شيء من دلائل الشر أو الزرارية ولم يكن المرء يقرأ فيه سوى آيات العطف والقلق . وهو يتمتم :

« كيف حدث ذلك ياسيدى ؟ واأسفاه ! واأسفاه ؟ ماذا فعلوا به ؟ » .  
فصاح تاناروف مدغضبا : « هذا ليس شأنك » وتلفت حوله مضطربا ثم مضى إلى النافذة وأخرج سيجارة ولكنه تردد ولم يدر أيليق به وسارودين ملقى هناك أن يشعلها فردها إلى موضعها من العلبة ودفعها في جيبيه .

وقال الخادم ولم يصلده ما أصابه من سوء الرد :

« هل أدعو الطبيب » . فمد تاناروف أصابعه متردداً وقال :

« لا أدري » بصوت آخر غير الاول وأدار وجهه وسمع سارودين هذه الكلمات واستهول أن يرى الطبيب وجهه المحطم فتمتم بضعف : « لا أريد أحداً » كأنما يعالج أن يقنع نفسه وغيره أنه سيموت . ولما طهر وجهه من الدم والأقذار لم يعد بشعاً بل لعله صار أبعث على العطف . فنظر تاناروف مسرعاً ثم صرف عنه عينه ولمح سارودين هذه الحركة على خفائها وناله منها ألم ويأس لا سبيل إلى العبارة عنهما فأطبق جفونه وصاح بصوت متقطع تخنقه العبرات : « اتركاني آوه ! آوه ! »

فرماه تاناروف بمنظرة أخرى وتماكبه السخط عليه والاحتقار له وقال لنفسه بارتياح خبيث : « لأنه يهم فعلا بالبكاء » .

وكان سارودين مغمضاً عينيه هادئاً فنقر تاناروف بأصابعه على حافة النافذة ولوى شاربيه وتلفت حوله ثم أطل من النافذة واشتاق أن يخرج ولكنه قال لنفسه : « لا أستطيع ذلك الآن . ما أمله ! الأوفق أن أبتى حتى ينام » .

ومضى ربع ساعة أخرى وسارودين لا يهدأ وتاناروف على أحر من الجمر قلقا . وأخيراً هدأ ولم يعد يتحرك ففسر تاناروف وقال : « آها ! لقد نام . نعم وأنا واثق من ذلك » .

ومشى بحذر وخفة حتى لم يسمع صوت مهمازه : ولكن سارودين فتح عينيه فجأة . فوقف تاناروف . وأدرك سارودين ما انتواه صاحبه وعرف تاناروف أنه افتضح . ثم حدث أمر غريب : أغمض سارودين عينيه وادعى النوم وحاول تاناروف أن يقنع نفسه بأن صاحبه نائم وإن كان على يقين جازم بأنه يراقبه ويرصد حركاته . وهكذا زحف من الغرفة وهو متحن يحس كأنه خائن محكوم عليه .

وأغلق الباب وراءه في رفق . وهكذا انبثت روابط الصداقة التي كالت بينهما إلى الأبد . وأحس كلاهما أن هاوية لاسبيل إلى تخطيها قد احتفرت بينهما . وأنهما صارا غريبين .

ولما صار تاناروف في الغرفة الخارجية خلاصة أنفاسه ولم يأسف على انقطاع الصلة بينه وبين من فضى كثيرا من سنى حياته معه . وقال للخادم على سبيل المدارة .

« اسمع . سأذهب الآن . وإذا جد شيء .. إنك تفهم .. » .

أجاب : « حسن جدا ياسيدى » .

— « أنت الآن تعرف . غير الضهادات كثيرا » .

وأسرع إلى السلم ومنه إلى بوابة الحديقة ثم أخرج نفساً عميقاً طويلاً لما رأى الشارع الساكن العريض وكان الظلام قد زحف ففسره أن يستطيع أحد أن يرى احتقان وجهه

وقال لنفسه : « من يدري ! قد يزجون بي في هذه المسألة الفاضحة ؟

ولكن ما شأنى بها ؟ » .

وهبط قلبه في صدره لما بلغ الميدان وحاول ، أن يهدئ روعه وأن

ينسى أن تاناروف دفعه بقوة حتى كاد يسقط إلى الأرض .

« إلى الشيطان بها ! ما أشأمها حادثة ! إن سببها كلها سارودين لماذا راح يصاحب مثل هذا الوحش ؟ » .

وكان مستعدا أن يلمح في وجوه المارة امارات السخرية والتمكّم فلو تعرض له أحد لاستل سيفه . ولكنه لم يلق الاقليلين كأنهم الظلال المتقلّبة يمضون مسرعين . ولما بلغ البيت صار أهلاً وكر ذهنه إلى صدمة تاناروف فقال : « لماذا لم أضربه ؟ لقد كان يجب على أن ألكمه على فكه . وكنت أستطيع أن استعمل سيفي . وكان في جيبى مسدسى أيضا . ولقد كان يجب ان أقتله به كالكلب . ألا كيف نسيت المسدس ؟ من يدري عسى أن يكون هذا خيرا . ولنفرض أنى قتلته ؟ إذا كانت المسألة تصبح في أيدي البوليس ولعل بعض الموجودين كان معه مسدس أيضا . حالة لطيفة أليس كذلك ؟ وعلى كل حال فلا يعلم أحد أنه كان معى سلاح . وستنسى المسألة تدريجيا »

وتلفت تاناروف بحذر وهو يخرج مسدسه ويضعه على المنضدة وقال : « يجب أن أذهب إلى الكولونل حالا وأن أفهمه أن لاشأن لى بهذا الموضوع ولادخل لى فيه » وأغلق الدرج على المسدس ثم نازعته نفسه أن يذهب إلى نادى الضباط وأن يصف الحادثة وصف شاهد عيان وكان الضباط قد سمعوا بها فى الحدائق العامة فارتدوا مسرعين إلى ناديمهم ليطلقوا العنان لسخطهم . وكانوا فى الحقيقة قد سرهم ما أصاب سارودين لأن رشاقته وأناقته فى ملبسه وهيبته كثيرا ما ضيعتاهم .

فاستقبلوا تاناروف بالترحيب وبالرغبة الصريحة فى الاستطلاع واحس هو أنه بطل الساعة وهو يفصل الحكاية لهم وكان المرء يامح فى عينه نظرة مقت لصديقه الذى كان دائما يفوقه . وذكر حادثة القرض ووقوف سارودين منه موقف المتنازل فانتقم لنفسه منه بأن أفاض فى وصف ما أصابه من الهزيمة .





وفي خلال ذلك كان سارودين وحده على فراشه . وعلم خادمه بما أصابه من الناس فجعل يتنقل في سكون ورفق وهو قلق حزين . وأعد أدرات الشاي وجاء بقليل من النبيذ وطرده الكلاب الذي جعل يشب فرحا بعودة سيده ثم قال بعد برهة : « سيدى يحسن بك أن تتناول قليلا من النبيذ » .

فتفح سارودين عينه وقال : « ماذا ؟ » وأغمضها وبجهد ما استطاع أن يحرك شفتيه وأن يطلب المرأة .

فتهد الخادم وجاءه بها ورفع له شمعة أمامها . وقال لنفسه : « ترى لماذا يريد أن ينظر إلى وجهه ؟ » .

فنظر سارودين في المرأة ثم صرخ مكرها فقد رأى أمامه وجهها مشوها مسيحا أحد جانبيه أسود أزرق وعينه منتفخة وشاربه كالأشواك على خده الوارم .

« خذها عني ! خذها ! » وبكى « إلى بشيء من الماء » .

فقال الخادم وهو يقدم إليه الماء في كوب لزج تفوح منه رائحة الشاي : « سيدى . لا تأس على ما نزل . كل شيء سيعود كما كان » :

ولم يستطع سارودين أن يشرب وجعلت أسنانه تصطك بزجاج الكوب وأريق الماء على ثيابه .

فتوجع وقال بضعف : « اذهب » . وخطر له أنه مامن أحد في الدنيا يعطف عليه غير هذا الخادم ولكن الرقة التي أحسها قلبه نحو خادمه عفى عليها الشعور بأنه محل للمرثية حتى من الخادم .

فخرج الخادم وعيناه مغرورتان وجاس على السلم المؤدى إلى الحديقة . وتمسح به الكلاب وحك أذنه بركبته ورفع إليه وجهه مستفسرا فسح الخادم شعره في رفق وكانت النجوم مضيئة في السماء فتوجست نفسه خيفة وأحس أن كارثة ستقع . وذكر قريته وأهله فقال . « إن الحياة كلها أسى وكره » .

وانقلب سارودين في فراشه ولم ينتبه إلى أن الضمادة زلت عن وجهه لما دفئت وتمتم : « قد انقضى كل شيء ! حياتي كلها - ذهبت . لماذا ؟ لأنني أهنت - ضربت كالكلب - ضرب وجهي بالكلمة ! ألا لن أستطيع البقاء في فرقتي . أبداً . أبداً » .

ومثلت لعينه صورته كأوضح ما تكون وهو يجبو على يديه ورجليه . ذليلاً مهيناً مضحك الهيئة . يخرج وعيدا سخيفا . وظل مرة بعد أخرى يحضر إلى ذهنه تفاصيل ما جرى له وكلمة تمثله طغى به الألم ولكن أوجع ما ألمه أذكاء ثوب سينا كرسافينا وكان قد لمح في اللحظة التي كان يقسم فيها أن ينتقم .

ثم حاول أن يدفع خواطره في مجرى آخر فقال :

« من الذي رفعتني ؟ أهو تاناروف ؟ أم ذلك اليهودي الذي كان واقفاً معي ؟ لا بد أن يكون تاناروف . على أن هذا لا يهم . إنما المهم أن حياتي انهارت وأن على أن أترك فرقتي . والمبارزة ؟ ما القول في هذا ؟ لقد انتصر على . فلا بد من تركي الفرقة » .

وذكر سارودين أن لجنة إحدى الفرق أكرهت ضابطين متزوجين على الاستقالة لأنهما رفضا المبارزة .

« وسيطلب إلى أن أستقيل كذلك بكل أدب .. بدون مصافحة .. لن يباهي أحد الآن بأن يرى معي في الميدان . أو يحسدني أحد أو يحاكيني . ولكن هذا لا شيء . إنما المهم هو العار . لماذا ؟ لأنني لكمت على وجهي ؟ لقد جربت ذلك من قبل لما كنت تلميذاً في المدرسة الحربية فضربني ذلك الرجل الضخم - شفارتز - وأطار أحد أسناني . ولم ير أحدني هذا عاراً . ولكننا تصافحنا بعد ذلك وصرنا خير الأصدقاء . ولم يحتقرني أحد يومئذ . فلماذا يكون الأمر الآن غير ذلك ؟ إن الحادثين سواء على التحقيق . ولقد سال دمي يومئذ وسقطت على الأرض . وعلى هذا . . »

ولم يجد سارودين جواباً مريحاً على هذه الأسئلة التي يبعثها اليأس :  
 « لو أنه كان قبل دعوتي وضرب وجهي بالرصاص لكان هذا شراً وأوجع .  
 ولكنه لم يكن يحتقرني أحد حينئذ بل على العكس كنت أفوز بالعطف  
 والإعجاب . فهناك فرق بين الرصاصة واللكمة . أى فرق ؟ ولماذا يكون  
 هناك فرق ؟ » .

وتتابعت خواطره سريعة غير منتظمة ولكن آلامه ومصيبته حركت على  
 ما يظهر شيئاً جديداً كما منا في نفسه لم يكن يشعر به في أيام هنائه ومرحه .  
 « إن فون دايتز مثلاً كان دائماً يقول إذا ضربك أحد على خدك الأيمن  
 فأدر له خدك الأيسر » ولكن على أى حال من الهياج عاد من بيت سانين  
 اليوم ؟ عاد يصيح مغضباً ويلوح بذراعيه لأن سانين أبى أن يبارزنى ! إن  
 الحقيقة أن غيرى ملوم على تقصيري في جلده وقد أخطأت في أنى لم أجلده  
 في الوقت المناسب . إن الأمر كله ظلم . على أن هذا هو الواقع والفضيحة  
 باقية . وسيكون واجبي أن أترك الفرقة » .

وضغط سارودين بكلتا يديه على جبينه المتصدع وجعل يتقلب ويتلوى  
 لأن ألم عينه كان مما يطير له العقل ثم تتم وهو هائج :

« أتناول مسدساً وأهجم عليه وأطلق على رأسه رصاصتين . . . وهناك  
 وهو ملقى على الأرض أدوس بقدمي على وجهه وعينيه وأسنانه ... » .

وسقطت الضمادة إلى الأرض وسمع سارودين صوتها ففزع متراجماً  
 وفتح عينيه فأبصر حوض ماء ومنشفة ورأى النافذة المظلمة كأنها العين المرعبة  
 تحنق فيه . فقال :

« لا لا ! لم تعد في الأمر حياة الآن . لقد رأى الناس جميعاً ما حدث  
 وأبصروني وأنا أزحف على يدي ورجلي آه ! يا للفضيحة والعار ! ضربت  
 على وجهي ! كلا ! إن هذا أكثر مما يحتمل . ولن أكون حراً أو سعيداً  
 مرة أخرى » .

ثم أعضاء في ذهنه خاطر جديد حاد .

« ومع ذلك فهل كنت حرّاً في يوم من أيام حياتي؟ كلا ! هذا هو السبب فيما يكربني ويحزنني الآن - لأن حياتي لم تكن حرة - لأنني لم أعش على النحو الذي يروفتني . ولو أن ارادتي كانت حرة طليقة أكنت أطلب أن أبارك رجلاً أو كانت نفسي تنازعني أن أجلده بالسوط؟ لو كنت حرّاً لما لكمنى أحد . من أول من تخيل ومتى تخيل أن الإهانة لا يغسلها إلا الدم المراق؟ لست أنا على التحقيق . ولقد غسلتها أو هي غسلت في الحقيقة بدى أليس كذلك؟ ولست أدري ما معنى هذا كله ولكن الذي أدريه أني مضطر أن أترك فرقتي» .

وكان يود لو اتجهت خواطره إلى ناحية أخرى ولكنها كانت كالطيور المهیضة المقصوفة الأجنحة لا تزال ترجع وتكر إلى حقيقة واحدة مركزية هي أنه أهين وأنه مضطر أن يغادر الفرقة .

وذكر أنه رأى مرة ذبابة سقطت في شراب مراق فجعلت تزحف على الأرض وتجر أرجلها اللزجة واجنحتها بأقصى صعوبة وكان من الواضح أن الذبابة المسكينة لا مفر لها من الموت وإن كانت لا تزال تتجاهد وتبذل جهوداً عنيفة لاسترداد حرية أرجلها . ولقد أشاح يومئذ عنها بوجهه مشمئزاً فالآن مثلت لعينيه كأنه محموم يحلم . ثم ذكر قتالاً دار بين فلاحين أهوى إحداهما على وجه صاحبه بضربة مرعبة طرحته على الأرض وكان شيخاً أبيض الشعر .

فهمض ومسح أنفه الدامى بكمه وصاح : « يا لها من حماقة » .

ثم قال « نعم أذكر أني رأيت هذا . وأنهما شربا معاً في حان « الكرون » . وضحى الليل إلا قليلاً فكأن سارودين في سكونه الثقيل الوطأة الحى الشقى الوحيد فوق ظهر الأرض وكانت الشمعة لا تزال موقدة على المنضدة . ولكنه كان غارقاً في ظلام خواطره المضطربة فكان يرمقها بعين محمومة .

وكان في هذه الفوضى - فوضى الذكريات والخواطر - يرى شيئاً واضحاً هو الإحساس بوحدته إحساساً له وقع الخنجر في قلبه . وكان يحدث

نفسه أن ملايين من الناس في هذه اللحظة يقطفون أزهار الحياة ويضحكون ويمزحون ولعل بعضهم يتحدثون عنه وليس وحيداً سواء . وحاول عبثاً أن يذكر الوجوه التي ألفها فلم تبد له إلا صفراء باردة منكرة وفي عيونها نظرة استطلاع وشماتة . ثم ذكر ليذا فثلث لخياله كما رآها آخر مرة . عينها الواسعة الحزينة . والصدرية الرقيقة التي تشف عن ثديها الناعمين وشعرها ضفيرة واحدة . ولم ير سارودين في وجهها لا مقتاً ولا احتقاراً . بل كانت عيناها تنظران إليه نظرات العطف والأسى . وذكر كيف ردها في أظلم ساعات حزنها فأحس لفقدتها وقع السكين وأتجهت إليها روحه كأنها آخر ملجأ ومعاذة واشتاق عطفها وحنانها وخيل إليه هنيهة أن آلامه ستعفى على الماضي وتمحوه ولكنه لم يكن يخفى عنه أن ليذا لن تعود إليه وأن ما بينهما قد مضى وانقضى وأنه لم يبق أمامه سوى فراغ هائل .

فرفع ذراعه وضغط بكفه على جبينه وظل كذلك لا يتحرك وعيناه مغمضتان وفمه مطبق وراح يعالج أن لا يرى شيئاً وأن لا يسمع شيئاً وأن لا يحس شيئاً ولكن يده انحدرت عن جبينه بعد قليل فجلس واشتد الصداع وعاد لسانه وكأن فيه ناراً وارتجف من فرعه إلى قدمه ثم نهض ومشى إلى المنضدة وهو يقول :

« لقد فقدت كل شيء : حياتي وليداً — كل شيء » .

وخطر له أن هذه الحياة التي قضاهم تكن لا صالحة ولا سعيدة ولا رشيدة بل حياة جرق وسفالة وشر . وأن سارودين — الوسيم الخليق بنحير متع الدنيا وأحلاها لم يعد له وجود وأنه لم يبق منه إلا جسم ضعيف يحمل كل هذا العار والألم .

« إن البقاء مستحيل لأن معناه إهحاء الماضي ولا بد لي من حياة جديدة ومن أن أصبح رجلاً آخر وهذا مالا طاقة لي عليه » .

وسقط رأسه على المنضدة وظل كذلك في ضوء الشمعة الضعيف المضطرب — لا يتحرك .

ذهب سانين إلى سلوفتشك في نفس هذه الليلة وكان هذا اليهودى جالسا وحده على سلم بيته ينظر إلى المكان الموحش العارى الذى أمامه . وما كان أشجى منظر الخصاص الفارغة الصدئة الأقفال ونوافذ الطاحون السوداء ! لقد كان المنظر كله ناطقا بنضوب الحياة والجزر فى مدها الأول .

ولم يفت سانين هذا التغير فى ملامح سلوفتشك فقد كان لا يبتسم وكانت نظراته قلقة مضطربة وعيناه تتساءلان وقال : « آه ! عم مساء وتناول يد سانين ثم استأنف التحديق فى السماء الساكنة . وجلس سانين إلى جانبه على السلم وأشعل سيجارة وجعل يراقب سلوفتشك فى صمت ويجد لذة فى درس هذه الحالة الغريبة ثم قال بعد برهة : « ماذا تصنع بنفسك هنا ؟ » .

فإذا - سلوفتشك عينيه الحزيبتين الواسعتين إليه فى فتور وقال : « إني أعيش هنا . وكانت عادتي أن أكون فى المكتب أيام كانت الطاحون دائرة . ولكنها الآن مغلقة وقد ذهب كل امرئ سواى » . فسأله سانين : « ألا تحس وحشة الوحدة هنا ؟ » .

فصمت سلوفتشك ثم هز كتفيه وقال : « سواء عندى كل شئ » . وسكتا برهة فلم يكن يسمع إلا صوت سلسلة الكلب ثم قال سلوفتشك بحدة مفاجئة : « إن المكان ليس موحشا بل الموحش هو هذا وهذا » وأشار إلى رأسه وصدوره .

فسأله سانين فى هدوء ما خطبك ؟ » .

فقال سلوفتشك وزاد حماسه : « اسمع . لقد ضربت اليوم رجلا وحطمت له وجهه . وربما كنت قد قضيت على حياته . ولا يسوءك

كلامي هذا . لقد فكرت كثيراً في هذا كله وأنا جالس هنا كما ترى أعجب وأعجب والآن هل إذا سألتك عن شيء تجيبني ؟ . فقال سانين بعطف : « سألني ما بدا لك . أتحشى أن تسيء إلي ؟ إني أؤكد لك أن هذا لا يسيئني . إن ما وقع وقع . ولو كنت أعتقد أني أسأت لك كنت أول من يقر ويعترف . »

فقال سلوفتشك وهو يرتعش : « أريده أن أسألك هل تدبرك أنك ربما كنت قد قتلت هذا الرجل ؟ » .

فأجابه سانين : « لا يكاد يكون هناك شك كبير في هذا . فإن من الصعب على رجل مثل سارودين أن يتمخلص من هذه الورطة دون أن يقتلني أو أن أقتله . أذا حيث قتله لي فقد أفلتت منه اللحظة المناسبة وهو الآن في حانة لا تسمح له بإيدائي ولن تواتيه الشجاعة فيما بعد . لقد انتهى دوره . »  
— « وتقول لي هذا بكل هدوء ؟؟ » .

فسأله سانين : « ماذا تعني بالهدوء ؟ إني لا أستطيع أن أنظر في هدوء إلى فرخ يقتل فضلاً عن إنسان . ولقد آلمني أن أضربه نعم إن شعور الإنسان بقوته للذيذ ولكنها على هذا تجربة فظيعة — فظيعة لأن مثل هذا العمل في ذاته وحشي . غير أن ضميري هادئ . لأنني لم أكن إلا أداة القدر وإنما حاق بسارودين ما حاق به لأن تيار حياته كلها كان لا بد أن ينتهي إلى كارثة . والعجيب أن غيره من أمثاله لا يصيرون إلى مثل مصيره . إنهم قوم يتعلمون أن يقتلوا أبناء جنسهم ولا يعرفون لماذا . إنهم مجانين بله ! إذا خلعت حبالهم على غواربهم قطعوا رقاب الناس ورقابهم كذلك فهل ألام على أن حميت نفسي من مجنون من هذا النوع ؟ » .

فأجابه سلوفتشك بعناد : « نعم ولكنك قتلته . »

فقال سانين : « إذن فتوجه إلى الله الذي قدر لنا اللقاء . »

« كان يسعدك أن تمنعه بأن تمسك كلتا يديه . »

فرفع سانين رأسه وقال : «إن المرء في هذه اللحظة لا ينكر . وكيف كان ذلك خليقاً أن يمنع وقوع الشر ؟ إن قانون الشرف عنده يطلب الانتقام بأى ثمن . ولم يكن يسعى أن أظل قابضاً على يديه إلى الأبد . وما كان ذلك ليكون إلا إهانة جديدة » .

فلوح سلوفتشك بيديه ولم يجب وأطبق الظلام عليه وزال الشفق وعمت الظلال وصار المكان كأنما يتأهب لاستقبال كائنات مرعبة خفية ، ولعل خطاهم الصامتة أقلقته الكلب فقد خرج من مبيته فجأة وركد أمامه .

وقال سلوفتشك : « ربما كنت مصيباً . ولكن ألم يكن من ذلك مفر ؟ ألم يكن خيراً أن تحتمل أنت اللطمة ؟ » .

فقال سانين : « خيراً ! إن الضرب شيء مؤلم فلماذا أحتمله ؟ في أى سبيل ؟ » .

فقاطعه سلوفتشك : « استمع لى من فضلك . كان هذا يكون خيراً .. » .  
فقال سانين : « لسارودين على التحقيق » .

فقال سلوفتشك : « لا بل لك . لك أنت » .

فأجابه سانين : « إيه ياسلوفتشك . دعك من سخافة القول بالانتصار الأدبى . إنها فكرة غير صحيحة . ليس النصر الأدبى فى أن تقدم خدك للضارب بل فى أن تكون على حق أمام ضميرك . فأما كيف يتأتى ذلك فمسألة مرجعها إلى المصادفة والظروف . إنه ليس أفضح من الاستعباد . وهو أفضح ما يكون حين تثور الروح على الإرغام والقوة ولكنها تدعن على رغم ذلك باسم قوة أعظم منها وأعلى » .

فأمسك سلوفتشك برأسه كأنما يهم أن يطير عن جسمه وقال بلهجة شاكية : « ليس لى العقل الذى أفهم به هذا . ولست أدرى كيف ينبغى لى أن أعيش » .



فقال سانين : « وما حاجتك أن تدري ؟ عش كما تعيش الطيور إذا أرادت أن تحرك جناحها الأيمن فعلت وإذا شاءت أن تطير حول شجرة طارت وحومت » .

فأجابه سلوفتشك : « قد يستطيع الطائر ذلك ولكنى لست بطائر بل إنسان » . فضحك سانين ورنمت ضحكته في الفناء الموحش وهز سلوفتشك رأسه وقال : « كلا ! هذا ليس إلا كلاماً . وأنت أعجز من أن تبين لى كيف أعيش والناس مثلك عاجزاً وقصوراً » . فقال سانين : « هذا صحيح وما يستطيع ذلك أحد . إن فن الحياة يتطلب الموهبة اللازمة له . وأحر بمن حرمة الطبيعة هذه الموهبة أن يفنى أو أن تعود حياته كالسفينة المحطمة » . فقال سلوفتشك : « ما أعظم هدوءك وأنت تقول هذا كأنك تعرف كل شيء ! لا يسوءك قولى هذا - ولكن هل كنت دائماً هكذا - هادئاً دائماً » . فقال سانين : « كلا ! وإن كان مزاجى هادئاً في العادة ولقد مر بي وقت تنازعتنى فيه الشكوك من كل نوع . ولقد كنت أحلم في بعض أيامى بأن الحياة المسيحية هي المثل الأعلى » .

وأمسك سانين ومال إليه سلوفتشك كأنما يتوقع أن يسمع شيئاً على أعظم جانب من الأهمية فقال سانين :

« وكان لى في ذلك الوقت زميل - طالب رياضة - اسمه إيفان لاند وكان رجلاً عجبياً نصيبه من قوة الروح عظيم وكان مسيحياً بفطرته لاعتنق اقتناع فكانت حياته مرآة للمسيحية وصورته مجسدة لتعاليمها . إذا لطمه أحد لم يكر عليه باللطم ولم يجاره في التعدى وكان يعد كل رجل أنخاً له ولا تثير المرأة في نفسه الإحساس الجنسي - هل تذكر سمينوف ؟ » .

فهز سلوفتشك رأسه أن نعم وبه مثل اغتباط الطفل ومضى سانين في كلامه فقال : « كان سمينوف في ذلك الوقت مريضاً جداً وكان يعيش في القرم حيث يشتغل بالتدريس فرمت به الوحدة وتوقع الموت فسمع « لاند » يخبره فألى أن يذهب إليه وأن ينقذ روحه ولم يكن معه مال ولم يكن ثم من

يرضى أن يقرض مجنوناً مشهوراً شيئاً من المال . ولكنه ذهب إليه مع ذلك مشياً على رجليه وبعد أن قطع أكثر من ألف فرسخ قضى نحوه في الطريق وهكذا ضحى بحياته في سبيل الناس .

فصاح ساوفتشك وعيناه تاتمعان: « قل لي هل تقدر عظمة هذا الرجل؟ » .

فأجابه سائين وعلى وجهه هيئة المفكر: « لقد تحدث الناس عنه كثيراً في ذلك الوقت . وكان البعض لا يعدونه مسيحياً وينحون عليه لهذا السبب . وقال غيرهم بل هو مجنون لاخاو من الزهو وأنكر آخرون أن له نصيباً من قوة الروح ولما رأوه يأبى أن يقاتل فقد أنكروا أنه نبي أو فاتح ! أما أنا فرأيت فيه غير ذلك . كان له في ذلك الوقت أعظم تأثير في نفسي . حتى لقد لكنني طالب على أذني فئار نائري وكدت أجن . ولكن لاند كان وافئماً أمامي فنظرت إليه و — لا أدري كيف حدث هذا ولكنني نهضت دون أن أتكلم وخرجت من الغرفة وأحسست في أول الأمر شيئاً من الزهو والمباهاة بما فعلت ثم انقلبت أمقت هذا الطالب من أعماق نفسي لأنه لانه لكنني بل لأن سلوكي معه لا بد أن يكون أرضاه كل الرضى ثم انضح لي شيئاً فشيئاً كذب موقفي وزوره فسرعت أفكر وقضيت أسبوعين وأنا كالذي ضاع عقله وبعد ذلك زابلني الإحساس بالزهو والمباهاة بهلما النصر الأدبي الكاذب وحدث أن هذا الطالب تهكم على فجلدته حتى غاب عن رشده فأفضى هذا إلى وقوع الجفوة بيني وبين لاند ولقد فكرت في حياته تفكيراً نزيهاً فألفيتها فقيرة شقية إلى أقصى حد . »

فقال سلوفتشك: « كيف تقول هذا؟ كيف استطعت أن تقدر ثروة عواطفه الروحية؟ » .

فأجابه سائين: « إن عواطفه هذه واحدة مملّة ولقد كانت سعادته في حياته في تقبل كل مصيبة بدون تامل . وأما ثروته كلها فكان قوامها رفض لذات الحياة والمنافع المادية . لقد كان متسولاً باختياره وكان شخصاً مضحكاً ذهبت حياته في سبيل فكرة لم يكن يدركها على صيرة واضحة . »

فصرب سلوفتشك كفاً بكف وقال : « إنك لا تستطيع أن تتندر الملى لسماع هذا الكلام » .

فقال سانين بلهجة المستغرب : « إنك يا صاحبي مضطرب الأعصاب جداً . لم أقل لك شيئاً غريباً فلعل الموضوع مؤلم لك » .

أجاب : « مؤلم جداً . إنى دائم التفكير حتى ليخيل إلى أحياناً أن رأسى سينفجر . فهل كان كل هذا خطأ لا أكثر ؟ إنى أتلمس طريقى كأنى فى غرفة مظلمة ولا أجد من يقول لى ماذا أصنع . لماذا نعيش ؟ أجبني » .  
فقال سانين : « لماذا ؟ هذا مالا يعرفه أحد » .

أجاب : « ألا نلحيا للمستقبل ليفوز الناس فى الأجيال الآتية بعصر ذهبي ؟ »  
فقال سانين « لن يتأتى هذا العصر الذهبي أبداً . ولو أن الدنيا صالحت والناس صامحوا فى لحظة واحدة لكان من المحتمل أن يطاع فجر عصر ذهبي . ولكن هذا مستحيل أن السير فى طريق التحسن بطئ . والإنسان لا يستطيع أن يرى إلا الخطوة التى أمامه والخطوة التى وراءه مباشرة . ونحن لم نجرب حياة الرقيق الرومانى ولا حياة المستوحشين فى العصر الحجري ولذلك لا نستطيع أن نقدر نعمة مدنيتنا فإذا حدث أن عصراً ذهبياً مر بالعالم فإن أهله لن يجتولوا أى فرق بين حياتهم وحياة أجدادهم . إن الإنسان يسير فى طريق لا آخره يعرف وليس من يريد أن يمهد الطريق ويسويها للسعادة إلا كمن يريد أن يضيف أرقاماً إلى اللانهاية » . فسأله سلوفتشك : « إذأ فأنت تعتقد أن كل هذا لا معنى له . وأن كل شىء عبث ؟ »

أجاب سانين : « نعم هذا ما أرى » . فقال سلوفتشك :

« ولكن ما قولك فى صديقك لاند ؟ لقد قلت إنك ... » .

فقال سانين بلهجة الجدل : « لقد كنت أحب لاند لأنه كان مسيحياً بل لأنه كان مخلصاً ولم يحد قط عن طريقه ولا أرهبته العقبات الكأداء أو السخيفة فأنا كنت أقدره باعتباره شخصية فلما مات لم يعد لقيمتة وجود » .

فسأله سلوفتشك: «وهل تظن أن لمثل هؤلاء الناس تأثير في الحياة يجعلها أنبل؟ ألا يكون لأمثالم أتباع أو تلاميذ» .

فقال سانين: «ولماذا تريدون أن تجعلوا الحياة أنبل؟ قل لي ما الداعي إلى ذلك أولاً. واعلم ثانياً - أن المرء لا يحتاج إلى التلاميذ وإنما يكونون كذلك بفطرتهم مثل «لاند». لقد كان المسيح رجلاً رائعاً ولكن المسيحيين نوتية مساكين. وما أجمل فكرته غير أنهم أحالوها شيئاً جامداً لاجل الحياة فيه» .

وتعب سانين من الكلام فسكت ولزم زميله الصمت كذلك وكان السكون عميقاً حولهما والنجوم فوقهما كأنما تديران حديثاً صامتاً لآخر له. ثم همس سلوفتشك بشيء فرح له سانين وسأله: «ما هذا الذي تقوله؟» .

فتحتم سلوفتشك: «قل لي رأيك. لنفرض أن رجلاً لم يعد يرى الطريق واضحاً وأنه لا يكف عن التفكير وتقطيع قلبه به وأن كل شيء يحيره ويفزعه -- فقل لي ألا يكون خيراً له أن يموت؟» .

فأجاب سانين وقد استشف ما في ذهن صاحبه: «ربما كان الموت في هذه الحالة خيراً فإن التفكير وكد الذهن لا طائل تحتهما ولا ينبغي أن يعيش سوى من يجد لذة في الحياة. أما الشقي فالموت خير له وأرفق به» .

فصاح سلوفتشك: «هذا رأي أيضاً» ودفع يده إلى سانين وكانت عيناه في الظلام أشبه شيء بنقابين مظلمين. فقال سانين وهو ينهض: «إنك رجل ميت. وخير مكان للميت هو القبر. الوداع!» .

وكانما لم يسمعه سلوفتشك فظل لا يتحرك وتريث سانين قليلاً ثم مضى في ببطء. ولما بلغ البوابة وقف وأصغى ولكنه لم يسمع شيئاً وقال لنفسه وكانما يرد على شعور باطن: سواء أن يعيش هذا الرجل أو يموت. وسيموت غداً إذا لم يموت اليوم» .

وأغلق الباب فصر ومضى هو إلى الميدان فأخذت عييه شخصياً بهدوء

وهو يبكي فوقف سانين وبرز من الظلام رجل دنا منه فصاح به : « ما الخبر ؟ » .  
فوقف الرجل هنيهة فرأى سانين جنديا كثيباً فسأله : « ماذا حدث ؟ »  
فتمتم شيئاً ثم عدا وهو يعول وغاب في الظلام كالأشباح فقال سانين :  
« هذا خادم سارودين » ثم طاف بندهنه مثل البرق « إن سارودين قد  
انتحر » .

فحلق في الظلام برهة وابتعد جبينه ودار عراك وجيز إلا أنه هائل  
في صدر هذا الرجل القوي .  
وكانت البلدة نائمة والطرقات عارية والنوافذ كالعيون الفاترة محمقة  
في الظلام فهز سانين رأسه وابتسم وقال بصوت عالٍ : « لا ذنب لي ا » .  
ونصب قامته واستجمع قوته وسار - شبحاً رائعاً في الليل الساكن .

( ٣٢ )

استفاض في البلدة الخبر بأن اثنين انتحرا في ليلة واحدة وكان إيفانوف  
هو الذي أبلغ يورى ذلك وكان يورى قد عاد من المدرسة وجلس بصور  
أخته لياليا فقال إيفانوف ووضع قبعته على كرسى : « عم صباحا » .  
فسأله يورى باسمها « أهذا أنت ؟ ما عندك من الأخبار ؟ » .  
وكان مزاجه معتدلاً ووجهه باشاً ذلك أنه صار مدرساً فقلبت حاجته  
إلى أبيه وتكفلت اخته المليحة الفتاة بشرح صدره .  
فقال إيفانوف وفي عينه نظرة غامضة : « أخبار كثيرة . واحد شق نفسه  
وثان نسف دماغه وثالث استحوذ عليه الشيطان ! »

فصاح يورى : « من تعنى ؟ » .  
فأجابه إيفانوف : « إن الكارثة الثالثة مما اخترع خيالي لزيادة التأثير وأما  
من حيث الأولى والثانية فالخبر صحيح فقد انتحر سارودين البارحة وسمعت  
الساعة أن سلوفتشك شق نفسه » .

فصاحت لياليا ونهضت : « مستحيل » ودنا يورى من إيفانوف وقال :  
« أهذا مزاح ؟ »

فقال إيفانوف : « كلا ! » وأظهر عدم الاكتراث وإن كان على هذا قد راعه ما حصل . وسأله يورى :

« لماذا انتحرت ؟ الآن سانين لكمه ؟ » .

وسألت لياليا : « هل اتصل الخبر بسانين ؟ » .  
فأجابها إيفانوف : « نعم لقد علم سانين البارحة » .  
فقال يورى : « وماذا يقول ؟ » .

فهز إيفانوف كتفيه ولم يشأ أن يتحدث مع يورى عن سانين وقال بشيء من الضجر : « لا شيء ! ما شأنه بهذا ؟ » .  
فقالت لياليا : « إنه السبب » .

فرد عليها إيفانوف : « ولكن لماذا اعتدى عليه ذلك الأحمق ؟ إن هذا ليس خطأ سانين . والمسألة كلها مما يؤسف له ولكن مرجعها إلى سخافة سارودين »  
فقال يورى : « إنى أظن أن السبب أعمق من ذلك . لقد عاش سارودين .  
بين زمرة .... » .

فهز إيفانوف كتفيه وقال مقاطعاً : « نعم . ولحياته بين هذه الزمرة السخيفة وتأثره بها — دليل قاطع على أنه كان سخيفاً » .

ففرك يورى كفيه ولم يثبت وآله أن يبسط إيفانوف لسانه في رجل مات وقالت لياليا : « قد أفهم لماذا قتل سارودين نفسه . فأما سلوفتشك ! لم يخطر لي قط أن هذا محتمل ! هل تعرف السبب ؟ » . فأجابها إيفانوف :  
« الله أعلم ! لقد كان دائماً شاذاً » . وجاء في هذه اللحظة ريزانترزيف في مركبته والتي بسينا كرسافينا على السلم فصعدا معاً ودخلت سينا أمامه وقالت : « لقد جاء أنا تول باهلوفتش من هناك » .

وتبعها ريزانترزيف ضاحكاً كعادته وفي يده سيجارة كان يشعلها وهو داخل وقال : « شيء حسن جداً . إذا استمر هذا لم يبق في المدينة شبان على الإطلاق » .

وجلست سينادون أن تتكلم وكان وجهها الجميل مكتئباً فقال إيفانوف:  
« قص علينا ما تعرفه » .

فقال ريبازانتزيف : « كنت خارجاً البارحة من النادي فاندفع إلى جندي  
وقال : « قد انتحر سعادته » فوثبت إلى مركبة وذهبت إلى هناك بأسرع  
ما أستطيع فألغيت الفرقة كماها تقريباً في المنزل وكان سارودين على الفراش  
وعرى ثوبه محلوثة » .

فسألته لياليا وتعلقت بذراعه : « وفي أى موضع أطلق الرصاص على  
نمسه ؟ » . فقال ريبازانتزيف : « في رأسه اخترقت الرصاصة دماغه  
ونفذت إلى السقف » .

فسأله يورى : « هل كان المسدس من طراز بروننج ؟ » .  
فقال ريبازانتزيف : « نعم . وما أفضح المظر ! لقد كان الحائط ملوثاً  
بالدم وعليه بعض عظام رأسه وكان وجهه ممسوخاً . لقد فعلها سانين !  
تالله ما أقوى هذا الشاب ! » .

فهز إيفانوف رأسه موافقاً وقال : « أوكد لك أنه قوى جداً » .  
فقال يورى : « وحش خشن ! » .  
فالتفتت إليه سينا وقالت : « رأى أن هذا ليس بخطأه . ولم يكن من  
المستطاع أن ينتظر حتى ... » .

فقاطعها ريبازانتزيف : « نعم نعم . ولكنه لكمه لكمة فظيمة . لقد تحداه  
سارودين ودعاه إلى المباراة » .

فصاح إيفانوف ضجراً وهز كتفيه : « هذا أنت تهنى » .

وقال يورى : « الحقيقة أن المباراة لا معنى لها » .

فوافقت سينا « لا شك في ذلك »

ولاحظ يورى أن سينا يسرها أن تمتنصر لسانين فقال : « على كل حال  
هذا ... » وخانته الألفاظ .

فاقترح ريبازانتزيف : « عمل وحشي » .

ومع أن يورى لم يكن يعد ريازانتزيف إلا وحشاً آخر فقد سره أن يقدح فى سانين أمام سينا . ولكن هذه لاحظت غيظ يورى فكفت عن الكلام وكانت فى الواقع معجبة بقوة ساين وشجاعته ولم تكن مستعدة أن توافق ريازانتزيف على اعتبار المباراة عملاً عادلاً . وقال إيفانوف متهمكماً :

« إن من التمدن ولا شك أن ينسف المرء أنف صاحبه أو أن يبقر بطنه » .  
فقال ريازانتزيف : « وهل لكم الوجه خير ؟ » .

فقال إيفانوف : « لا شك أنه خير . أى أذى تستطيع القبضه أن تلحقه بالرجل ؟ إن الجرح يشفى بسرعة . وما من لكمة آذت أحداً أذى بليغاً » .  
فقال ريازانتزيف : « ليس هذا فى الموضوع ! » .

فقال إيفانوف : « إذأ ماذا فيه من فضلك ! » وزم إيفانوف شفتيه ازدراء . فقال ريازانتزيف : « لقد كاد يفقأ له عينه . وأحسبك لا ترى هذا ضرراً بليغاً ! »

فأجابه إيفانوف : « لا شك أن فقد العين خسارة ولكنه ليس كدخول رصاصة فى جسمك . إن فقد العين ليس قاتلاً » .

فقال ريازانتزيف ش « ولكن سارودين مات ! » .

فقال إيفانوف : « آه ! ذلك إنما كان لأنه أراد أن يموت ! » .

فقال يورى وسرته صراحتة : « يجب أن أعترف أنى لم أنته إلى رأى فى هذا الموضوع . ولا أعلم ماذا كنت أصنع لو أنى كنت فى موقف ساين . ولاشك أن المباراة سخيفة ولكن التلاكم ليس خيراً » .

فقال سينا : ولكن ماذا يصنع المرء إذا اضطر أن يقاتل ؟ » .

فقال ريازانتزيف : « إن أسفنا يجب أن يكون على سلوفتشك » .

فقال : « أين شتى نفسه ؟ هل تدرى ؟ » .



فقال ريبازانتزيف : « في الحصن المجاور لجحر الكباب . أطلقه ثم شنتق نفسه » . فخييل ليورى وسينا أنهما يسمعان صوتا عاليا يقول : « ارقد ياسلطان ! » .

ومضى ريبازانتزيف في قصته فقال : « وقد كتب ورقة قبل موته نسختها . إنها وثيقة إنسانية » . وأخرج من جيبه مذكرته وقرأ : « لماذا أعيش إذا كنت لا أدرى كيف ينبغي أن أعيش ؟ إن أمثالى لا يستطيعون أن يجعلوا آخرانهم سعداء ! » .

فساد سكون رائع وترقرقت عينا سينا واحمر وجه لياليا وبجاشت نفسها وابتم يورى ابتسامة حزينة والتفت إلى النافذة وقال ريبازانتزيف : « هذا كل ما فيها ! » .

فالت سينا وشفتاها ترجفان : « ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ » .

ونفض إيفانوف واجتاز الغرفة إلى المنضدة طلباً للكبريت وقال : « إن هذا ليس إلا سخافة » .

فاحتجت سينا وقالت : « ياللعار ! » .

والتفت يورى إليه مشمئزاً وقال ريبازانتزيف : « لقد كنت دائماً أعتقد أن سلوفتشك صبي يهودى سخيف فانظروا الآن ماذا فعل ؟ إنه ليس أجمل من الحب الذى يدفع المرء إلى التضحية بنفسه في سبيل الإنسانية .

فأجابه إيفانوف « ولكنه لم يضح بنفسه في سبيل الإنسانية .

قال : « نعم . ولكنه يستوى أن ... » .

فقاطعه إيفانوف وفي عينيه لمعة الغضب : « إن الأمرين لا يستويان . إنه عمل أبله لأكثر ولا أقل » فكان لبغضه الغريب لسلوفتشك أسوأ وقع في نفوسهم . ونهضت سينا وهمست في أذن يورى « سأذهب أنه لا يطاق » .

فوافق يورى وقال بصوت خافت : «وحش» .

وخرج فى أثر سينّا - لياليا وريازانتريف وجلس إيفانوف برهة يدخن ثم خرج أيضاً . وقال لنفسه وهو سائر فى الطريق يطوح ذراعيه على عادته : « إن هؤلاء السخفاء يظنون أنى عاجز عن فهم مايفهمون ويلند لي ظنهم هذا ! ألا أنى لأدرى بنحواطرهم وإحساساتهم منهم أنفسهم : وأعلم كذلك أنه ليس أجل من الحب الذى يأمر المرء أن يبذل حياته للناس . فإما أن يشنق رجل نفسه لالسبب سوى أنه لا خير فيه لأحد - فكلام فارغ ! .

( ٣٣ )

كان يورى مطلا من نافذته يشهد جنازة سارودين وهم سائرون به إلى المقبرة على ألحان الموسيقى الحربية . فرأى الخيل مجللة بالسواد وقبعة الفقيده على غطاء النعش وكانت الأزهار كثيرة وبين المشيعين عدد كبير من السيدات . فأحزنه هذا المنظر .

وفى مساء ذلك اليوم سار مسافة طويلة مع سينّا كرسافينا : غير أن جمال عينها وفتنة محضرها لم ينفضا عنه الكآبة وقال وعيناه إلى الأرض « ماأهول أن يتصور المرء أن سارودين لم يعد موجوداً ! ضابط وسيم مرح مثاه يصبح لاشيء ! لقد كان المرء يخيّل إليه أنه سيعيش أبداً وأنه لا يعرف متاعب الحياة وآلامها وشكوكها وأن هذه لن تمسه . فانظرى ! فى صبيحة يوم رائق ذهب كأنه التراب المكنوس بعد أن عانى تجربة فظيمة لايدرى بها سواه . والآن قد مضى ولن يعود أبداً . أبداً . ولم يبق منه غير القبعة على النعش ! » .

وسكت وكانت سينّا تصغى إليه ويداها تعبتان بمطامها ولم تكن تفكر فى سارودين بل كان قربها من يورى مثار لذة محادة لها غير أنها مع ذلك نشاطته كآبته وقالت : « نعم أن الأمر محزن وهذه الموسيقى أيضاً ! » .

فقال يورى بلهجة التأكيد: « لست ألوم سانين . فما كان يسمعه أن يفعل غير ما فعل . وأفطع ما فى الأمر أن طريقى هذين الرجلين تعارضا وصار لابد لأحدهما من أن يخلى الطريق للثانى . ومما هو فظيخ أيضاً أن المنتصر لا يدرك أن نصره مروع : « يزيل رجلا من فوق ظهر الارض فى سكون ويكون مع ذلك على حق » .

فقال : « نعم إنه على حق . . . . . » ولم تكن قد سمعت كل ما قاله يورى وجعل صدرها يعالو ويهبط فصاح يورى بمقاطعاً وهو ينظر إلى جمال جسمها ووجهها : « ولكنى أقول إن هذا فظيخ ! » . فسألته سينا بصوت رقيق واحمر وجهها فجأة وفقدت عينها لمعها : « لكن لماذا ؟ » .

فأجابها يورى : « غير سانين كان حقيقا أن يندم أو أن يهانى شيئاً من ألم الروح ولكنه لم يظهر أى دليل على ذلك وكل ما قاله هو أنى أسف جداً ولكن هذا ليس خطأى . خطأ حقاً ! كأنما كانت المسألة مسألة خطأ أو ملامة ! » .

فسألته سينا : « إذن ماذا هى ؟ » وارتجف صوتها واطرقت نخافة أن تؤلم رفيقها فقال « هذا مالا أعرفه . ولكن الإنسان لاحق له فى أن يكون مثل الوحش فى اخلاقه » .

وسارا مدة فى صمت وآلم سينا ما بينهما من الجفوة الوقتية وأسفت لانقطاع هذه الصلة الروحية التى لم يكن أعذب منها ولا أحلى وراح يورى يظن أنه قصر فى إيضاح خواطره فجرح هذا الظن إحساسه بكرامته .

ثم افترقا وكانت سينا مكتئبة متألمة ولاحظ يورى اكتئابها فسرره كأنما انتقم لنفسه من إهانة شخصية . وزاد سوء خلقه لما صار فى البيت . وقصت لياليا على المائدة ما قاله لها ريباز انتزيف عن سلوفتشاك . وخلا يورى بنفسه فى غرفته وشرع يصحح كراسات تلاميذه ويحدث نفسه : « ما أعظم نصيب الانسان من

الوحشية ! وهل مثل هذه الوحوش البليدة تستحق أن يموت في سبيلها المرء ؟  
ثم خجيل من عدم تسامحه وقال إنهم غير ملومين ! ولا يعرفون ما يفعلون .  
وسواء عرفوا أم لم يعرفوا فهم وحوش ولا شيء غير ذلك ، »

ثم كرت خواطره إلى سلوفتشك فقال « ماأشد وحدتنا في هذه الدنيا !  
هذا سلوفتشك كان بين ظهر انينا ، عظيم القلب مستعداً أن يبذل كل تضحية  
في سبيل غيره . ومع ذلك لم يحسه أحد ولا قدره أحد . بل الواقع أننا كنا  
نحتقره . وذلك لأنه لم يكن يحسن العبارة عن نفسه ولم يكن لرغبته في ارضاء  
الناس من أثر سوى إسخاطهم وإن كان في الحقيقة قد حاول أن يوثق صلواته  
بنا وأن يساعدنا . ألا لقد كان قديساً نظنه فدمماً غيباً ، »

واشتمت ندمه حتى لترك عمله وجعل يقطع الغرفة ثم جالس إلى المنضدة  
وفتح الانجيل وقرأ فيه « كما تنفذ السحابة وتغيب كذلك من يهبط إلى الأرض  
لا يصعد أبداً . ولا يعود إلى بيته لا ولا يعرفه مكانه بعد ذلك » .

ثم قال : « ماأصدق هذا وأحكمه ! حتم فطبع ! هذا أنا أعيش ويلج بي  
الظيماً إلى الحياة واللذات . ثم أقرأ هذا القضاء المبرم ولا يسعني حتى أن أحتج  
عليه ! »

ثم ثار بأسه فأمسك بجبينه وناشد القوة الخفية « ماذا جنى الانسان عليك  
حتى تسخرين منه هذا السخر ؟ إذا كنت موجودة فلماذا تخفين نفسك عن  
عينه ؟ لماذا تجعليني إذا آمنت بك لا أومن بإيماني ؟ وإذا أجبتي كيف أعرف  
أأنت الحبيبة أم نفسي ؟ وإذا كنت على حق في رغبتي في الحياة وطلبي لها فلماذا  
تسليينني هذا الحق الذي منحتهني إياه ؟ إذا كانت بك حاجة إلى آلامنا فدعينا  
نحملها من أجل حبنالك . ولكنا لانعرف أيهما أعظم قيمة الشجرة أم  
الإنسان » .

« ان الشجرة دائمة الامل . اذا قطعت استطاعت أن تقوم مرة أخرى وان تسترد الخضرة وتفوز بحياة جديدة أما الانسان فيموت ويزول . يرقد فلا ينهض كرة أخرى ولو أنى كنت على يقين من أنى سأحيا مرة ثانية بعد ملايين السنين لرضيت أن أنتظر في صبر كل هذه القرون في الضلام »  
ثم قرأ :

أى ربح يجنيه الانسان من كل تعبته تحت الشمس ؟ جيل « » يمضى  
وجيل غيره يأتى ولكن الارض تبقى الى الابد . « » والشمس أيضاً  
تطلع وتنحدر وتسرع الى مكانها الذى طلعت « » منه والريح تهب صوب  
الجنوب ثم تكرر الى الشمال وتدور أبداً « » ما رأيناها أمس نراه اليوم وسنراه  
غداً . لا جديد تحت الشمس « » ليس ثم ذكرى لما مضى . ولن تكون  
ثم أى ذكرى لما سيأتى « » فى نفوس من سيتلوننا « » أنا الواعظ كنت  
ملكاً على بنى اسرائيل فى أورشليم « »

ولما وصل الى هذه الجملة رفع بها صوته مغضباً يائساً ثم تلفت حوله مخافة  
أن يكون قد سمعه أحد ثم تناول ورقة وشرع يكتب : « ابدأ هذه الوصية  
التي تنتهى حياتى بانتهائها . . . »

ثم قال : « رباها ! ما اسخف هذا ! » ودفع الورقة بعنف فسقطت  
على الارض ثم عاد فقال : « ولكن ذلك المسكين الشقى سلوفتشك لم ير  
من السخافة أنه يعجز عن فهم معنى الحياة ! »

ولم يفطن يورى الى انه يتمثل برجل يصفه بأنه مسكين شقى . « وعلى  
كل حال فهذا مصيرى عاجلاً أو آجلاً لا مفر من ذلك ! ولكن لماذا ؟ لأن .. »  
ووقف . ونخيل اليه ان الجواب الدقيق المضبوط حاضر ولكن  
الالفاظ تنقصه . وكان ذهنه قد تعب واضطربت خواطره وقال : « لماذا لم  
أمت وأنا طفل لما مرضت بالتهاب الرئتين ؟ اذا لا رحت ! » . وارتعد لهذا  
الخطار « ولو حدث هذا لما رأيت ولا عرفت ما أعرف الآن . وهذا فظيع أيضاً »  
ورد رأسه الى الوراء ونهض « ان هذا كفيفيل بأن يجن المرء »  
( م ١٧ - ابن الطبيعة )

ومضى إلى النافذة وحاول أن يفتحها ولكن مصراعها كانا مثقلين من الخارج فاستخدم قلما وفتحهما ودخل الهواء البارد فنظر إلى السماء ورأى ضوء الفجر في الأفق . وكان الفجر وضيئا ونجوم الدب الأكبر السبعة بادية وفي الشرق المتوهج يومض كوكب الصباح . وهب نسيم عليل فحرك أوراق الشجر ومزق الضباب الذى كان يحجب صفحة الغدير حيث الأزاهير يانعة . وكانت السماء موشاة بالسحب والنجوم هنا وههنا تتلامح . وكل شىء جميل رائع كأنما كانت الأرض تنأهب لاستقبال الفجر .

ثم انقلب إلى فراشه ولكن الضوء حال بينه وبين النوم فظل مستقليا ورأسه موجه وعيناه مفتوحتان كغمضتين .

— ٣٤ —

خرج إيفانوف وسانين في صباح ذلك اليوم مبكرين وكان الطل يومض في أشعة الشمس والحجاج يدلّفون إلى الدير وكانت نواقيسه تدق وتجلجل والرياح تحمل أصواتها على السهوب إلى الغابات الحاملة فقال إيفانوف « لقد بكرنا » فتلفت سانين حوله مغتبطا مسرورا وقال : « إذا فلنجلس قليلا » فجلسا على الرمل وأسعلا سيجارتين وكان الفلاحون السائرون وراء مركباتهم يتلفتون لينظروا إليهما والنساء والبنات يشرن ويتضحكن ولم يلتفت إيفانوف إلى شىء من هذا ولكن سانين كان يبتسم ويهز رأسه لمن .

ثم بدا على سالم بيت صغير أبيض سقفه أخضر لامع صاحب خمارة « الكرون » وهو رجل طويل قصير كفى التميمص وفتح الباب وهو لا يكف عن التثاؤب ودخلت في أثره امرأة على رأسها منديل أحمر فقال إيفانوف : « دعنا ندخل » ففعلا واشتريا قليلا من الفودكا وبعض القل والخضر والخبز . فقال إيفانوف لما رأى سانين يخرج حربانه « كيسه »

« آها ! ان مالك كثير على ما يظهر يا صديقى »

فقال سانين ضاحكا : « لقد أخذت دفعة مقدما . وذلك أتى على

نقيض رغبة أمي قبات أن أكون مسكراً تيراً اشركة تأمين وبهذه الطريقة  
استطعت أن أظفر بشيئين : قليل من المال . واحتمار أبي «

ولما صارا في الطريق مرة أخرى قال إيفانوف : « أوه ! إني أشعر  
إني الآن أحسن وأسعد ! »

فقال سانين : « وكذلك أنا . وما قولك في أن نخضع لعالمنا ؟ »

فقال إيفانوف : « حسن جداً »

وخلعا نعالهما وجواربهما وسارا حافيين على الرمل البليل الدافئ واستلذا  
ذلك بعد أن نزعا أحذيتيها الثقيلة . وقال سانين وتنفس تنفساً عميقاً « بديع  
أليس كذلك ؟ »

وكانت الشمس قد زادت حرارتها وهما ما ضيان عن البلدة صوب  
الأفق الأزرق وكانت الأطيوار على أسلاك التلغراف ومر بهما قطار ركاب ،  
مركباته خصراء وصفراء وزرقاء ووجوه الركاب المتعبين مظلة من نوافذها  
وفي آخر مركبة منه فتانان جميلتان جعلتا تتأملان هذين الحافيين وفي  
عيونهما أمارات الدهشة فضحك منهما سانين وارتجل رقصة عنيقة .

ورأيا على كتب منهما مرجا ترناح القدم إلى السير على نجائله فقال  
إيفانوف : « ما أبدع هذا »

فقال صاحبه « إن الحياة اليوم تستحق أن تحيا » فنظر إيفانوف إلى  
سانين وخطر له أن هانه الكلمات تذكره بسارودين وبالمأساة الأخيرة  
ولكن خواطر سانين كانت على ما يظهر أسند ما تكون انصرافا عن هذا  
فعجب إيفانوف إلا أن ذلك لم يسؤه .

واجتازا المرج إلى السكة الكبرى الحاسدة بالفلاحين ومركباتهم وفتياتهم  
ثم بلغا الأنسجار ومن ورائها النهر والى ناحية أخرى الدير فأثما على تل وفوهه  
صليب يلتمع كالمجم المتوهج . وكانت حل الشاطيء زوارق موشاة  
فاستأجرا منها واحدة وكان إيفانوف يحسن الجديف فانطلق الزورق

يشق الماء ويفرق نياره وكانت المجاديف ربما لمست أعشاباً أو أغصاناً غائصة إلى قريب من رءوسها فتظل تضطرب وترتعش على سطح الماء بعد كل لمسة . وكان سانين يجدف بحدة حتى صار الماء يرغى ويزبد ويتدفع حول الدفة . وبعد لأي مابلغا مكاناً ظليلاً بليلاً وكان الماء من الصفاء بحيث يستطيع المرء أن يرى قاعه وما فيه من الحصى والأسماك فقال إيفانوف « هذا مكان يحسن أن ننزل فيه » فدفعوا الزورق إلى الشاطئ ووثبا عنه وقال سانين « ابن تجد خيراً من هذا المكان ! » وغاص إلى ركبتيه في الحشائش فقال إيفانوف « كل مكان حسن تحت الشمس » وجاء بالشراب والخبز والخضر ووضع كل ذلك على الحشائش تحت شجرة تم استلقى ركانا قد نسيا الأكواب فتساقط سانين شجرة وقطع غصناً وقور جزءاً منه اتخذه كأساً فقال إيفانوف وكان يراقب سانين باهتمام « ولنستحم بعد ذلك » فقال سانين « فكرة حسنة » وقذف الكأس في الهواء والتتبطها ثم جلسا ووقعا على الشراب والطعام ولما أصابا كفايتهما قال إيفانوف « لأستطيع أن أنتظر الآن . وسأذهب إلى الماء لأستحم » وخلع ثيابه ولما كان لا يحسن السباحة لقد اختار موضعاً قريب الغور وكان سانين يراقبه ثم نضا عنه ثيابه في بطء وهدوء واندفع إلى أعماق مكان في النهر فصاح به إيفانوف « حاذر أن تغرق » فضحك سانين وقال « لا تخف » بعد أن طفا على وجه الماء وكان الجو يتجاوب بأصواتهما الطروبة ثم خرجا من الماء ورقدا على الحشائش وهما عاريان وجعلا يتقلبان فوقها ثم صاح إيفانوف « هورا » وشرع يرقص رقصاً عنيفاً خشنا فضحك سانين ووثب إلى قدميه وانطلق يرقص مثله وكان جسماهما يلتصقان في ضوء الشمس وكل عضلة ظاهرة ثم كف إيفانوف وقال لصاحبه « تعالي وإلا شربت كل ما بقى من الفودكا » فلبسا ثيابهما وأتيا على ما بقى من الطعام والشراب وتمنى إيفانوف شربة ماء مثلجة . وقال « دعنا نعود » فراحا يعدوان بأسرع ما يستطيعان إلى الشاطئ وانحدرا إلى الزورق ودفعاه :



ثم قال سانين وكان راقداً في قاع الزورق « ألا تحس لسع الشمس ؟  
فأجابه إيفانوف « هذا نذير المطر فانهض وجدف بالله » .

فقال سانين « انك قادر على هذا وحدهك » فضرب إيفانوف الماء  
بالمجاديفين ضربة أطارت الرشاش إلى سانين فقال « أشكرك » ومرا  
بموضع تكسوه الخضرة فسمعا ضحكاً وأصوات فتيات مرحات قتال  
إيفانوف « فتيات يستحمن » فاقترح سانين « دعنا نذهب لننظر إليهن .. »  
فقال إيفانوف « ربما أبصرنا » .

أجاب سانين « كلا لن يستطعن . وفي وسعنا أن نزل هنا وأن  
ندخل بين الحشائش » فخجل إيفانوف وقال « دعهم » .  
فأجابه « تعال » فقال ! « لست أحب أن ... »  
فأجابه « لست تحب ماذا ؟ » .

فقال « انهن فتيات .. صغيرات .. ولا أظن هذا يجهل بنا » أجاب  
سانين « أنك مجنون . هل تريد أن تقول انك لاتشتهى أن تراهن ؟ »  
فقال إيفانوف « ربما كنت أشتهى ولكن » .  
أجاب سانين « إذن فلنذهب إليهن ودع عنك هذا الحياء الكاذب  
من ذا الذي لا يفعل مايفعل إذا أتاحت له الفرصة ؟ » .  
فقال إيفانوف « ولكنك إذا كنت تذهب إل هذا فلماذا لا تراقبن  
علنا ؟ لماذا تحتفني ؟ »

أجاب سانين مسروراً « لأن الاختفاء ألد وأمتع » .  
قال « ربما كان كذلك ولكني أنصح لك ... »  
أجاب « احتراماً للعفاف على ما أظن ؟ ؟ » قال « نعم » .  
أجاب « ولكن العفاف هو عين مايتقصنا » .  
فقال إيفانوف « إذا أذنبت عينك فاقلعها » .  
فصاح سانين « أوه ! أرجوك إن تكف عن هذا الكلام الفارغ  
وأن لا تكون مثل يورى . أن الله لم يعطنا عيوننا لئلقها » فباتسم

إيفانوف وهز كتفيه وقال سانين وأدار الدفة بحيث يمضي الزورق إلى الشاطئ « اسمع يا فتى ! إذا رأيت فتيات يستحممن ولم يحرك منظرهن في نفسك أية شهوة كنت في حل من أن تدعى العفاف . ومع ألى آخر من يحاكيك في ذلك فإن مثل عنك هذه تنوز عندئذ بإعجابى واحترامى ، فأما وقد فطرنا على هذه الشهوات الطبيعية فإن محاولة خنثها تكون رياء ونفاقا . »

فقال إيفانوف « إن هذا حسن ولكن إذا لم يكن تم كايح للرجبات وجماح الشهوات أفضى الأمر إلى الشر » .

فأجابه سانين متهمكا « أى شر يا ترى ؟ إن للشهوانية آثاراً سيئة أسلم لك بها ولكن هذا ذنب الشهوانية » .

فقال إيفانوف « ربما كان الأمر كذلك ولكن ... »

فقاطعته سانين قائلاً « حسن جداً إذا فهل تأتى معى ؟ »

أجاب « نعم ولكنى ... » قال سانين وهما يتسللان وسط الحشائش والأعشاب « مغفل ! هذا أنت ! اتلذذ ترفق . لا تتحدث بهذا الصوت » فقال إيفانوف بحماسة « انظر هنا ! يا أمل ! » وكان ظاهراً من الثياب والقبعات المكومة على الحشائش أن السابحات أتين من البلدة وكانت بعضهم تضرب بيدها مرحة في الماء وكانت قطراته تزل كالفضة عن أعضائهن اللينة الناعمة . وكانت إحداهن واقفة على الشاطئ طليقة وضاحكة والشمس تضاعف جمال جسمها الذى كان يهتز وهى تضحك !

فقال سانين وفتنه هذا المنظر « تأمل هذا ! »

فقرع إيفانوف متراجعا وسأله سانين « خطيبك ؟ »

فأجابه « أنها سيما كرسافينا ! »

فقال سانين : « نعم هى بعينها . ولخى لم أعرفها . ما أفتن جمالها ! »

فقال إيفانوف « نعم هى كذلك ! »

وعات الأصوات وكثر الضحك في هذه اللحظة فعلموا أن الفتيات قد سمعنهما وفرعت سينا فألقت بنفسها في الماء ولم يعدل باديها منها سوى

وجبهها الوردى وعينيهما اللامعتين . وفر سانين وصاحبه إلى الزورق وقال سانين لما بلغاه «ما أحسن أن يكون الإنسان حيا !» ومط جسمه وغنى فتجاوب الفضاء بصوته الرنان الصافى وكانت ضحكات الفتيات لاتزال نسمع فطلع إيفانوف إلى السماء وقال « ستأخذنا السماء» وأظلمت الأشجار واكفهر الأفق وارتدت الظلال الحالمكة على المروج فقال إيفانوف « يجب أن نعجل بالهرب..» فقال سانين وهو مغتبط « أين ؟ إنه لا مفر لنا الآن ! » .

وركبت الريح وزاد السكون والجهامة فقال إيفانوف « سيغمرنا المطر فأعطينى سيجارة أتسلى بها » .

وأشعل عوداً من الكبريت كان ضوءه كاييا في هذه الظلمة فثارت هبذمن الريح مباغثة فأطفأته وسقطت قطرة كبيرة في الزورق وأخرى على جبين سانين ثم هطل المطر وخشخش الأشجار وكان لالمطر وهو ينهل على النهر صوت الصفير وفتحت ميازيب السماء ولم يعد يسمع إلا صوت تدفق المطر فقال سانين « بديع هذا أليس كذلك ؟ » وحرك كتفيه وكان القميص قد لصق بهما فقال إيفانوف « ليس بالسيء جداً » وتجمع في قاع الزورق .

وما لبث المطر أن انقطع وإن كانت السحب لم تنقشع بل ظلت مكدسة وراء الغابة حيث كانت ترسل سهامها من البرق إلى حين فقال إيفانوف « يجب أن نرجع » فوافق سانين وخرجا بالزورق في وسط التيار وكانت السحب السوداء الكثيعة معاقمة فوقهما والبرق لا يكف عن الإثخان في كبد السماء . ولم يكن ثم مطر واكن الإحساس بالرعد كان شتعا في الجو وجعلت الطيور تخطف في الجو فوق سملح الماء وهى مبتلة الريش فصاح إيفانوف « هو هو ! » .

ثم نزلا وسارا على الرمال وكان الظلام قد اشتد وجعلت السحب تدنو وتسف هياذنها إلى الأرض وهبت الريح فجأة فثارت زوايع من التراب وأوراق الأشجار ثم جاجل الرعد نكأً نما انفطر كمد السماء وتعاقب البرق

والرعد فصاح سائين « أو هو ! هو هو » كأنما يريد أن يعلو صوته ضجعة الطبيعة ولكنه لم يكن يسمع حتى صوته ..

وبلغا الحقول وكان الظلام قد أسدف والبرق يضىء لهما طريقهما ولم ينقطع الرعد . فصاح سائين « أود ! ها ! هو ! » .

فسأله إيفانوف « ما هذا ؟ » .

وفي هذه اللحظة أضاء البرق فلمح إيفانوف وجه سائين وكان متوقدا هاشا ثم أضاء مرة أخرى فإذا سائين مفتوح الذراعين يناجى العاصفة ... !

- ٣٥ -

كانت الشمس مضيئة والجو ساكنا صافيا إلا أن فيه ريع الخريف وكان يورى يتمشى في الحديقة . وهو غارق في خواطره ينظر إلى السماء وإلى الأوراق الخضراء والصفراء وصفحة الماء المصقولة وكأنه يودعها ويريد أن يعلق صورها بذاكرته حتى لا يعفى عليها النسيان . وكان يحس شيئا من الكمد كأن كل ساعة تمضى بشيء ثمين لا سبيل إلى استرداده - شبابه الذى لم يغتبط به ومكانه باعتباره رجلا نافعا عظيما في العمل الذى وقف عليه كل هماته . ولم يكن يدري كيف انخلل . وكان مقتنعا بأن له قوى كامنة يسعها أن تقلب العالم وعلمنا واسعا لا يدانيه عقل سواه غير أنه لم يكن يعرف تعليلا لاقتناعه هذا وكان ينجل أن بصراح به حتى أصلق أصفياه .

وقال وهو يتأمل ظلال الأشجار فى الماء « آه ! حسن . لعل ما افعل الآن هو أحكم ما يمكن . والموت يعنى على كل شيء مهمما عاش المرء أو حاول أن يعيش . آوه ! هذه لياليا آتية ! ما أسعدك يا لياليا إنك تعيشين كالطائر من يوم إلى يوم لا تطابرين شيئا ولا ينغص عليك حياتك شيء ! ألا ليتنى أستطيع أن أحيأ حياتها ... ! » .

على أن هذا لم يكن إلا خاطراً زائلا لأنه لم يكن فى الحقيقة يتمنى

أن يعتاض من آلامه الروحية هذا الوجود الضيق الذى يتمثل فى شخصية لياليا .  
ونادته ليا « يورى ! يورى ! » بصوت عال وإن لم يكن بينهما إلا ثلاث  
خطوات وضحكت بجهت ورمت إليه برسالة وردية اللون فتوقع يورى أمراً  
وسألها بحدة « ممن ؟ » .

فقال لياليا « من سيموتشكا كرسافينة » وهزت له إصبعها .

فصار وجه يورى كالجمرة المتقدة وخيل إليه أن من الحمق إن لم يكن  
من السخافة المطبقة أن يتلقى رسالة وردية اللون معطرة عن طريق أخته .  
وكربه ذلك جداً وانطلقت لياليا وهى سائرة بجانبه تتحدث عن حبه لسيينا على  
عادة الأنحوات اللواتى يعنين معاشق إخوتهن وجعلت تصف له حبه لسيينا  
ومبلغ سرورها إذا تزوج منها وما كادت تقوه بكلمة الزواج المنحوسة حتى  
احتقن وجه يورى وطار الشر من عينيه وتمثلت له الصورة المبتدلة المألوفة  
البيت والزوجة والبنون وكان لا يفزع من شيء فزعه من أن يكون له  
بنون .

فقال بصوت حاد أذهل أخته : « كفى هراء من فضلك ! »

فأجابته مغضبة : « مالك تكبر الأمر إلى هذا الحد ؟ وماذا مهم إذا كنت  
عاشقاً ؟ إني لا أفهم لماذا تتظاهر بأنك بطل غريب ؟

وكان فى الجملة الأخيرة أثر من المكاييدة النسرية فنفذ السهم إلى القلب  
وما كادت تفرع من الكلام حتى انصرفت عنه ودخلت البيت .

فجعل يورى يراقبها والغضب يتطاير من عينيه وهو يفض غلاف  
الرسالة وكان هذا ما فيها : —

« عزيزى يورى

إذا سمح لك الوقت وآتتك الرغبة فإني أنتظر أن أراك اليوم فى كنيسة  
الدير وستكون معى عمى وستظل فى الكنيسة الوقت كله . وأخشى أن يفدحنى  
المال وبودى أن أحدثك عن شئون كثيرة . فوافنى هناك . ولعلى أخطأت فى  
الكتابة إليك ولكنى على كل حال فى انتظارك » .

فطار في لحظة واحدة كل ما كان يشغل خراطره ويكظ ذهنه وجعل يتلو الرسالة مرة بعد أخرى فرحا مسروا فقد كشفت هذه الفتاة الطاهرة الفتاة بجملة واحدة عن سر حيا له فكأنها جاءت إليه يحدودها الحب وبذلت له نفسها وأحس أن غايته دنت فأخذته الرعدة لما تصور أنه مالكةا وحاول أن يبتسم متهمكا ولكن جهده ذهب عبثا فقد شاعت الغبطة في نفسه حتى أحس أنه كالمطائر يستطيع أن يخلق فوق رؤوس الأشجار ويسبح في الهواء المشمس تحت السماء الزرقاء .

ولما همت الشمس بالمغيب اكرى مركبة إلى الدير وكان دونه النهر فركب زورقا عبره إلى الشاطئ الآخر ولم يشعر إلا وهو في عرض النهر إن سعاده مبعثها تلك الرسالة الوردية فقال يحدث نفسه : « الأمر بسيط ، لقد عاشت عمرها في دنياها هذه . وإنما لرواية غرامية ريفية . وماذا إذا كانت كذلك ؟ » .

وكان الماء يضرب جانبي الزورق في رفق وهو يدنو من التل الأخضر وما كاد يصل إليه حتى أنقذ الملاح نصف روبل ثم شرع يصعد التل وكانت الشمس قد دلفت إلى مغربها وانبسبت الظلال عند سفح المنحدر وتصاعد الضباب الكثيف فحفيت وراءه ألوان الأشجار وكان فناء الدير ساكنا جليلا والأشجار كأنها تصلى والرهبان يروحون ويغدون كالأشباح والمصابيح تضيء فوق باب الكنيسة ورائحة البخور ساطعة .

وناداه صوت من ورائه « مرحبا بك يا يورى ! » .

فالتفت فإذا شافروف وسانين وايفانوف وبير الليتش يجازون الفناء ويتحدثون بصوت عال والرهبان ينظرون إليهم وجلين - حتى الأشجار عادت وكأنما تقدمت شيئا من مسكون العبادة . فقال شافروف ودنا منه وكان يجمل يورى « لقد حضرنا جميعا » . فقال يورى : « نعم . أراكم » .

فسأله شافروف : « ألا نرافقنا ؟ » ودنا منه .

فأجابه يورى : « كلا ! أشكرك ! إني مرتبط بموعد » .  
 فصاح إيفانوف : « أوه ! هذا حسن ! سترافقتنا . إني أعرف ذلك »  
 وأمسك بذراعه . فحاول يورى أن يتخلص وصاح : « كلا ! لعن الله هذا !  
 لا أستطيع . ربما لحقت بكم فيما بعد » .  
 ولم ترقه خشونة إيفانوف . فقال هذا « حسن . سنتظرك فلا تنس أن  
 توافينا » .

فافترقوا وعادت السكينة فخميت على الفناء فخلع يورى قبعته ودخل  
 الكنيسة وبه حياء وزراية ووقعت عينه على سينا على مقربة من أحد العمدان  
 فأسرعت دقات قلبه وما كان أحلاها وأفتنها وأجل شعرها الأسود المجموع  
 إلى جيدها الأتلع وكأنما شعرته ينظرته فتلفت حولها والتفت في عينها  
 الغبطة والحياء .

فقال يورى بصوت خفيف « كيف أنت ؟ » ولم يدر أيضا فحها في  
 الكنيسة أم يمتنع عن ذلك وتلفت كثيرون من الحضور ففلق يورى بل لقد  
 خجل ولحمت سينا خجله فابتسمت له ابتسامة الأم وفي عينها نور الحب ويورى  
 واقف هناك سعيدا طائعا . ولم ترم إليه سينا بنظرة أخرى بل جعلت ترسم  
 الصليب على صدرها بحماسة وورع ولكن يورى كان على يقين من أنها  
 تفكر فيه فكان يقينه هذا بمثابة عروة سرية وثقت ما بين قلبهما فاضطربت  
 دماؤه في عروقه وبدا له كل شيء عجيبا خفي الأمر - قلب الكنيسة والترتيل  
 والأصواء وزفرات المتعبدين ووقع أقدام الداخلين والخارجين - كل ذلك  
 لاحظته يورى وكان يسمع في هذا السكون العميق نغمة قلبه وهو واقف  
 لا يتحرك وعباه قيد سينا وقدما وكأنما كان يجب أن يقول لكل إنسان  
 أنه لا يؤمن بالصلاة ولا الترتيل ولا الأصواء ولكنه مع ذلك لا يقاومها  
 فأفضى به هذا إلى التمارنة بين غبطته الحالية واكتثابة في صبيحة هذا  
 اليوم . . .

وسأل نفسه « إذا فالمرء يستطيع أن يكون سعيداً ؟ لا شك أن كل

أرائي الخاصة بالموت وعبث الحياة منطقية ولكن الإنسان يستطيع على رغمها جميعاً أن يسعد ويهنأ . وإذا كنت سعيداً فإن ذلك من فضل هذه الفتاة الجميلة التي لم أرها إلا منذ زمن قريب

ثم خطر له فجأة أنهما ربما كانا قد التقيا وهما طفلان ثم افترقا ولم يكن أحد منهما يحلم بأن سيعشق الآخر ولا بأنها ستبدل له نفسها وهي عارية مشرقة . فاحمر خدها وخاف أن ينظر إليها . وكانت سينا — التي عراها خياله — واقفة أمامه في قميصها الرمادي وقبعها المستديرة تدعو الله أن يجعل حبه لها عميقاً كحبها له ويظهر أن حشمتها العذرية وقعت من نفس يورى فقد زایلته خواطره الشهوانية وأغرورقت عيناه بالدموع فرفعهما وناحى ربه :

« رب إن كنت موجوداً فاجعل هذه العذراء تحبني واجعل حبي لها عظيماً أبداً »

ثم قال لنفسه وقد أخجلته عاطفته « ان هذا كله كلام فارغ » وهست في أذنه سينا أن « تعال » وكان صوتها كأنه الزفرة ومضيا إلى الفناء وخرجا من الباب الصغير المفضي إلى سفح الجبل ولم يكن ثم أحد فكأن السور العالى قد حجبهما عن عالم الرجال وكانت غابة البلوط تحت أرجلهما والنهر هناك يلتصق كأنه مرآة من الفضة فتقدما إلى حافة المنحدر وكلاهما يشعر أن عليه أن يفعل شيئاً ولكن الشجاعة تنقصه . ثم رفعت سينا رأسها فالتقت شفثاها وشفثا يورى فاضطربت واصفرت وهو يحتضنها وأحست لأول مرة أن جسمها الدافئ اللين بين ذراعيه . ودق ناقوس في هذا السكون فخيّل ليورى أنه إيدان بالاحتفال بهذه اللحظة التي وجد فيها كل منهما صاحبه ثم ضحككت سينا وتخلصت منه وقالت « ستعجب عمتي مني ماذا أصنع ! انتظر هنا فسأعود إليك » ولقد ظل يورى لا يدرى أقات ذلك بصوت عال تجاوبت بأصدائه الغابة أم سبحت إليه الألفاظ كالهيمسة



على أجنحة النسيم فجلس على الحشائش وسوى شعره وسمع سينا تقول :  
« إني آتية يا عمى ! »

— ٣٦ —

تجهم الأفق ثم خفى النهر وراء الضباب وحملت الريح من المراعي  
صهيل الخيل هنا وهناك وتوامضت الأضواء الضعيفة . وكان يورى جالساً  
ينتظر أن تعود سينا فجعل يعد هذه الأضواء :

« واحد . اثنان ثلاثة . آوه . أن هناك رابعاً عند طرف الأفق كأنه  
النجم الضئيل . والفلاحون جالسون حواه يصنعون طعامهم ويتحدثون .  
أما النار التي هناك فقرية عالية اللهب والخيل إلى جانبها تنفخ ولكنها ليست  
مع هذا البعد إلا شعلة ضئيلة قد تخمد أو تغيب في أية لحظة »

وصعب عليه أن يفكر في شيء ما لأن إحساسه بالسعادة والهناء  
استغرق كل مشاعره وكان ربما تتم من حين إلى حين تمتمة الغزع  
« ستعود حالاً . »

وهكذا ظل ينتظر على قبة التل ويصغى إلى الخيل وصيحات البط  
فيما وراء النهر وإلى الف شيء آخر عرضي مما يحمله إليه النسيم عن الغابة .  
ثم سمع وقع أقدام تسير وراءه وخفيف ثوب تعبت به الريح فعلم وإن  
كان لم يتلفت أنها هي قد جاءت فارتجف لما تصور ما عسى أن يحدث .  
ووقفت سينا ساكنة بجانبه وأنفاسها معلقة فأمسك بها يورى وحماها بين  
ذراعيه وسرته جرأته وانحدر بها إلى سفح التل وكاد قدمه تنزل فأسرت  
لأيه « سنقع » واحمر وجهها وهي على هذا معتبطة . وكان الظلام طاغياً  
فوضع يورى سينا وجلس إلى جانبها ولما كانت الأرض منحدرية فإنهما  
كانا كالمستلقين جنباً إلى جنب فألصق يورى فمه بفمها في قبلة عن آخر  
عاطفة وأجمحها ولم تتأوب أو تتمنع ولكنها كانت تضطرب اضطراباً  
عنيفاً .

ثم تمتمت وهي تاهت وكان صوتها خافتا كأنه همسة من الغابات : « أتخبني ؟ » .  
فَسأل يورى نفسه وهو مذهول « ماذا أنا صانع » .

فجاء هذا الخاطر كالتلج و حار كل شيء في لحظة و صار كنهار الشتاء تنقصه القوة والحياة وكانت عينا سينا تستجوبانه وتحاولان أن تستشفا من وجهه ما انطوت عليه ضاوعه فلما رأَت مخياه وتخير سحننه تراجع عنده وتخلصت من عناقه و صار صدر يورى ميدانا للعواطف المتدافعة . فأحس أن التراجع سخيف و شرع من جديد يلاطفها في فتور وضعف وهي تقاوه بمثل فتوره وبروده وعاد الموقف وليس أسخف منه في نظر يورى فأخلى سبيلها وكانت تلهث كالطريدة .

وساد سكون أليم ثم قال فجأه : « عنوا ... لا بد أنى جننت ! » .  
فأسرعت أنفاسها وخطر له أنه لم يكن ينبغى أن يقول هذا الكلام الذى لا بد أن يكون قد ألمها وجرح نفسها فأخذ على غير إرادته يعتمدر بما يعلم أنه كاذب مزيف ولم تكن له إلا رغبة واحدة هى أن يعود أدراجه لأن الموقف صار لا يحتمل .

ويظهر أنها لمحت ذلك فقد قالت : « ينبغى ... أن أذهب » .

فهنضا ولم ينظر أحد منهما إلى صاحبه وحاول يورى للحررة الأخيرة أن يوقظ نائمة إحساساته فعانقها عنقا فاترا فتمحركت في نفسها عاطفة الأمومة وكأما أحست أنها أقوى منه فدنت منه ولصقت بصدرة ونظرت إلى عينيه وابتسمت ابتسامة رقيقة عذبة وقالت : « عم مساء . تعال إلى غدا » ثم طمعت على فمه قبابة حارة أذهلت يورى ودار لها رأسه ووقف منها موقف العابد من ربه .  
ولما انصرفت عنه ظل برهة طويلا يصغى إلى وقع قدميهما ثم التقط قبعبته ونفض عنها أوراق الشجر الداوية قبل أن يضعها على رأسه ومغضى إلى الدير من طريق طويل تنادا من لقاء سينا .

وقال لنفسه : « آه ! ألا بد لى من تدبيس هذه الفتاة الطاهرة البقية ؟

أينتهى الأمر بأن أفعل ما يفعله أى رجل غيرى من الأوساط ؟ بارك الله فيها ! إن هذا يكون نخسة ودناءة . ويسرنى أنى لم أهو إلى هذا الخضيض . وما أفضح ذلك ! فى لحظة واحدة.. بدون كلام ... يتقاب الانسان حيوانا !» .

وهكذا كن يفكر مسمتزا مما كان قبل لحظة مبعث سرور وقوة له . وتنازعه الإحساس بالحجل والسخط - حتى رجلاه كان يجرحهما وحتى قبعته كانت على رأسه وكأنها على رأس ممرور أبله .

ثم سأل نفسه يائسا : « وبعد فهل أنا فى الحقيقة كفاء للحياة ؟ » .

- ٣٧ -

كان الممر المفضى إلى الدير يفوح برائحة البخور والحبز ولح يورى راهبا قويا نشيطا وفى يده وعاء فصاح به يورى : « أيها الأب ! » واضطرب لمخاطبته بهذه العبارة وظن الراهب سيحار مثله ويرتبك .

فسأله الراهب بأدب وكانت بينهما سحب من البخور : « ماذا تبغى ؟ » . فقال يورى : « أليس هنا طائفة من الزوار آتون من المدينة ؟ » . فأجابه الراهب على الفور كأما كان يتوقع هذا السؤال : « نعم فى رقم ٧ » .

فتفتح يورى الباب فألقى غرفة يتلوى فى جوها دخان الطبايق ورأى ضوءا قريبا من شرفتيها وسمع أصوات الكؤوس والشاربين وضحكاتهم وكان شافروف يتكلم ويقول : « إن الحياة داء عياء » . فصاح به إيفانوف : « وأنت مغفل لا شفاء لك ! ألا تستطيع أن تكف عن صوغك الأبدى لهذه العبارات السخيفة ؟ » .

ودخل يورى فاستقبلوه بأعظم الترحيب وأصخبه ووئب شافروف إلى قدميه وكاد يجر غطاء المائدة عنها وهو يصافح يورى ويقول له : « ما أعظم سرورى بمضورك ! الحق أن هذا فضل كبير منك ! أشكرك كثيرا » .

فجلس يورى بين سانين وبيتر الليتش وجعل ينظر حوله وكان فى الشرفة مصباحان مضيئان وكأنا وراءهما من الظلمة جدار ولكنه مع ذلك استطاع أن يرى النجوم تومض فى قبة السماء وأن يلمح الجبل عند الأفق ورعوس الأشجار العالية وسطح الماء اللامع وكانت الفراشات تأتي من الغاب وتدور بالمصباح ثم تسقط على المائدة وتموت موتا بطيئا فقال يورى لنفسه وكأنه يرثى لمصرع هذه الفراشات « ونحن أيضا كهذه الفراشات نرتدى على النار ونحوم حول كل فكرة براقة لتتضح نخبنا آخر الأمر ونتوهم أن الفكرة هى مظهر لإرادة الحياة على حين ليست إلا النار التى تذيب عقولنا » .

فقال سانين ومد إليه يده بالزجاجة : « والآن فلتشرب » .

فقال يورى : « بكل سرور » وخطر له أن هذا يكاد يكون خير ما يسهه أن يصنع بل هو فى الواقع كل ما بتى عليه أن يفعله .

فشربوا جميعا وكان مذاق الفودكا فى فم يورى بشعاً حاراً مرا كالسهم فعالجه بالخضر ولكن هذه أيضا لم تكن أحسن طعما فلم يسغها حلقه . وقال لنفسه : « كلا ! سواء على الموت وسيبريا إنما المهم أن أزيل هذا المكان كله ! ولكن أين أذهب ؟ إن الحياة سواء فى كل مكان ولا مهرب لى من نفسى ومتى شرع المرء يفكر فى الحياة فأخلق بها أن لا تعود أى صورة منها مرضية سواء أعاش فى جحر كهذا أم فى بطرسبرج » .

وقال شافروف : « إنى أرى أن الإنسان لاشىء من حيث هو فرد » .

فنظر يورى إلى وجهه الغبى وعينيه المتعبتين الصغيرتين الباديتين من وراء النظارة وقال لنفسه إن مثل هذا لاشىء فى الحقيقة . ودضى شافروف فقال : « إن الفرد صفر وما يرزق القوة الحقيقية إلا الذين يخرجون من صنوف الجماهير ولا يفقدون الاتصال بها ولا يقاومونها كما يفعل أبطال الطبقات الوسطى » .

فسأله إيفانوف بلهجة المتحفز : « وفي أي شيء تكون قوتهم من فضلك؟  
 أتظهر قوتهم في محاربة الحكومة الفعلية؟ ربما؟ ! ولكن كيف تساعدهم  
 الجماهير في جهادهم في سبيل السعادة الشخصية؟ » . فقال شافروف :  
 « آه ! هذا أنت ! إنك رجل ضخم من طراز السوبرمان . ولذلك تنشده  
 نوعاً من السعادة يلائمك ولكننا نحن الأوساط نرى أن جهادنا في سبيل  
 الغير هو السعادة . انتصار الفكرة هو قوام السعادة ! » .  
 فسأله إيفانوف : « وهب الفكرة كانت خطأ » .

فقال شافروف : « هذا لا يهم ! إن الإيمان هو كل شيء » . وهز رأسه  
 معانداً . فقال إيفانوف بازدراء : « باه ! إن كل امرئ يعتمد أن عمله أهم  
 عمل وأن الدنيا لا يسعها الاستغناء عنه - حتى حائك ثياب السيدات يظن  
 ذلك ويتوهمه ! وأنت تعلم هذا حتى العالم وإن كنت قد نسيت على ما يظهر  
 وإذا كنت صديقاً لك فليس يسعني إلا أن أذكرك ! » .

- فنظر يورى إلى إيفانوف نظرة البغض والمقت وسأله بلهجة  
 الزرارية : « وما هو قوام السعادة في رأيك؟ » .

فقال إيفانوف : « إن قوامها على التحقيق ليس الزفرات والأناث  
 التي لا آخر لها ولا التساؤل الذي لا ينتهي كأن يظل المرء حياته يقول :  
 « لقد عطست الآن . فهل كان هذا صواباً؟ أليس ذلك خليقاً أن  
 يضر بعضهم؟ هل أديت واجبي وقت بمهمتي إذ عطست؟ » . فغاظ  
 يورى أن يلمح أن إيفانوف يظن نفسه أذكى منه وأنه يتضحك به  
 فأجابه :

« إن هذا ليس برنامجاً » وحمل لهجته ما استطاع من الازدراء .

فقال إيفانوف : « أباك حقاً حاجة إلى برنامج؟ إنى إذا شئت واستطعت  
 أن أفعل شيئاً فعلته . هذا هو برنامجي » . فقال شافروف بحدة  
 « ما أجمله من برنامج ! » وهو يورى كنفية ولم يجب .

وظلوا لحظة أخرى يشربون في صمت ثم التفت يورى إلى سانين وشرع يتشرح له آراهه في الله تعالى وكان يقصد إلى إسماع إيفانوف مايقول وإن لم ينظر إليه . وكان شافروف يصغى باحترام وحماسة . أما إيفانوف فأولاه ظهره وجعل يقول بعد كل بيان يلقيه يورى : « لقد سمعنا هذا من قبل ! » .

فتدخل سانين في آخر الأمر وقال لإيفانوف :

« أرجوك أن تكف عن هذا ! ألا ترى أن تكريرك عبارتك هذه ممل جداً ؟ إن لكل إنسان الحق في إبداء رأيه والجرية في اعتناقه » :  
ثم أشعل سيجارة وخرج إلى القناء فخفض سكون الليل من حرارة جسمه وكان القمر قد طلع من وراء الغابة وأراق ضوءه السلس اللين على عالم الظلام تم سمع وقع أقدام عاربه على الحشائش ورأى غلاماً يخرج من الظلام فسأله : « ماذا تريد ؟ »

فقال الغلام : « إني أبحث عن المدموازيل كرسافينا المدرسة » .

فسأله سانين : « لماذا؟ » وذكر سانين منظرها وهى عارية على حافة النهر ونور الشمس يغمر جسمها . فقال الغلام : « إن معى رسالة إليها » . فقال سانين : « اها ! لا بد أنها هناك عند المدر لأنها ليست هنا فاذهب إلى هناك » .

فضى الغلام وغاب في الظلام وتبعه سانين في بطء وهو ينشق النسيم الرقيق الخواشى ويكرع منه كرعاً وسار حتى دنا من المسكن وصار الضوء المرسل من النافذة على وجهه الهادى المفكر فدمح سينا عند النافذة واقفة في ثياب النوم وعلى كتفها المستدير الرقيق نور المصباح وكانت غارقة في خواطرها ويظهر أنها كانت سارة إلا أن فيها ماتستحى منه فقد كانت أجفانها تختلج وعلى شفيتها ابتسامة مرتسمة فرأى فيها سانين ابتسامة العذراء الناضجة الماتية لقبابة ساحرة طويلة . فوقف جامداً مكانه وجعل يحدق فيها . وكانت سيدا تفكر فيما مر بها في يومها وفي تجاربها التي سرتها وأثارت على هذا حياءها وخجائها فقالت لتفمنها : « يا إلهى ! أو قد هويت إلى هذا

الدرك؟» ثم ذكرت للمرة المائة مافازت به من الغبطة وهى بين ذراعى يورى وهمسه « واحبيبتاه ! » ولحظ سانين اختلاج جفونها مرة أخرى وابتسامتها ولم تشأ أن تفكر فيما تلا ذلك مما دفعت إليه العاطفة الجامحة . ودق الباب فسألت سينا : « من الطارق ؟ » - ورأى سانين جيدها الناصع الرقيق كأوضح مايكون - فقال الغلام : « هذا خطاب إليك » .

ففتحت سينا الباب ودخل الغلام وقدماه تحملان طوائف شتى من الأوحال ونزع قبعته عن رأسه وقال : « قد أرسلتني سيدتى » .  
فمنضت سينا الرسالة وقرأت : « عزيزتى سينرتشكا ! إذا استطعت فاحضرى الليلة فقد جاء المفتش وسيزور مدرستنا غدا صباحاً ولا يحسن أن تكونى غير موجودة » . فسألتها عمتها « ماذا ؟ » فقالت سينا : « قد أرسلت ديبوفا فى طلبى لأن المفتش حضر » . وحك الغلام قدميه وقال : « لغد أمرتنى أن أرجوك أن تبادرى إلى الذهاب » فسألتها عمتها : « أذهبية أنت ؟ » .

أجاب : « كيف أذهب وحدى فى الظلام ؟ » .  
فقال الغلام : « إن القمر فى كبد السماء والليل منير » .  
فقالت سينا مترددة : « لا بد لى من الذهاب » .  
فقالت عمتها : « نعم نعم . اذهبى لتلا يحدث مالا تحبين ؟ »  
فهزت سينا رأسها وقالت : « حسن سأذهب إذآ » .  
ولبست ثيابها ووضعت قبعتها على رأسها وودعت عمتها والتفتت إلى الغلام وقال : « أو عائد معى أنت ؟ » فأطرق الغلام وارتيك وحك قدميه وقال : « لقد حضرت لأبقى مع أمى الليلة وهى تغسل ثياب الرهان هنا » .

فقالت سينا : « واكن كيف أذهب وحدى ؟ » .  
فأجابها الغلام : « حسن جداً . فلنذهب معاً » .  
وخرجا إلى الظلام فقالت : « ما أبدعه من منظر ! » .

ثم ما عتصمت أن نددت عنها صرخة إذ اصطدمت بإنسان في الظلام .  
فقال سانين ضاحكا : « إنه أنا » .

هدت سينا إليه يدها المرتجفة وقالت على سبيل الاعتذار : « إن الظلام طاخ  
لا تنفذ فيه العين » . فسألها سانين : « أين تذهبين ؟ » .  
أجابت : « إلى المدينة فقد أرسلوا في طلبى » .

قال : « وحدك ؟ » . أجابت : « كلا ! معى الغلام وهو الليلة فارسى » .  
فقال الغلام ضاحكا : « فارس ! هاها ! » .

وسألته سينا : « وماذا كمت أنت تصنع هنا ؟ » فقال سانين : « كنا  
نشرب قليلا » : فسألته سينا . « قلت « كنا » فمن هم ؟ » .  
أجاب : « نعم . شافروف ويورى وإيفانوف و... » .  
فقال سينا : « أوه ! وهل يورى معك ؟ » واحمر وجهها وسرت في  
جسمها لذكر اسمه هزة جعلتها تحس كأنها واقفة على حرف هاوية . فسألها  
سانين : « لماذا تسألين ؟ » .

فمأنت وزاد خجلها « لأنى . . . قا ! . . . قابله . والآن إلى الملتقى ! » .  
فصافح سانين اليد الممدودة إليه وقال : « إذا شئت فإنى مستعد أن أحملك فى  
زورقى إلى الشاطىء الآخر . لماذا تقطعين كل هذه الدورة على قدميك ؟ » .  
فقال سينا : « كلا ! لا تتعب نفسك من مضلك ! » وقال الغلام :  
« دعيه بالله يفعل فإن الشاطىء كله أوحال تعوض فيه الرجل إلى الركبة » .  
فقال : « حسن إدا . ولتذهب إلى أمك الآن » .

فسألها الغلام « ألا قىافين أن تجتازى الحقول وحدك ؟ » .  
فأجاب سانين : « سأرافقها إلى البلدة » .  
فسألته سينا : « ولكن ماذا عسى أن يقول اخوانك ؟ » .  
فأجابها : « هذا لا يهم ! سيظنون إلى الفجر على كل حال . وحسبى ما عانته  
من الملل إلى الآن » .



فقالت : « إن هذه منة أحفظها لك - اذهب يا جريشكا » .

فقال سانين : « امسكى بذراعى وإلا تعثرت » .

فلفت سينا ذراعها بذراعه وخالجهما إحساس غريب لما لمست عضلاته الحديدية وكنا مضيا في الظلام وانخرقا الغابة إلى النهر وكان الليل في الغابة أسحم طائخيا كأنما لفت كل الأشجار في ضباب دائىء لاتنفذ العين منه .  
فقالت : « ما أشد الظلام ! » .

فهمس سانين في أذنها وكان صوته يرجف قليلا : « هذا لايمهم ! إني أحب السرى في الغابات لأن المرء حينئذ ينضوعه ثوب الرياء ويعود أجراً وأمتع » .  
وكانت سينا تجد صعوبة في السير وشاع في جسمها الاضطراب للمامستها في هذه الظلمة جسم سانين القوى المتين الذى كان يجذبها أبداً واحمر وجهها وعاد كالجمرة المضطربة وأعداها سانين بحرارة جسمه فصار ضحكها متكلفاً لا ينقطع . وكان الظلام أخف عند سفح التل والقمر يريق ضوءه على صفحة الغدير والنسيم البليل يصافح خلبها وأخذت الغابة تنأى عنهما وتغيب في الظلام كأنما أسامتها إلى النهر .

فقالت : « أين زورقك ؟ » . أجاب . « هذا هو » .

ثم أخذوا مقعدهما فيه واكسبها القمر والتماع الماء وضاعة وروعة ودفع سانين الزورق فانطلق يفرق الماء ويعوم على ضوء القمر مخلقا وراءه خطا طويلا .

فقالت سينا وأحست فجأة قوة لاتغالب : « دعنى أجذف فىنى أحب ذلك » .  
أجاب : « إذا فاجلسى هنا » ووقف هو في وسط الزورق . فاحتكت به وهى تنتقل إلى مكانها الجديده ولمست بأطراف أصابعها يده الممدودة إليها لمساعدتها وبدت أمامه في حسنها الرائع . وهكذا سبحا على متن الغدير . والقمر يرسل أشعته على وجهها الباهت وحاجبها السوداوين وعميها البراقطين فخيّل لسانين أنهما مقبلان على أرض مسحورة منعزلة عن الناس بعيدة عن مناظهم خارجة عن دائرة القانون والعقل الإنسانى :

وقالت سينا « ما أحمل هذه الالباب ! » .

فقال بصوت خفيض : « نعم أليست كذلك ! » .

فانفجرت ضاحكة وقالت : « لا أدري كيف هذا ولكنى أحس رغبة

شديدة فى أن التقي بقبعى فى الماء وارسل شعرى » .

فقال سانين : « إذا فعلى » .

ولكنها قلقت وصمتت . وكرت خواطرها إلى ما مر بها فى يومها من التجاريب وخيل لها أن من المستحيل أن لا يكون سانين عارفا بما جرى فزاد هذا الظن فى حدة سرورها ونازعها نفسها أن تقول له أنها ليست دائماً ساكنة حبية محتشمة وأنها أحياناً تلقى عن وجهها قناع الرياء وتعود شخصاً آخر مختلفاً جداً .

وسأته بصوت مضطرب : « هل عرفت يورى منذ زمن طويل ؟ » . أجاب

« كلا ! لماذا تسألين ؟ » .

قالت : « مجرد سؤال . ألا تظنه ذكياً ؟ » .

وكانت فى صوتها نبرة حياء صيباني كأنما كانت تريد أن تنتزع شيئاً من

هو أسن منها ومن له أن يلاطفها أو يعاقبها .

فابتسم سانين لها وهو يقول : « نعم ! » . وعلمت سينا من صوته أنه يبتسم

فزاد حياؤها وقالت : « إنه حقيقة ذكى ... ولكنه شقى على ما يظهر ! » . فأجابها

سانين : « ربما كان الأمر كما تصفين . فأما شقاؤه فلا شك فيه . وهل أنت

أسفة له ؟ » .

فقالت سينا بدلال متكلف : « نعم بلا شك » .

فقال سانين : « هذا طبيعى ولكن للشقاء معنى عندك غير معناه الحقيقى .

إنك تظنين أن الرجل الساخط الذى لا ينفك يحال ويشرح حالته النفسية وأعماله

— مثل هذا الرجل تظنينه لاشقياً مسكيناً بل تحسبينه قوة وشخصية نادرة فائدة .

لأنك تتوهمين أن هذا التحليل المستمر من شأنه أن يخول المرء أن يظن نفسه

أرقى من سواه وأحق بالعطف والحب والإجلال » .

فسألته سينا : « حسن ولكن ماذا هو إذا لم يكن كذلك ؟ » .

ولم تكن قد كلمت سائين طويلا من قبل . وكانت تسمع أنه قد فريد في بابه فوجدت لذة في ملاقاته مثل هذه الشخصية الجديدة الممتعة وضحك سائين وقال : « مضى زمن كان الإنسان فيه يعيش عيشة الوحش ولا يحمل نفسه تبعه أعماله أو إحساساته ، ثم تلا ذلك عهد الحياة المحسة المدركة فبالغ الإنسان في مفتحتها في تقدير عواطفه وحاجاته ورغباته . وهنا عند هذا الطور - يقف يورى فهو آخر « الموهيكان » - آخر من يمثل عصرا من النشوء الإنساني مضى وانقضى ولا سبيل إلى عوده . وكأنه قد أشرب خلاصة ذلك العصر فتسممت روحه . فهو لا يحيا حياته في الحقيقة . يسائل نفسه عن كل عمل وكل فكرة « هل أحسنت ؟ هل أسأت ؟ » . وهذا غاية السخف . وهو في السياسة لا يدري هل يليق بكرامته أن يقف في صف مع الآخرين أم لا يليق وإذا نفض يده من الاشتغال بالسياسة عاد يعجب لنفسه أليس اعتزاله إياها مهانة له وأمثاله كثير ، وإذا كان يورى شاذاً فذلك راجع إلى أنه أذكى » .

فقالت سينا بخنجر : « لم أفهم مرادك تماما . إنك تتكلم عن يورى كأنه هو الموم عن كونه كذلك . وإذا كانت الحياة عاجزة عن إرضاء رجل فهذا الرجل لا بد أن يكون فوق الحياة » .

فأجابها سائين : « إن الإنسان لا يمكن أن يكون فوق الحياة لأنه ليس إلا جزءا منها . وقد يسخط ولكن مرجع السخط إلى نفسه . فهو إما لا يستطيع أو لا يحروء على أن يأخذ من كنوز الحياة ما يسد حاجته . ومن الناس من يقضون حياتهم في السجون . وهناك غيرهم آخرون يخافون أن يفروا منها كالطائر الأسير يفرق من الطيران إذ يطاق له .. والجسم والروح معا يكونان كلا متجاوبا لا يزعه إلى دنو الموت الرهيب ولكننا نحن الذين نقضى على هذا التلاثم بسوء فكرتنا عن الحياة . فقد زعمنا أن رعباتنا الطبيعية حيوانية وصرنا نحس العار والحجل منها ونخفيها في صور

وضيعة . والضعاف منا لا يفطنون لهذا بل يقطعون حياتهم في الأغلال المضروبة عليهم . أما الضحايا فأولئك الذين تقعد بهم آراؤهم المقلوبة . ولا شك أن القموى المحبوسة تتطلب منغذا وأن الجسم ينشد السرور واللذة وأنه يتعذب من جراء عجزه وقصوره . فهؤلاء وأمثالهم حياتهم صراع دائم وشك مستمر يتعلقون بكل ما يتقدرون أن يعينهم وينقضى بهم إلى نظرية أخلاقية أحدث وأجد ولا يزالون كذلك حتى يعودون وهم يخافون أن يعيشوا وأن يحسوا . فقالت سينا مبهجة : « نعم نعم » . وغزت رأسها كتائب من الحواطر الجديدة وتلفتت حولها وعينها تضيء وتغلغل إلى أعماق نفسها جمال الليل وحسن الغدير الساكن والغابات الحاملة وعاودها الشوق إلى تجربة القوة التي تؤتيها السرور .

ومضى سانين في كلامه فقال : « إني أبدأ أحلم بعصر ذهبي لا يحول فيه شيء بين الإنسان وسعادته فيبشركل ما يستطيع من المتع في جرة وحرية . فسأته سينا : « ولكن كيف يصنع ذلك ؟ أبالرجوع إلى الهمجية ؟ » . قال : « كلا . إن العصر الذي كان فيه الإنسان وحشا كان عصرا منحوسا . وعصرنا الحاضر الذي يتحكم فيه العقل في الجسم يخفيه عصر تنتصه الهمة والرشد . ولكن الإنسان لم يعيش عبثا فقد خلقت له حياته حالات جديدة لا تدع مجالا لخشونة الهمجية ولللهبانية » .

فسألته : « وماذا عن الحب ؟ الا يفرض علينا قيودا ؟ » . فقال : « كلا ! إن الحب إذا كان يفرض قيودا مؤلمة فذلك من جراء الغيرة . والغيرة نتيجة العبودية . والرق في أى صورة ضار وينبغي للناس أن يستمتعوا ما يتيح لهم الحب بلا خوف ولا قيد فإذا فعلوا عاد الحب أمتع وأحفل في كل صورة وأكثر تأثرا بالمصادفات والفرص » . فقالت لنفسها : « لم يخالني أى خوف في هذه اللحظة » ثم نظرت فجأة إلى سانين نظرة من يراه لأول مرة وكان جالسا أمامها أسود العينين عريض الكتفين يشوق الناظر إليه ويروق فقالت لنفسها « ما أحمله ! » .

وبدا لعينها عالم بأسره من القوى والعواطف فهل تدخله؟ فابتسمت لهذا الخاطر وهي ترتجف ولا بد أن يكون سائين قد أدرك ما يجول في خاطرها فقد أسرعت أنفاسه وعاد وكأنه يلهث . ومر الزورق بنقطة يضيق فيها مجرى النهر فتلق المجدافان بالأعشاب وأفلتا من كفيها فقالت : « لا أستطيع أن أجدف هنا إن المجرى ضيق » وكان صوتها رقيقاً منغماً كخزير الماء . فوقف سائين وسار إليها فسألته وهي فزعة : « ماذا؟ » . فقال : « لاشيء لاني أريد . . . » .

فوقفت مثله وحاولت أن تصل إلى الدفة واضطرب الزورق اضطراباً عنيفاً ففقدت توازنها ومالت إلى سائين وأمسكت به ووقعت بين ذراعيه . وفي هذه اللحظة - وبدون أن يجرى في خاطرها أن هذا ممكن - أطالت التصاقها به فاندلعت النار في دماء سائين وخرجت من بين شفتيه آهة دهشة وسرور واحتضنها وردها إلى الوراء حتى سقطت قبعها وزاد اضطراب الزورق فصاحت به : « ماذا تصنع؟ دعني بالله ! ماذا تصنع؟ » وكان صوتها ضعيفاً خافتاً . وحاولت أن تتخلص من ذراعيه الحديديتين ولكن سائين ضم صدرها إليه ضمها أزال ما كان بينهما من الحواجز .

ولم يكن حولهما إلا الظلام . وإلارائحة النهر والأعشاب البليلة . وجو يسخن تارة ويبرد أخرى وسكون عميق ثم فقدت فجأة وهي لا تدري كل إرادة لها أو فسكرة فتراخت أعضاؤها وأسلمت نفسها لإرادة غيرها .

أفاقت سينا أخيراً فأبصرت صورة القمر الوضاء ترسمه على صفحة الماء ووجه سائين مكباً عليها بعينه اللامعتين وأحست أن ذراعيه حولها خاضعتها وأن أحد المجدافين يحك ركبها .

ثم طفقت تبكي بكاءً رقيقاً ملحاً دون أن تحاول التخلص من عناق سائين وكان بكاءها على ذلك الذي لا يبرد ودموعها دموع الخوف والمرثية

لنفسها والحب له . فرفعهما سانين . ووضعها على ركبته وهي مستسلمة له كالطفل وكانت تسمعه يرفه عنها بلهجة الواثق الشاكر وكأنها تحلم . فقالت لنفسها : « سأغرق نفسي » وكأنما كان هذا الخاطر جواباً على سؤال شخص ثالث يقول لها : « ماذا صنعت ؟ وماذا تنوين أن تصنعى الآن ؟ »

ثم سألت سانين بصوت عال : « ماذا أصنع الآن ؟ » فأجابها سانين : « سئري » فحاولت أن تنهض عن ركبته ولكنه أمسك بها فبقيت في مكانها وهي تعجب كيف لا تشعر له بمقت أو اشمئزاز وحدثت نفسها إن لم يعد يعينها ما عسى أن يحدث ونخالجها شعور خفي بالعجب . لهذا الرجل القوى الأجنبي الحبيب ماذا ينوى أن يصنع بها .

وبعد برهة تناول سانين الخدافين واستلقت هي إلى جانبه وعيناها مغمضتان وجسمها يضطرب كلما لامست يده صايرها وهو يجدف ولما بلغ الزورق الشاطئ فتحت عينيها فأبصرت الحمول والماء والضباب والقمر باهتاً كالشبح بهم بالفرار من الفجر وكان الفجر قد تنفس وهب النسيم بارداً فسألها سانين : « هل أذهب معك ؟ » فقالت : « كلا . إنى أفضل أن أمضى وحدي » فحملها سانين وسره أن يحملها فقد كان يحس أنه يحبها وأنه مدين لها بالشكر ووضعها على الشاطئ بعد أن ضمها وقال : « يالك من حسناء ! » فابتسمت ابتسامة الزهو . وتناول سانين يديها وجانها إليه وقال : « قبليني » فقالت لنفسها وهي تطبع على فمه قبلة طويلة : « لا يهم الآن ! إن كل شيء لا يهم ! » وهمست في أذنه : « إلى الملتقى » وهي لا تكاد تسري ما تقول فناشدها سانين أن : « لاتغضبي على يا فتاتي ! » وجعل يراقبها وهي تصعد الشاطئ مترنحة متطرحة وهو يرث لها وأحزنها ما هو مذخور لها من الآلام التي لا ضرورة إليها والتي لا قبل لها باحثها وكانت تسير في بطء إلى مطلع الفجر ولم تلبث أن لفها الضباب في شملته البيضاء .

ولما خفيت عن عينه وثب سانين إلى الزورق وجلد المساء بمجدافيه

فأرغاه واندفع به الزورق حتى توسط النهر وكان ضباب الفجر قد غشى ما حوله فترك المحذافين ووقف في وسط الزورق وأطلق صيحة فرح عالية فتجاوبت بصيحته الغابات والضباب كأنما كانت حية مثله .

— ٣٩ —

نامت سينا كأن ضربة أصابتها ولكنها بكرت في القيام وكانت مهدودة القوى بادرة الجسم كالجننة . ولم يلم بأسها لحظة ولم تستطع أن تنسى ما حدث فجعلت وهي حزينة صامئة تفحص ما في الغرفة كأنما تريد أن ترى هل لحن شيئاً تغيير ولكن كل شيء كان على العهد به وكانت ديبوفا على السرير الثاني مستغرقة في نومها وليس غير الثوب الملقى على كرسي بدون احتفال يقص عليها قصتها . وزاد وجهها اصفرارا وأحضرت لدهنها كل ما مر بها ثم نهضت ولبست ثيابها وجلست إلى النافذة تنظر إلى الحديقة وكان رأسها يموج بالخواطر المضطربة المهمة كاللدخان إذ تعبت به الريح . ثم استيقظت ديبوفا فجأة وقالت : « ماذا ؟ أوقد قت ؟ ما أعجب هذا ؟ » .

وكانت لما حضرت سينا صباحا قد سألتها والنوم يغالبها :

« كيف استطعت أن تحضري في هذه الليلة ؟ » ثم نامت ولم تنتظر الجواب ولكنها لما تبينت الآن أن في الأمر شيئاً أسرعت حافية وسألتها « ما الخبر ؟ أمريضة أنت ؟ » فقالت سينا وعلى شففتها الورديتين ابتسامة : « لا لا ! ولكني لم أذق النوم » .

وهكذا نظقت بأول اكذوبة أحالت عنديتها الصريحة المزهوة ذكرى وجعلت تنظر إلى ديبوفا وهي تلبس ثيابها فبدت لها نفية وضاعة ورأت نفسها بغیضة كالأفعى وبلغ من ذلك أن خيل لها أن الجانب الذي كانت ديبوفا واقفة فيه مشمس ضاح على حين بدا لها ركنها مغموراً بالظلام . ولكن ذلك كله كان مكتوماً ولم يكن ظاهرها الطاهر ينم على شيء ثم لبست حلتها وقبعتها

وتناولت مظلماً وذهبت إلى المدرسة جندلة على عاداتها وبقية ثم إلى الظهر ثم عادت وقابلت في الطريق ليذا فوقفتا تتحدثان عن أمور تافهة كثيرة وكانت ليذا تمتعت سينا لظننا أنها سعيدة حرة فارغة القلب من الهموم على حين كانت سينا تنفس على ليذا حياتها السلسلة الممتعة وكانت كل منهما تعتقد أنها ذاهبة ضحية الظلم وتقول لنفسها: « إني ولا شك خير منها فلماذا تسعد وأشقى ؟ » .

وتناولت سينا بعد الغداء كتاباً وجلست قرب النافذة تقرأ وكانت ساعة الانفعال قد انقضت فصارت الآن لا تحفل بشيء وجعلت تردد من حين إلى حين : « آه ! لقد قضى الأمر . وخير لي أن أموت » . ورأت سانين قبل أن يراها وكان ساثراً صوبها يخرق الحديدية وينحى عنه الأغصان المتهدلة كأنما تريد أن تحييه بلمسها فاضطجعت في كرسيها وجعلت ترقبه بعينين شاردين . وقال ومد إليها يده : « عمى صباحاً » . وقبل أن تستطيع أن تنهض أو تفيق من دهشتها حياها مرة أخرى بصوت رقيق فتمتمت : « عم صباحاً » فقال إلى النافذة واتكأ عليها وقال : « تعالى إلى الحديدية برهة نتحدث » . فنهضت تدفعها قوة سلبتها لإرادتها وقال سانين : « سأنتظرك هناك » فلم تزد على أن هزت رأسها .

وكانت سينا تشفق من النظر إليه وهو يتراجع إلى الحديدية فظلت بضع ثوان جامدة في مكانها ويداها متصافقتان ثم خرجت وكان سانين واقفاً ينتظرها في بعض جهات الحديدية فأقلقها ابتسامته فتناول كفها وجلس على جذع شجرة وجذبها برفق إلى حجره وقال : « لست واثقا من أنه كان يابق بي أن أحضر لأنني أخشى أن تظني أنني أسأت إليك ولكنني لم أستطع البقاء بعيداً عنك وأريد أن أشرح لك بعض الأمور حتى لاتذهبي إلى مقبي وكرهى . وبعد ... فإذا كنت أستطيع أن أفعل غير ما فعلت ؟ كيف كان يسعى أن أقاوم ؟ لقد مرت بي لحظة شعرت فيها أن كل حاجز بيننا تداعي وأن إذا أفلتتني هذه اللحظة فلن تعود وأنت رائحة الجمال وضحية



الشباب . . . » وكانت سينا صامته وأذنها الرقيقة الشفافة يغطيها شعرها إلا أقلها فاحرت واختلجت أهداب أجفانها فقال سانين : « إنك شقية الآن . أما البارحة فما كان أجمل كل شيء ! وإنما نشأ الأحزان لأن الإنسان فرض نمنا لسعادته ولو أن أسلوب حياتنا كان مختلفا لبقيت ليلتنا هذه في ذاكرتنا أنفس ماجربناه وأجمل ما استمتعنا به » . فقالت : « نعم لو أن ... » ثم اتسمت فجأة فأنمئتها اسمها التي لم تكن مقدرة ولكن ذلك لم يطل إلا برهة . ثم تراءت لها حياتها المستقبلية تكتنفها الأحزان والعار فأثارت في نفسها هذه الصورة الحقد والمقت وقالت بحدة : « اذهب عنى ! دعنى ! » . وصرت أسنانها وتصلب وجهها ونطق بالبغض وهي تنهض .

فرق لها قلب سانين ونازعته نفسه هنيئة أن يعرض عليها اسمه وحمائته ولكن شيئا صده وصرفه وأحس أن مثل هذا الإصلاح لما أفسد أحط وأسفل من أن يعالج . ثم قال : « إنى أعلم أنك تحبين يورى فلعل هذا مايكربك ؟ » . فتمتمت سينا وشدت كفها على كف : « لست بعاشقة أحد » . فقال سانين مستعظما : « لاتحملى لى ضغنا . إنك كما كنت جمالا وحسنا وقدرة على إيتاء يورى ما أوليتنى إياه من السعادة وإنى لأتمنى لك من أعماق قلبي كل غبطة ميسورة ونعمة ممكنة وسأتمثلك دائما كما رأيتك البارحة . فالوداع وابعثى فى طلبى إذا احتجت إلى . واعلمى أن حياتى مبدولة لك إذا أردت » . فنظرت إليه سينا وهى صامته وأحست عظما عجيبا وقالت لنفسها : « من يدرى ؟ ربما استقامت الأمور » . وتجرد المستقبل من البشاعة فى نظرها ووقف الاثنان وجها لوجه وهما يعلمان أن فى صدريهما سرا لاسبيل لأحد إليه وأن ذكرته ستبقى على الأيام سارة . وقالت سينا : « إلى الملتقى » بصوت رقيق عذب فأضاء السرور وجه سانين ومدت إليه كفها فقبلها وقبلته قبلة الأخوين ورافقته إلى بوابة الحديقة ثم وقفت وجعلت تراقبه أسفة وهو يمضى عنها ثم كرت راجعة إلى الحديقة واستلقت على النجائل

وأغمضت عينها وفكرت فيما وقع وتساءلت أينبغي لها أن تطلع يورى عليه أم تكتمه . وقالت : « كلا ! لن أفكر في هذا مرة أخرى ويحسن أن تنسى بعض الأمور » .

- ٤٠ -

استيقظ يورى صباح اليوم التالى متوعكا مصدع الرأس مر القم . ولم يذكر في أول الأمر إلا صيحات وأصوات كؤوس وضوء مصابيح نحائية قرب الفجر ثم ذكر كيف أن شافروف وبيتر الليتش مضيا وأنه بقى مع إيفانوف وكان هذا قد اصفر من كثرة الشراب ولكنه ظل متأسكا وأنها وقفا يتحدثان فوق الشرفة .

ولم تدع لهما الحمر عينا تفتن إلى جمال الفجر والمروج والنهر وظلا يتناقشان وأثبت إيفانوف ليورى أن أمثاله لا قيمة لهم إذ كانوا يخافون أن يقطعوا ثمار الحياة وأن خيرا لهم أن يموتوا وذكر قول بيتر الليتش : « لنى على التحقيق لا أدعو هؤلاء الأشخاص رجالا » وضحك وتوهم أنه هدم يورى وقضى عايه ولكن يورى لم يسؤه ذلك ولم يعبا من كلامه إلا بقوله إن حياته شقية وذهب يعلل ذلك بأن أمثاله أدق حسا وألطف شعورا ووافق على أن خيرا لهم أن يخرجوا من الدنيا ثم طغى حزنه حتى كاد يبكى وهم بأن يخبر إيفانوف بحبه لسينا وما وقع له معها وأن يلقي بشرفها تحت قدمى هذا الوحش .

وذكر أيضا أن إيفانوف عاد بعد برهة ومعه سائين وأن سائين كان منشرح الصدر كثير الكلام وأنه كان ينظر إلى يورى نظرة ود مشوبة بالزراية ثم انتقلت خواطره إلى سينا فقال لنسسه . « لقد كان من الحسة أن أنتهز فرصة ضعفها . ولكن ماذا أصنع الآن؟ أأناها ثم أرمى بها . كلا ! هذا لاسبيل إليه فإنى أرق قلبا من ذلك إذا ماذا أفعل ؟ أتزوج منها ؟ » .

. الزواج ! إن هذا مبتذل إلى حد شنيع . وكيف يستطيع من كان مثله معقد المزاج أن يحتمل فكرة المعيشة الزوجية العامة، إن هذا مستحيل: « على أنى أحبها . فهل أنبذها وأمضى ؟ ولماذا أقضى على سعادتي ؟ إن هذا فظيع ومضحك ! » .

ثم وصل إلى البيت وحاول أن يصرف خواطره عن هذا الموضوع فجلس إلى المكتب وشرع يقرأ بعض عبارات فخمة كان قد كتبها أخيراً . « ليس في هذه الدنيا خير ولا شر . ويقول البعض إن الطبيعي خير وإن الإنسان حقيق أن يرضى شهواته » « لأنها طبيعية ولكن هذا خطأ لأن كل شيء طبيعي . وما من شيء يولد في الظلام أو الفراغ . وأصل كل شيء واحد » .

« ويقول آخرون كل شيء يخرج من يد الله حسن . ولكن هذا أيضاً خطأ لأن الله إذا كان موحوداً مصدر كل شيء حتى الكفر . وهناك آخرون يقولون : إن الخير هو فعل الخير والإحسان إلى الناس . وكيف يكون ذلك ؟ إن ما ينفع واحداً يضر غيره ، يطلب الرقيق حريته . ويستبقه سيده عبداً رقيقاً والغنى يبغى بقاء ثروته ، والفقر ينشدها ، وينشأ المظلوم الإيصال والحرية ، والظافر أن لا يهزم ، والمشنع أن يحب ، والحى أن لا يموت ، والإنسان أن يقضى على الوحوش ، والوحوش أن تفرس الإنسان - هكذا كانت الحالة في البداية وهكذا ستظل إلى آخر الدهر ، وليس من حق إنسان كائناً ما كان أن يستأثر بما هو خير له وحده » .

« ويقول أناس إن الحب خير من البغض ، وهذا أيضاً خطأ لأنه إذا كان ثم جزاء فخير على التحقيق للمرء أن لا يذهب إلى الأثرة والأناثية ، ولكن إذا لم يكن ثم جزاء فخير له أن يفوز بنصيبه من السعادة تحت الشمس » .

ومضى يورى في تلاوة هذا الذي كان كتبه وهو يظن أن خواطره

هذه مدهشة العمق وقال لنفسه . « إن هذا صحيح » واستشعر الزهو . ثم مضى إلى النافذة وأطل على الحديقة حيث كانت الأرض مغطاة بالأوراق الصفراء فأحس أن لون الموت يطالعه من كل ناحية وصار حيناً أدار بصره يرى أوراقاً ذابلة وحشرات ارتهنت حياتها بالحرارة والدفء ولم يستطع يورى أن يفهم هذا السكون وملاً الصيف المنصرم قلبه بالسخط فقال : « لقد زحف الخريف وسيتلوه الشتاء والجليد ثم الربيع فالصيف فالخريف كرة أخرى وتدور الأعوام دورتها الأبدية المملة . وماذا أصنع طول هذا الزمن ؟ ما أنا صانعه الآن ؟ كلا فساكون أبدا حسا وأكل ذهنا ثم يوافيني الهرم وفي عقبه الموت » .

وغزت ذهنه الخواطر التي كانت تربكه أبدا فراح يتوهم أن الحياة قد مرت به وأنه ليس في الدنيا وجود خاص - حتى حياة الأبطال تكون مفعمة بدواعي الملل والشجن في مفتحتها وخالية من بواعث السرور في ختامها . ثم صاح : « عمل ! نصر من أى نوع ! انتد ثم أحمد بلاخوف ولا ألم ! هذه هي الحياة الحقيقية الوحيدة » . وخطر لذهنه ألف عمل كل منها أفعل من الآخر فأغمض عينيه فمثل لخياله منظر الصباح في بطرسبرج وبدت أسوار مرتفعة بينها مشنقة . وتصور فوهة مسدس ملتصقة بجبينه وخيل له أنه يسمع صوت انطلاقه على وجهه فقال : « هذا هو الذى يدخره القدرلى ! هذا مصيرى ! » . فخفيت أعمال البطولة وحل محلها إحساسه بالعجز وخيل له أن ما يحلم به من الأعمال المحيدة اميس إلا أوهاما صيبانية . فقال : « لماذا أضحى بنفسى أو أحتمل الإهانة والموت لتتقى طبقات العمال فى القرن الثانى والثلاثين آلام الجوع والفقر الجنسى ؟ إلى الشيطان بكل من فى الدنيا من أعمال وغير العمال ! بودى لو ضربنى بعضهم برصاصة ! نعم أود أن يقتلنى بعضهم بضربة من خيلنى حتى لا أحس شيئا . ما هذا الكلام الفارغ ؟ ولماذا أطاب أن يفعل غيرى هذا ؟ ألا يمكن أن أفعل أنا ذلك ؟ هل بلغ من جبنى أن لا أستطيع

أن اختصر هذه الحياة التي أعلم أنها حياة شقاء محض ؟ إن المرء يموت لاحالة  
 فخير ... » ودنا من المكتب الذي فيه مسدسه وأخرجه منه وقال : « لنفرض  
 أنني جريت ! لا لأقتل نفسي فعلا بل على سبيل التلهي والمزاح ... » ووضع  
 المسدس في جيبه وخرج إلى الشرفة المؤدية إلى الحديقة وكانت الأوراق  
 الصفراء منتشرة على الدرج فرفسها برجله وأطارها في كل ناحية وصفر  
 لحنا شجيا حزينا. فسألته لياليا : « ما هذا اللحن ؟ أهو رثاء لشبابك الراحل؟ »  
 وذهبت إليه فقال : « لا تهاني » وأحس منذ هذه اللحظة أن شيئا يدنو منه  
 وأن لا طاقة له على دفعه فراح يتنقل في أرجاء الحديقة وهو مضطرب ومضى  
 إلى النهر حيث كانت الأوراق النادوية عائمة على صفحاته . وظل  
 يرقب الدوائر تتأرجح على سطح الماء والأوراق ترقص ثم كر إلى  
 البيت ووقف في ممرقة يتأمل أحواض الزهر وكانت فيها بقية منه ثم انقلب  
 إلى الحديقة ، كانت فيها شجرة بلوط خضراء الأوراق وعلى مقعد في ظلها  
 قطف فرمته يورنى واغرورفت عيناه وجعل يكرر : « أن هذا هو المنتهى »  
 وكانت هذه الألفاظ تنبع من نفسه ، وقع السهم فعاد يقول : « كلا ! ما هذا  
 الهراء ؟ إن حياتي إنما لا تزال أمامي وإنى مازلت في الرابعة والعشرين من  
 عمري . . . ليس هذا بالبنين يقتضى . وما هو ؟ » وذكر سينا فجأة وخطر  
 له أنه من المدهش عليه أن يقابلها بعد ذلك المنظر الفاضح في الغابة والخير  
 له أن يموت . . . فوسد الفمطة ظهرها وماءت فراقها يورنى باهتمام ثم جعل  
 يمشى حيا ومدهم . . . « إن حياتي مملدة جافة . . . ولا أدري . . . كلا !  
 إن الموت أهون من أماتها ! » .

فراحت سماء حياه واسقط أمامه المستقبل باردا فارغا مؤثسا فقال  
 « حبري أن أموت . . . وفي هذه اللحظة مر السائق وفي يده دلو ماء  
 تعطين سمنحه الزهر النادوية الصفراء وبدأت الخادمة في حرم الباب ونادت  
 يورنى فبدأت برهم لا يفهم ما تقول ثم قال لما أدرك أنها تدعوه إلى الطعام  
 ( م ١٩ - ابن الطيبة )

«نعم نعم .» وحدث نفسه : الطعام ؟ أتناول طعاما ! ما أقطع هذا ! كل شيء سيكون على العهد به : أعيش وأقطع قلبي بالتساؤل عما ينبغي لي أن أصنعه لسينا وحياتي وأعمالي ؟ إذا فلا بد من التعجيل وإلا لم تبق في الوقت فسحة إذا ذهبت إلى الطعام .» وغلبته الرغبة في الإسراع فراح كل عضو من أعضائه يردد وأحس أنه لن يحدث شيء ولكنه كان على هذا يشعر أن الموت يرنق فوقه وكانت الخادمة لا تزال واقفة في الشرفة ويداها تحت منشفتها تأنق نسيم الخريف الرقيق فتسلل يورى كالصنوبر وراء شجرة البلوط حتى لا يراه أحد من الشرفة وأطلق مسدسه بسرعة مذهشة على صدره وخيل له أن النار أخطأته ففرح وعاوده الشوق إلى الحياة والفرح من الموت فصرخت الخادمة وارتدت إلى البيت وما هي إلا برهة ثم رأى يورى حوله جمهورا من الناس وصب أحدهم ماء باردا على رأسه ولصقت ورقة زاوية بجبينه وضايفته وسمع أصواتا عالية من حوله وبكاء ونداء : « يورى ! يورى ! لماذا ؟ لماذا ؟ فعرف أنها أخته لياليا وفتح عينيه وأخذ يغالب الموت بعنف وصاح : « إلى بطبيب عجلوا » ولكنه أحس مع هذا أن الأمر قد قضى وأنه لا سبيل إلى نجاته وثقلت الورقة الصفراء على جبينه وضغطت على ذهنه فط عنقه مستوضحا ولكن الأوراق ظلت تكبر في رأى عينه حتى دون النظر ولم يدر يورى ماذا حدث بعد ذلك .

أسف كل امرئ على يورى سواء في ذلك من أحبه ومن ابعضوه ومن احتقروه ومن لم يفكروا فيه . ولم يفهم أحد منهم باعثة على الانتحار وإن كانوا يظنون أنهم يعلمون وأن في أعماق نفوسهم بعض ما خامر نفسه . ولم يشيعه من أهله أحد لأن أباه كان قد أصيب بالفالج

ولم يسع أخوته ليا ليا أن تتركه فناب ريزانتريف عن الأسرة وتولى الإشراف على الجنازة والدفن وكان لهذا وقع محزن في نفوس المشيعين ونعمر النعش بورود الخريف الجميلة ووسد يورى بين بيضائها وحمرائها هادئا ساكنا ليس على وجهه أقل أثر للعراك أو الألم .

ولما مرت الجنازة ببیت سینا لحنّت بها هي وديبوفو وكانت سینا مكسورة القلب مضطربة كأنما يسوقها سائق إلى إعلان فضيحتها وكانت على يقين من أن يورى لم يسمع بما أصاب عفافها ولكنها على هذا رأّت علاقة بين هذا وموته وكانت قد قضت الليل في البكاء وفي تقبيل وجه حبيبها المرتمس في نحيالها وطلع الصبح فاكتظ قلبها بحبه ومقت سائين واستمطعت كل ما قاله لها سائين وكانت قد آمنت به فلما دنا منها وهي سائرة في الجنازة نظرت إليه نظرة فزع واستبشاع وانصرفت عنه وأدرك سائين لما سلم عليها تكل ما تحسه وتفكر فيه وعلم أنهما بعد اليوم غريبان فعض شفته وانضم إلى إيفانوف وقال له : « اسمع ! إن بيتر الليتش سيموت ترتيلا ! » فقال إيفانوف « ما أغرب هذا الضعف ! يقتل نفسه في لحظة ! » فأجابه سائين : « إن اعتقادي أنه قبل أن يطلق مسدسه بثلاث دقائق لم يكن يدرى أين محر أم يحيا . لقد مات كما عاش » . فقال إيفانوف : « إنه على كل حال قد وجد لنفسه مكانا » . وتلقت الأرض يورى . وفي هذه اللحظة . حين كاد النعش يخفى عن النظر وتفصل الأرض إلى الأبد بين من عليها ومن تحتها صرخت سینا فتنجاوبت المقبرة بصرختها وعويلها ولم يعد يهمها أن تكتم سرها فضواها عن القبر وهيل التراب وسوى ورفعت عليه بعض الصوى .. وقات شافروف وقال : « أليس من يرثيه ؟ أيها السادة إن هذا لا يليق ! لا بد من تأيينه » .

فقال إيفانوف مقترحا بحيث « اطلب من سائين ذلك » .

فقال شافروف : « سانين ؟ وأين هو ؟ آه فلاديمير سانين هل تنفضل بالقاء كلمتين ؟ إننا لانستطيع أن نمضى دون أن نرثيه » .

فقال سانين بجفوة : « إذا فارتبه أنت » وكان يصغى إلى سينا وهى تبكى بعيداً عنهم فقال شافروف : « لو استطعت لفعات إنه كان حقيقة . . رجلاً نادراً . . أليس كذلك ؟ قل من فضلك كلمة ! » . فنظر سانين اليه شزراً وقال بلهجة المغضب .

« ماذا عسى أن أقول ؟ لقد نقصت الدنيا مجنوناً . هنا كل مافى الأمر . فوقعت هذه الكلمات أوضح ماتكون على مسامع الحاضرين وباع من ذهولهم أن لم يجدوا جواباً ولكن دييوقا صاحت بصوت عال : « يا للفضيحة ! » فسألها سانين وهز كتفيه : « لماذا ؟ » فهمت دييوقا بأن تصبح فى وجهه وأن تهدد بقبضة يدها ولكن رفيقاتها منعهن وتفرق الجمع بغير نظام وكانت عبارات الاحتجاج تخرج من كل فم وتشتت المشيعون كالأوراق الناوية عصفت بها الريح وجرى شافروف ثم ارتد ووقف ريارانتزيف مع بعضهم يومئذ إيماءات عنيفة . وكان سانين غارقاً فى خواطره يحدق فى وجه رجل على عينيه نظارة ثم التفت إلى إيفانوف وكان مرتبكاً ولم يكن يقدر حين أحال شافروف عليه أن يكون هنا رده فأسف وكان إلى جانبه شاب يتكلم بجرارة فسمره إيفانوف بنظرة وقال له : « يظهر أنك تظن أنك حليلة وزينة » فخجل الشاب وقال : « ليس فى هذا ما يضحك » . فصاح به إيفانوف : « لعنك الله اذهب عنى ! » وكانت نظرته من العنف بحيث لم يسمع الشاب إلا المضى . وكان سانين يراقب ذلك فابتسم وقال : « ما أحتمهم جميعاً ! » .

فقال ايفانوف « هيا بنا ! إلى الشيطان بهم »

ومرا فى طريقهما بريازانتزيف ورأى سانين زهرة من الشبان لايعرفهم واقفين ورأس كل منهم إلى رأس صاحبه وفى وسطهم شافروف يتكلم ويومئذ فلما دنا منهم سانين سكتوا جميعاً لينظروا إلى سانين وفى



وجوههم امارات السخط والغضب والاستغراب فقال إيفانوف « إنهم يأتمرون بك » واستغرب نظرة سانين الحزينة وتقدم شافروف ودنا من سانين فالتفت هذا إليه بحدة كأنما يتهباً لأن ينفض به الأرض . ويظهر أن شافروف أدرك ذلك فقد أصفمار ووقف على بغد وحف به الطلبة والفتيات كالأغنام وسأله سانين : « ماذا تريد غير ذلك ؟ » . فقال شافروف وهو مرتباك : « إننا لا نريد شيئاً ولكن كل زملاتى يريدون أن أعرب عن سخطهم . . . » فقال سانين وأسنانه مطبقة : « ما أعظم اهتمامى بسخطكم ! لقد سألتنى أن أقول كلمة عن الميت فلما صارحتكم برأى جئت تعربى عن سخطك . وهذا حسن منك . ولولا أنكم زمرة من الصبيان الحمقى المرورين لأثبت لكم أنى مصيب وأن حياة يورى كانت حياة سخيفة لأنه قضاهها فى التساؤل عن كل دال لا يجدى ثم مات ميتة الحمقى - ألا أنكم جميعاً لأكنف ذهنياً وأضيق عقلا من أن تستحقوا الكلام . فإلى الشيطان بكم جميعاً . أذهبوا عنى ! » . ولم يقلها حتى انطلق يشق لنفسه طريقاً بينهم فقال شافروف : « لاندفعنى من فضلك » وصاح بعضهم « لم أر أوقح ... » ولم يتم عبارته . وسأله إيفانوف : « ما الذى يخيف اناس منك ! إنك تفرعهم أسد الفزع ! »

فقال سانين : « لو ضايقتك هؤلاء الشبان بأرائهم الخرقاء فى الحرية لعاملتهم بأحسن من معاملتى لهم فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم » .

فقال إيفانوف « دعنا من هذا يا صديقى . هل تدرى ماذا يجب أن نصنع ؟ نشترى شيئاً من الجعة ونشربها على ذكرى يورى » .  
فقال سانين بدون اكتراث « إذا شئت »

ومضى إيفانوف فى تفصيل اقتراحه فقال : « إن يكون هناك أحد حين نعود . فلنشرب الجعة بجانب القبر وللفقيد احترامنا ولأنفسنا المبعة » .  
فقال : « حسن جدا » . ولم يكن على القبر أحد حين عاد فجالسا وما كادا

يفعلان حتى خرج من التراب ثعبان أسود فضيغ فصباح إيفانوف وهو يرعش  
« ثعبان ». ثم شربا وألقيا بالزجاجات الفارغة على الحشائش المغروسة  
على القبر الجديد .

( ٤٢ )

قال سانين لإيفانوف وهما يجتازان الشارع في المساء : « اسمع ! قال :  
« ماذا » ، قال : « تعال معي إلى المحطة فإني مززع رحيلًا » فوقف إيفانوف  
وسأله عن السبب فقال سانين : « لأنني مللت هذا المكان » فقال إيفانوف « أتري  
أخافك شيء ؟ » أجاب : « أخافني أنني راحل لأنني أريد ذلك » قال : « نعم .  
ولكن ما السبب ؟ » .

أجاب : « يا صديقي لا تسأل هذه الأسئلة السخيفة . إنى راحل وكفى  
وما دام المرء لم يستبطن الناس فقد يبقى له أدل فيهم . ولكن تأمل بعض  
من نعايشهم هنا : خذ مثلاً سينا أو سخينوف أو ليذا نفسها التي كان يمكنها  
أن لا تكون عامية النفس أوه ! إنهم يضحجونني الآن وقد مللتهم وأضنتني  
معاشرتهم وطال صبري عليهم واحتمالي لهم ولم تعد لي طاقة على  
ذلك » .

فحدق إيفانوف في وجهه قليلا وقال : « تعال ! إنك لاشك ستودع  
أهلك ؟ » . فقال سانين « كلا ! لست من يفعل ذلك فإنهم هم الذين أملاوني » .  
أجاب : « ولكن أين أمتعتك ؟ » .

قال : « ليس عندي شيء كثير . وإذا انتظرتني في الحديقة ذهبت  
إلى غرفتي وألقيت إليك بالحقيبة من التافذة حتى لا يكثروا من السؤال عن  
الأسباب والدواعي وعلى أى سبب هناك ما أقوله لهم ؟ » .

فقال إيفانوف « حسن . وإن لآسف جدا لسفرك يا صديقي ولكن...  
ماذا أستطيع أن أصنع لك ؟ » أجاب : « تعال معي » .

فقال «أين؟». أجاب: «إن المكان لا يهم. وفي وسعنا أن نتمكر في هذا فيما بعد فقال: «ليس معنى فال». فضحك سائين وقال: «ولا أنا». أجاب: «كلا! إذا فأذهب وحملك. وستبدأ المدرسة بعد أسبوعين فأعود إلى المحرى القديم». . ونظر كل منهما إلى صاحبه ثم صرف إيفانوف وجهه وهو مرتبك كأنما كان رأى صورة مشوهة لوجهه في مرآة. واجتاز فناء البيت ودخل سائين من الباب وانتظر صاحبه في الحديقة المظلمة تحت نافذة سائين.

أما سائين فإنه لما مر بغرفة الاستقبال سمع أصواتاً آتية من الشرفة فأصغى فإذا ليذا تقول: «ولكن ماذا تريد مني؟» .

فقال نوفيكوف: «لا أريد شيئاً. ولكن يخيل لي أنه من الغريب أن تظني أنك ضحيت بنفسك باليدا من أجل على حين أنى أنا...» فقالت ليذا بصوت متهدج: «نعم نعم. أعلم ذلك وأعلم أنك أنت الذى يصحى بنفسه لأننا. فماذا تريد أكثر من ذلك؟» .

فتضايق نوفيكوف وقال: «ما أقل فهمك لما أعنى! إني أحبك فليس في الأمر تضحية. ولكن إذا كنت تظنين أن في زواجنا تضحية بك أو بي فكيف نستطيع أن نتعايش؟ أرجوك أن تفهمي. إننا لانستطيع الحياة معاً إلا على شرط واحد هو أن لايجرى في وهم أحد منا أن في الأمر تضحية ما. وأما أن نكون متحابين وحينئذ يكون زواجنا معقولاً وطبيعياً، وإما أن لانكون متحابين وحينئذ...» فشرعت ليذا تبكى فجأة، فصاح نوفيكوف: «ماذا دهاك؟ إني لأفهمك. لم أقل شيئاً يسيئك لا تبكى. الحق أن المرء لا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة» .

فقالت ليذا وهي تبكى: «لأدرى .. ولكن ..» .

فقطب سائين أسرته ودخل غرفته وقال لنفسه: «وهذا كل ما وصلنا إليه؟ لعله كان خيراً أن تغرق نفسها أ» .

وكان إيفانوف . منتظراً تحت النافذة يسمع حركة سائين وهو يجمع امتعته فقال: «أسرع». فقال سائين ودلى إليه الحقيبة «خذ». ولما تناولها وثب سائين وراءها وقال «هيا بنا» .

وأسرعا فاجتاز الحديقة وكانت الشمس قد انحدرت ولما بلغا محطة السكة الحديدية ألقيا المصابيح مضاعة ووجد فاطرة تنفخ والناس يعدون ذات اليمن وذات الشمال وبصرا بزمرة من الفلاحين يشغلون جانبا من الإفريز بأشخاصهم وحزمهم الكبيرة

وشرب سانين وإيفانوف كأسى وداع وقال إيفانوف: «رحلة سعيدة إن شاء الله». فابتسم سانين وقال: «إن كل رحلاتي سواء لست انتظر من الحياة شيئا أو أسأها شيئا. أما من حيث الحظ والسعادة فلن يبقى من ذلك كثير حتى شارفتنا النهاية — الهرم والموت: يكاد يكون هذان كل ما ذخر لنا». ثم خرجا إلى الإفريز وانتحيا منه ناحية خالية ساكنة وقال إيفانوف «الوداع مع السلامة!». أجاب: «الوداع! وتلاتما وهما لا يدريان الدافع لهما. وصفرت القاطرة وبدأت تتحرك فقال إيفانوف: «يا صديقي لقد أصبحت كلفاً بك. وإنك للرجل الوحيد الذى صادفته فى حياتي». فقال سانين وهو يبتسم: «وأنت الرجل الوحيد الذى أهتم بى» ووثب إلى إحدى المركبات وهى مارة به وصاح: «هكذا أرجل. فالوداع» وأسرعت المركبات أمام إيفانوف كأنها قررت أن ترحل مثل سانين وبدأ من آخرها الضوء الأحمر فى ظلام الليل ولما نأى خييل لرائيه أنه جامد فى مكانه. وظل إيفانوف يرقبه برهة وبفسه حسرة ثم كر إلى الشوارع المضاعة وقال لنفسه: «أغرق همى؟» ثم دخل حانته ودخلت معه صورة حياته الشوهاء المملة وكالشبح.

— ٤٣ —

كانت المصابيح فائرة الضوء فى جو القطار الخالق وجلس سانين بجانب ثلاثة من الفلاحين وكانوا يتحدثون ساعة دخل عليهم وأحدهم يقول: «إن الأحوال سيئة». فقال ثانيهم وكان جار سانين: «لا يمكن أن تكون أسوأ. إنهم لا يفكرون إلا فى أنفسهم أما نحن فلا يكثرثون لنا أو يعبأون بنا. قل ما بدالك متى وصل الأمر إلى الدفاع عن النفس فالساعة للأقوى».

فسألم سانين: «إذا فما فائدة هذه الضجة؟» وكان قد حذر موضوع الكلام. فالتفت إليه أكبرهم سناً ولوح بيده وقال: «ماذا نضع غير ذلك؟».

فنهض سانين وغير مكانه وكان خبيراً بهؤلاء الفلاحين الذين يعيشون كالذباب ولا يستطيعون أن يدفعوا الظلم أو يقضوا على الظالم ويعلقون أملهم بمعجزة يموت في انتظارها الملايين منهم .

وكان الليل قد بسط رواقه ونام كل إمريء ما عدا تاجرأ قبالة سانين كان معه امرأة صغيرة لم تقل شيئاً واكن عينها كانت فزعة وكان الرجل ينظر إليها شزرا ويقول أيتها البقرة ! سأريك !» .

ونام سانين فترة من الليل حتى أيقظته صرخة من المرأة فحى زوجها يده عنها ولكن سانين أدرك أنه كان يضربها فصاح به : « يالك من وحش ! ! » فترجع الرجل وهو فزع وخرج سانين إلى مؤخرة القطار ورأى في طريته إليها كثيرين من الفلاحين رءوس بعضهم على أجسام البعض وكان الفجر قد أوشك أن يطلع فوقف سانين ينشق نسيم الصباح العليل وقال : « ما أحقر الإنسان » . ونازعتة نفسه أن يعتزل الناس ولو برهة قصيرة وأن يترك القطار وجوه الملوث ودخانته وصحته . ولج به الشوق إلى الخلاص من كل ذلك .

وكان الأفق في الشرق قد احمر وغابت ظلال الليل في زرقة الأفق . فلم يضع سانين الوقت في التفكير بل ترك حقيقته ووثب من القطار إلى الأرض . ودر به القطار يمثل صوت مرعد وهو ملقى على الرمال البليلة اللينة فلما نهض كان المصباح الأحمر قد بعد عنه فأخرج سانين صيحة فرح وقال : « هذا حسن » .

وكان كل ما حوله طليقاً شاسعاً والحقول والمزارع منبسطة على الجانبين إلى الأفق فتنفس سانين نفساً عميقاً ورى هذا المنظر بعينين وضاعتين تم سار ووجهه إلى الفجر اللامع وخيل لسانين وهو يرى السهول تستيقظ وتكتسى حللتها البيضاء تحت قبة السماء وأشعة الشمس تنطلق كالسهام النارية التي يطلقونها في ليالي الأفراح

— خيل إليه إنه سائر إلى لقاء سعيد في جنة فيحاء

تمت بحمد الله